رواية

عبد الناصر العايد

سيِّد الهاوما

دار الجمل

نينوى

سيد الهاوما

اسـم الكتـــاب: سيد الهاوما - رواية
اسم المؤلـــف: عبد الناصر العايد
عدد الصفحات: ٢٥٦
القيـــــــاس: ١٤.٥ * ٢١.٥
١٠٠٠/٢٠١٠م-١٤٣٠هـ

© جميع الحقوق محفوظة لـ
Copyright ninawa

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص ب ٤٦٥٠
تلفاكس: ٢٣١٤٥١١ ١١ ٩٦٣ +
هاتف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣+
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

منشورات الجمل، بيروت – بغداد
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١١٦٦٨١١٨ ، ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ – بيروت – لبنان
Al-Kamel Verlag 2010©
71687 Freiberg a. N. – Germany .Postfach 1127
www.al-kamel.deWebSit:
E-Mail: info@al-kamel.de

العمليات الفنية:
الإخراج والطباعة وتصميم الغلاف
القسم الفني – دار نينوى – م. سوسن الحلبي
لوحة الغلاف الفنان السوري ادوارد شهدا

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت
دون إذن خطي مسبق من الناشر.

عبد الناصر العايد

سيد الهاوما

روايـة

عبد الناصر العايد

سورية – دير الزور ١٩٧٥
بكالوريوس علوم عسكرية في قيادة الطائرات.
فاز بجائزة وزارة الثقافة السورية للكتاب الشباب (حنا مينة) ٢٠٠٤ عن مجموعته القصصية (الاحتراب).
فاز بجائزة (دمشق عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٨ للكتابة الجديدة) عن روايته (قصر الطين).
يملك ويدير دار النهرين للدراسات والترجمة والنشر في دمشق.

إلى كلا شقيقي:

علي ٢٦ سنة في الحياة ....

عبد الله ٢٤ سنة في الحياة:

إلى عنوانكما الدائم ـ حتى نلتقي ..

رسائلي الحزينة ..

عبد الناصر..

١

عندما بلغني نبأ وفاة ناصر خسرو، كنت عند عمر الخيام في نيسابور، وكان نظام الملك مع سيده ألب أرسلان في أقصى الغرب، يخوضان حرب السلاجقة الأولى مع الروم، التي توجت بمعركة ملاذ كرد.

دعا مجلس الحكماء مجموعة الأربعين التي كنت لا أزال واحداً منها لحضور الجنازة. أخذت حصاناً جيداً، وأسرعت إلى بدخشان حيث سيشيع ناصر في إمارة يومغان المستقلة التي يحكمها صديقه وحاميه لما يزيد على عشر سنوات، الأمير أبو المعالي علي بن الأسد.

كانت الشمس ساطعة في جبال البامير الكلسية الجرداء، إلاّ أنَّ الهواء كان بارداً جداً في تلك الأيام من شهر كانون الثاني. قادني رجل ممن عهد إليهم استقبال قيادة المشيعين، بعد التحقق من هويتي، عبر مضيق بين الجبال العالية إلى قصر الأمير، حيث اجتمع الحكماء الثلاثة العجائز، وثمان وعشرون أربعيني تسنى لهم الوصول قبلي، أحدهم صديقي القديم عميرة زارب.

تقرر أن تقام الجنازة فجر اليوم التالي بمن حضر. حين انفردت في الليل بعميرة، وهو الشخص الوحيد الذي تعامل معي بودٍّ، سألته عن المرشحين المحتملين لخلافة ناصر خسرو في منصب الاصبهد، الذي لم أكن لأستغرب فيما لو أسند لي، لكنه أجابني بتحفظ مهذب، أراد أن يقول من ورائه إنني لست

موضع الثقة الكافية لتداول هذا الشأن الحساس!.

عند شروق عين يزدان، كان الحكماء الثلاثة يتسلقون سفح جبل يومغان تحت عباءاتهم الصوفية الثقيلة، يتقدمهم أبو المعالي، الذي كان يرتدي زياً حربياً من الجلد المشدود، وخلفهم سرنا نحن الأربعينيين الحاضرين مطوقين بأحزمة الكوستي المقدسة وتردد الصلوات، حتى بلغ الجميع القمة التي أوقد عليها رجال الأمير ناراً كبيرة من حطب جفف لسبع سنوات، وحين ذاك أججت النار بالأوراق العطرية التي فاح شذاها القدسي، ثم سكبوا عليها دهن الثور فسطعت وتلظت، وبدا اللهيب لحظتها، شيئاً من عند الإله حقاً، فتحلقنا حولها نردد مع الموبذ موبذان أبي الفضل: "امنحيني أيتها النار، يا أبن يزدان، السعادة والغنى، سروراً عظيماً، وأرزاقاً كثيرة، وثراء وحكمة وفلسفة، ولساناً مرهفاً، وامنحيني العقل والذكاء.... لأجل الروح".

ومن أسفل الوادي، انطلقتْ سرية من الجنود، تحمل على محفةٍ جثمان الراحل العظيم، التي حُفظت في غرفة باردة ومغلقة فوق الأرض طوال الأيام السبعة الماضية، يرافقهم كهنة يرتدون ثياب بيضاء، ويلوحون بأغصان البارسمان، وهم ينشدون بصوت واحد يخرج آخره من فتحة الأنف اليمنى، ممطوطاً ومُعذّباً: "أتوسل إليك ربي...أن تمدّ يد المساعدة لشخصي الضعيف الفقير...أحمدك ربي.. وأثني عليك لما وهبت لي من فكر طيب... وقول طيب... وعمل طيب".

كنت أراقب جسد ناصر وهو يطفو إلينا في سحابة البياض تلك، متفكراً في معنى حياته، ونوع خاتمته. فناصر حين كان في مثل سني، كان أيضاً موظفاً كبيراً في بلاط الغزنويين، قبل أن يمر بتجربة روحية لم يفصح عن تفاصيلها قط ، لكنها كانت من الشدة والعنف بحيث دفعته إلى هجر وظيفته والذهاب في طريق مغاير، أوصله في النهاية إلى هنا . فهل كان يتخيل شيئاً كهذا قبل أن يتخذ قراره ذاك؟ أكان الغرق في رغد البلاط أفضل؟ هل كانت جنازته الملكية

حينها ستكون أكثر مهابة من هذه... وهل ثمة أهمية لذلك كله أصلاً؟.

صرخ أحد الجنود الذين انتشروا على الطرقات الجبلية، يزجر راعياً يسوق قطيعاً من الماعز ويمنعه من المرور في طريق الجثة، فالأخيرة تهاجمها الشياطين ما أن تفارقها الروح، على هيئة ذباب الجثث الذي يهب من الشمال، بصورته القبيحة، مدنساً بقذارته كل كائن ومكان يصيبه، من الفراش إلى الثياب إلى المنزل إلى أقارب الميت إلى النار إلى أدوات العبادة والطعام إلى الكائنات الطاهرة من ثيران وأبقار وماعز.

عندما بلغت المحفة قمة يومغان، نضا أبو الفضل عباءته الصوفية، واقترب من جثة ناصر الذي يُتوقع له أن يكافأ بالصعود إلى فلك الفرفاشيين القمريين، وهمس له برسالة من شعبنا الأرضي إلى روحانيينا العظام، لا أدري ما مضمونها.

وضع المحاربون الجبليون الكئيبون، ذوي الوجوه الكامدة القاسية، المحفة على الأرض. وتربع أبو الفضل عند رأسها، فيما جلس ابن عطاش على ميمنتها والنيسابوري على ميسرتها وبدأ التلقين بصوت هامس أثار كلاب الصيد الأميرية، التي جلبت لإرهاب ذباب الجثث بنظراتها، وراحت تدور وتنبح بهياج.

بعد تلاوة صلاة التقديس الأخيرة، نزع الحكماء والأربعينيون الثياب عن الجثة. بدا جسد ناصر شمعياً شاحباً وفي أشد درجات الانسجام مع اللحية وشعر الرأس الطويلين صديٍّ اللون. لم نشم رائحة نتانة أو فساد، كان ذلك إحدى علامات طهرانية الرجل، الذي خدم قضية يزدان بتفانٍ وإخلاص لأكثر من ثلاثين عاماً.

حملنا الجثة المتيبسة فوق أعناقنا إلى ناووس حجري مكشوف، نصب في أعلى نقطة من الجبل، وسجيناها هناك، ثم ثبتناها من الشعر إلى القدمين بالطوب كي لا تتطاير بقاياها وتمتزج بالنار والماء والتراب، وانسحبنا إلى موضع مناسب، ثم أطلقوا الكلاب المجوَّعة المدرَّبة، فأقبلت عليها تنهشها بنهمٍ، مبتدئة

بالسرّة. تنازع كلبان الرئة اليسرى وأسقطتا الجثة على الأرض، فسارعنا لإعادتها إلى موضعها. ثم أقبل سرب من النسور المنشورية الكبيرة، ودوّمت في الفضاء بجلال، قبل أن تتقاطر واحداً تلو الآخر، لتحطّ على أطراف الناووس، وتتناول نصيبها.

عند الأصيل وفيما كان أبو الفضل يتحدث همساً مع الأمير، مشابكاً يديه على شكل زورق وناظراً إلى زيقه، حلق سرب النسور مغادراً الناووس الذي لم يبق فيه سوى الأحشاء المنتفخة والعظام الرطبة. رنا الأمير بألمٍ إلى لحم صديقه وقد صار في بطون الجوارح التي احتملته وراحت تخفق بأجنحتها الطويلة الرخيّة، مثل أطراف النبلاء، نحو السموات المدلهمة. قال وقد انسابت دمعة على خده: "ستعمر هذه الطيور طويلاً...!".

جمعنا العظام في الناووس وأحكمنا إغلاقه بغطاء حجري كي لا يتسرب إليه الماء. عند الغروب كنا نهبط قمة يومغان تتقدمنا المشاعل والكلاب ورجال أبو المعالي بن الأسد، الذين انتشروا في كل مكان، وتتعالى صرخاتهم الزاعقة من عدة اتجاهات، تحذر الرعاة الآيبون إلى بيوتهم من المرور في طريق الجثة!.

ليلاً وبعد أن تطهرنا بالاغتسال ببول الثور وبالتراب والماء ثلاثاً، وبعد أن تناولنا القربان الأول الذي أعدّ في القصر لكي تصعد روح ناصر خسرو إلى الفلك راضية شبعانة، أعلن أبو الفضل باسم الحكماء الثلاثة، اختيار الأمير أبو المعالي لمنصب الأصبهد خلفاً لناصر. لم يفاجئني القرار كثيراً، فبعد اختبار وضعي من خلال تعامل الرفاق معي تضاءلت طموحاتي إلى مادون ذلك بكثير، وصار أقصاها استعادة جزء من مكانتي ومصداقيتي لدى رؤسائي وبين زملائي. حرصت على حضور شعائر الحداد التي تمتد ثلاثين يوماً، والمشاركة في كافة الطقوس التي تقام أثناء ذلك، لكني لم أحظ أو أمنح فرصة للتقدم خطوة واحدة، بل أني لم استطع حتى أن أعرف حقيقة وضعي داخل الجمعية، هل أُعامل كمنشق لا يراد له أن يخرج عن السيطرة بنبذه تماماً، أم أنني أخضع

لاختبار أم لعقوبة العزل. كان الجميع يتحاشونني ويتعاملون معي بتحفظ وبرود. خاصة رئيسنا أبو الفضل الذي تجاهلني طوال الأيام الثلاثين، ولم يوجه لي شيئاً مميزاً سوى نظرة وحيدة خصني بها ذات ليلة حين كان يتلو الصلاة على القربان عندما وصل إلى العبارة التي تقول: "كل مخلوق خلقه يزدان لمواجهة شر ما، أما التوبة فقد خلقها لمواجهة الشرور جميعاً".

في يوم رحيلي عن جبال البامير، توجهت إليه بذريعة توديعه والتماس توجيهاته. اكتفى بالقول أنه يتمنى لي سفراً آمناً وشكرني لمساهمتي في جنازة "الفرفاشي" ـ فمنذ الآن سنشير إلى ناصر خسرو بهذا الصفة ـ وأضاف: "الذي سيشفع لك بالتأكيد في الأفلاك". وعندما طلبت منه أن يوصيني اكتفى بالتأكيد على طلب المعرفة عموماً وختم كلامه بالمقولة الأفستية: "لم يحن قدوم الزمن العظيم، ولهذا علينا أن نتعلم من الذين يملكون الحكمة!". ثم سارع إلى الانحناء بجذعه نحو الأمير هامساً بحديثٍ ما، في إشارة واضحة لي بالانصراف.

حيرتي دفعتني إلى توسل سيدتي زوروش، ربة الرؤى التي احتجبت منذ أن عرضتُ على الحكماء قصة صعودي وإياها إلى الفلك المحيط. انتظرتها كثيراً، توسلتها من كل الطرق التي تستجلب بها دون فائدة. ودفعني إعراضها في النهاية إلى ارتكاب ذلك الخطأ الشنيع في صحراء "دشتي كافر"، الملحيَّة الطينية.... في طريق العودة من بدخشان، وفي لحظة ضعف، من ليلة شديدة السواد، قررت أن استجلب الرؤيا من تلك الطريقة القذرة التي يعمد إليها السحرة الأهرمنيون لاستكشاف المستقبل ومعرفة ما يجب على المرء فعله لتحقيق أمانيه، وكتبت الآيات القرآنية من ٥٩ إلى ٦٣ من سورة الأنعام على قطعة من القماش، ولففتها على ذراعي، ثم نمتُ.

❖❖❖

٢

كانت قيلولة حارقة من قيلولات أواخر صيف سنة ١٠٤٥م، وكنت أنهيت للتوِّ واجبي في بيتنا الذي في الري، أرتدي ثوباً سميكاً من الكتان بلون التراب الأحمر، ويطنُّ حولي ذباب كثير، لاذ ببرودة غرفتي الطينية، مؤنساً عزلتي التي أتلمس فيها بثور حب الشباب البازغة حديثاً على وجهي، بقلق لا يخلو من تلذذ.

وضعت أوراق المسائل والدواة جانباً على الطاولة الخشبية التي صنعها لي والدي بنفسه، وانطلقتُ في رحلة صيد. أرديت أول الذبابتين أرديتها بضربة علوية سريعة وكان مستقر على موضع كفي الأيسر من الطاولة، حيث دبق عرق بشرتي، وأمسكت الأخرى بالطريقة الأكثر جمالاً، ولكنها نادراً ما تنجح، التلقّف.

كنت أفرد كفيّ عنها لأرى إن كانت قد ماتت أم لا، عندما اكتشفت أنّه ينتصب وراء ظهري: "أنهيت الواجب؟!". سؤاله الذي لا يني يردده عليَّ مثل التحية، عدة مرات في اليوم، حتى غدا سكة تحرث دماغي وتستقر فيه، "أنهيت الواجب؟!" عاد يسأل، سارعت إلى أوراقي أفردها كأنني أقول له نعم، متحاشياً إجابته بالكلمات التي تتوقف عند مطلع حلقي كلما هممت بفعل ذلك.

تأمل المسألة الرياضية، وأعادها إلى الطاولة برضا، قال مغتبطاً: "الحل صحيح... سأكافئك". وجرَّ الكرسي الكبير الذي صنعه ليجلس عليه عند المذاكرة: "انظر... يقول تعالى: ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه﴾...

فمن يقصد؟" لم أجب. "ليس غير الملوك إن سلبوا المرء شيئاً عجز عن استعادته... لكن هؤلاء رغم كل قدرتهم تستطيع أن تسلبهم كل شيء إن أنت استخدمت عقلك... انظر". ومدّ كفَّه إلى ذبابة فطارت..."تقلع من مكانها على استقامة جسدها من جهة الرأس، فإن اعترضت سبيلها بكفك من هذا الطريق!" وتلقَّف ذبابة تدبُّ بنشاط على الطاولة بحركة واحدة، ثم أفرد كفَّه لتنطلق مجدداً: "فإنك سلبتها كل شيء".

في مساء ذلك اليوم أعلنَ على مائدة العشاء الخشبية الواطئة، أنني يجب أن أتجهز للسفر إلى نيسابور، فثارت ثائرة أمي. كانت "المرأة"، صموته وكئيبة، ودريئةٌ تعلمت منها خوفه. كان يضربها بلا شفقة. وشأنها شأن شقيقتي الكبرى "دغدويه" التي تكبرني بسنتين، وفاطمة الصغرى، هي موضع احتقاره المسبق غير المبرر... كان يعجب ويستنكر لوجود هذا الصنف من الكائنات في الحياة. وأعتقد أني سمعت منه يوماً قوله بأن الله قد ارتكب خطأً حين اشتقّها من لدن الرجل الذي صنعه على أحسن تكوين... ثم عاد واستغفر الله الذي له في خلقه شؤون.

لحقتْ به إلى غرفته الغامضة التي مُنعنا جميعاً من ارتيادها، توسلتْ إليه على العتبة بدموعها: "ولدي الوحيد يا علي...!". "اسمعي، اختصاراً للقول... سأضعه في مدرسة نيسابور لأن عظماء هذه البلاد تخرجوا منها... أنا أريد خيره وصلاحه... ولأني لا آمن عليه من السفلة الذين حاولوا قتلي... قد يحاولون الانتقام مني بإيذاء حسن.. فهمت؟".

طبعاً لم تفهم، لا أمَّ تفهم؛ لكنني فهمت من حوارهما بأن ثمة من يترصده ويحاول اغتياله بسبب معتقداتٍ خطيرة يعتقدون أنه يضمرها. وقد توسلت إليه أمي أن يحاور أعداءه، خاصةً قاضي الريِّ، وأن يتفاهم معه وينهي حالة العداء، لكنه رفض. ولم تنقطع محاولاتها اليائسة للاحتفاظ بي حتى في الفراش، الذي ظلت تئن فيه باكية متوجعة حتى الصباح، وهي تضمني بعنف إلى صدرها.

في الصباح دخل حاملاً ثوبين جديدين من الزنداجي،أحداهما بلون أبيض

ناصع، والآخر بلون التراب البني. أمرني أن أرتدي الأخير. دخلت غرفتي وخلعت الثوب الذي بلون التوت الأحمر، وارتديت الكسوة البنية، دخلت أمي التي لم تتوقف عن البكاء الأخرس، وضمت الثوب القرمزي الذي يحتضن برائحة جسدي إلى صدرها، ونشجت بحزنٍ فتت قلبي، فألقيت بنفسي في حضنها، ولم أدر متى وصلت شقيقتي دغداوية وألقت بنفسها هناك أيضاً ... وجاء صوت أبي كحدٍّ سكين وهو يقول: "يا ولد ... ألم ترتد ثيابك بعد؟".

كانت فاطمة الصغيرة التي لم تبلغ الخامسة تنظر إلى كتلتنا المتشابكة بالأذرع والأعناق حائرة في سر ذلك المنظر الحميم الذي لم تشهده من قبل. وسألت باستغراب: "إلى أين سيذهب حسن؟!".

دخل والدي عندئذ، ميزت لأول مرة شكل ولون بشرته وعينيه. كان رجلاً ضئيلاً نحيفاً مثل طائر صحراوي، له بشرة داكنة مائلة إلى الصفرة البنية، وعينان سوداوان صغيرتان وقلقتان، تتحركان بسرعة. ولاحظت لأول مرة أيضاً، أن له خصراً نحيفاً للغاية، ويكاد بطنه يلتصق بظهره. قال باستنكار: "ما هذا الهراء؟!" ... وتقدم ينزعني من كتلة الأيدي، مدَّ كفه، لكنني سارعت لمغادرة حضن أمي الدافئ، كي لا يلمسني.

استكملت ارتداء الكسوة، وصرَّت والدتي ثيابي القليلة مع أدوات الكتابة في منديل كبير، مستبقية بموارية وحرص، الثوب القرمزي، لكن قبيل خروجي من الغرفة وجدتها تدسّه في بقجة الثياب... بلا كلمات سحبته واعدته إليها، لكنها أرجعته قائلة: "تلك البلاد باردة".

كنا نجتاز حارة الأكواخ الطينية المسقوفة بالقصب والتراب، يلقي أبي التحيات المبجِّلة على الرجال والشبان الذين أقعدهم اجتياح الغز للمدينة في البطالة، فيردُّ بعضهم باستخفاف، ويكتفي البعض الآخر بنظرة مزدرية متسائلة عن علي الصباح وولده قليل الظهور، وهما يحملان الصرر، فيما يبدو أنه سفر.

في هذه الأثناء كانت فاطمة تجري بين البيوت لتقطع علينا الطريق. فاطمة الجميلة ابنة الأعوام الخمسة زهرة بيتنا ومعلم الجمال الوحيد فيه؛ ولدت حين كنت في السادسة من عمري، وأتاحت لي رؤيتها تولد وتنمو في غرفة معيشتنا، أن أشعر بذلك القلق الذي يبدأ ولا ينتهي، حين تعاين أول تجربة ولادة جديدة أو موت، بعد أن كنت تتوهم أن العالم ولد على هذه الصورة، وسيبقى كذلك إلى الأبد.

كان لوالدتي وجه جدران بيتنا الطيني، محايد، أقرب إلى الكآبة، ذو مسامات وخدوش كثيرة كخدوش التبن في الطين؛ وكان أبي ضامراً جاف الإهاب، قاسي العينين، قليل الكلام والتبسط، منقبضٌ على الدوام. أما دغدويه، فقد كانت خليطاً منهما، وإن بدت أقرب إلى أمي... أما فاطمة فكانت جميلة على نحو استثنائي، شقراء الشعر، عسلية العينين، وردية البشرة ونديتها ... مرحة ولعّابة وضحوك.

منذ سنة علمتها لعبة بسيطة، نقذف حجري نرد، نجمع الأرقام، وأسجل النتائج. ومن يبلغ العدد خمسين قبل الآخر يعتبر فائزاً. وكان أبي يغض الطرف عن لهوي هذا، فقط لأنه يساعد في تعلم مهارات الحساب السريع.

فجأة برزت عند آخر بيت في الدريب لاهثةً، بوجنتين متوردتين تحت خصلة شاردة. أطلق أبي صرخة غاضبة، لكنني قرفصتُ أمامها وضممتها من كتفيها وكلي رغبة في وضعها في قلبي. أفردت كفُها الطرية عن حجري النرد قائلة: "حسن... خذهما ...العب بهما". كانت تصرُ بعد كل لعبة على الاحتفاظ بالحجرين، كانا لعبتها الوحيدة التي تمتلكها. عندما لا أستطيع أن ألاعبها كانت تفترش الأرض وتلعب لوحدها: "هذا أنا، وتلقي، ثمانية... هذا حسن، وتلقي، خمسة....!!".

لم تكترث فاطمة لصراخ أبي، أخذتُ النردين من كفِها الذي تعرق قليلاً. سألتني: "متى تعود؟!". قبلتها على الوجنتين الساخنتين، سحبني أبي: "هيا يا حسن...عودي إلى البيت يا فاطمة...هيا.." لكن فاطمة لم تغادر، وقالت آمرة:

"احضر الحجرين عندما تعود .....!".

لقد ولدتُ في قرية معصوم بالقرب من قم سنة ١٠٣٢ م، وهذا التاريخ مؤكد، فوالدي أخبرني أني ولدت في الحول التالي لتولي القائم بأمر الله الخلافة العباسية في بغداد. من معصوم انتقلنا إلى الري عندما كنت في الخامسة لأسباب كانت غامضة في حينها، لكنني الآن أدرك أنها على علاقة بمعتقدات أبي، الذي استهدفه إمام مسجد القرية بشكوكه واتهاماته، وتبعه بمضايقاته إلى الري، فاعتزلنا الجوار، ولم يغير من الأمر شيئاً ما كان يردده في دفاعه عنا بقوله إننا مسلمون، وعرب أقحاح من حميري اليمن، بل ومن سلالة ملوكهم... ولم يشفع لنا كون جدي محمد بن جعفر الصباح ولياً وعارفاً وحكيماً مشهوراً في قم وما جاورها.

يعمل والدي في دكان للصفر، مبيض نحاس، لكنه كثير الأسفار، بعضها يقتصر على يوم واحد، وبعضها يمتد أياماً. كان يذهب حاملاً جعبة من الكتب والأوراق، ويعود سعيداً منتشياً.

كان قبيل سفره يكلفني بواجبات دراسية ضخمة. في المرات القليلة التي استطعت بجهد أن أنجزها قبل عودته، برزت إلى الدريب الذي ينتظم عليه بيتنا ذي الغرف الثلاث، فوجدتني حائراً غريباً، مغلول الرجلين واليدين، ملجوم اللسان... خشيت مخالطة أولئك الصبية الذين تبدو عليهم معالم الذكاء والفطنة والخشونة، وانسحبت إلى جحري وانطويت على نفسي، فارضاً عليها عدم مخالطة الآخرين، بقسوة تفوق قسوة أبي.

كنا بالتأكيد نملك النقود القليلة التي يحتاجها المرء ليكتري جملاً أو بغلاً مما تستخدمه القوافل العديدة في رحلاتها عبر فيافي فارس بين المدن الرئيسية، لكن والدي اختار أن نسافر إلى نيسابور مشياً على الأقدام لنبلغها في خمسة أيام، تحت شمس أواخر آب اللاذعة.

❖❖❖

٣

لم تزرني ربة الرؤى في صحراء دشتي كافر، لكن الرؤية حصلت. رأيتني، وقد ثخن وانفتل شعر رأسي ووجهي، وتحول إلى أفاعٍ تموج في الضراغ برؤوسها الطليقة وأعينها النارية، أحملها برفق، حذر أن ترتد إليَّ فتلدغني، وألج قصراً عمِّرت واجهته على شكل وجه رجل، مستطيل وكبير جداً، صارم وقاسي الملامح، وجه ألب أرسلان ذاته... تجاوزت البوابة التي تنفتح على قوس من الأبواب، ودفعت أحدها فأفضى إلى آخر وهذا أفضى إلى ثالث ثم إلى رابع ثم عدت إلى الباب الأول، ورحت أتخبَّط فيما يشبه متاهة أبواب، وتملكني فزع راعش، وبدأت أبحث متعثراً عن مخرج، وفي غمرة رعبي وهلع قلبي، وجدت نفسي على شاطئ بحرٍ تتداعى أمواجه برفقٍ إلى رمال صحراء مستوية، مشرقة بلا حدود، يهبُّ إليها نسيم رطب نظيف، يتلاعب بثيابي، وشعر وجهي ورأسي الذي عاد ناعماً مسترسلاً.

في تلك الأيام داهمتني على غير توقع، كآبة منتصف العمر - انجلى حماس الشباب وفورته، وبلغت التاسعة والثلاثين، قرب الجدار الذي وعدت نفسي منذ سنٍ مبكرة بالتجلي عليه، أعني سن الأربعين، الذي تجلى فيه أكثر العظماء. لم يتراجع إيماني بالاعتقادات التي قادتني طوال الثلاثين سنة الماضية، لكنها بدت وأنا في تلك البلنهية المغلولة والعجز الكسيح، كأنما تتخلى هي عن خدماتي،

وتتركني فريسة لمشاعر الضعف والاضطهاد ... عاودني ألمي وقلقي، ورحت أذوي شكلاً ومضموناً، ويتحول لون وجهي إلى الأسود المصفر، رغم تنعمي بالراحة والبطالة التامة في أفياء القصر وخيراته.

لكن نظام الملك الذي يسلك مع رجالاته وأعوانه سلوك العاشق الناجح، فلا يسهو عن حركة، أو يغادر إشارة من إشاراتهم دون ردٍّ أو مبادرة في الوقت والسياق المناسبين، دعاني فجأة إلى حديقة قصره، وقص عليَّ ما لم أسمعه من حوادث معركة ملاذ كرد. وصف ساخراً من نفسه ذلك الغلام الهزيل الذي دفعه إليه القائد كوهرائين ليكون في حراس السلطان، وقوله متهكماً عندما أطنب كوهرائين في الثناء على الفتى: "أطلقهُ مع الجند، عساه يأتينا بملك الروم أسيراً". وكيف أن الفتى حظي "مصادفة" بالإمبراطور رومانوس متنكراً، فجاء به أسيراً ليحسم تلك المعركة الكبرى على نحو عجائبي... حاول نظام أن يستخلص الحكمة من تلك الحكاية، واستدعى كاتبه ليدونها، لكنه لم يستطع صياغتها في عبارة موجزة، فصرفه قائلاً: "تأتي من تلقاء نفسها". ثم التفت إلى حالي "الذي لا يعجبه"، ووصفني من الداخل والخارج بدقة أدهشتني وأدخلت السرور إلى قلبي. ثم اشتق حلاً لمشكلتي من معاناتي ذاتها، التي يرى أن سببها طريقتي الشاذة في العيش، فأنا بلا امرأة!. استغربت ألا يكون قد خطر لي ذلك في غمرة تساؤلاتي وتفكيري بنفسي. أجل... لمَ لمْ أتزوج؟!.

لم أفكر كثيراً، منيت نفسي بأن يكون الزواج ذاك هو المخرج الذي رأيته في المنام. توجهت إلى الري، حيث لا تزال تقطن أمي وشقيقتي، وكنت أزورهم لماماً بين رحلة وأخرى. صارت والدتي عجوزاً خرفة ومشرفة على الموت. دغدويه أضحت جدة، وصارت فاطمة سيدة سعيدة ومحترمة، بعد أن غدا زوجها رئيس العتالين في الريِّ! لكنني لم أتصالح معها.

رشَّحت دغدوية أكثر من عروس، وانجذبتُ بقوة إلى فتاة طويلة ضامرة، صامتة وحزينة، سأكتشف لاحقاً أنها تشبه أمي.

كان الشهرين الأولين من زواجي سعيدين، وتحسنت كثيراً، ولمت نفسي لإسقاط المرأة من مخططاتي ومشاريعي... لكن شيئاً فشيئاً، راحت الحياة معها تنزاح إلى منطقة أعرفها جيداً، ويخنقني العيش فيها، الحياة في كنف أمي.

كانت حاملاً عندما بلغني نبأ مقتل ألب أرسلان عند نهر جيحون، فيما كان يزحف نحو بخارى طالباً رأس خانها شمس الملك تكين، على يد ي جندي أسير ومحطم العظام، وبطريقة لا تقل غرابة عن انتصار ملاذ كرد.

هرعتُ إلى أصفهان التي خفَّ إليها أيضاً نظام الملك مع السلطان الجديد ملكشاه، الفتى الغر المراهق، ورحت أبني الآمال وأعدُّ الخطط مجدداً لاستعادة الحلم الذي كاد يأفل. هاهي دولة الترك تترنح فجأة وعلى غير انتظار، يقوم عليها فعلياً رجل فارسي، من وراء فتى يافع ينازعه على الملك أعمامه وأخوته، ولن يصعب علينا أنا ونظام، أن نجد طريقة نضعهم فيها جميعاً في وجه بعضهم البعض فتتفانى قواهم، ثم ننقض عليهم ونخلص شعبنا وبلادنا منهم إلى الأبد.

لكن نظام الملك ذاد بإخلاص عن الصبي، وأخمد ثورة عمه قا ورت بك، وأمر القائد كوهرائين بخنقه بوتر النشاب. وقمع تمرّد الجند الذين مدّوا أيديهم إلى أموال الرعية، قاطعاً الطريق على ثورة محتملة لشعبنا. ولم يهدأ حتى قدم لملكشاه دولة تسير بانتظام لم يعرف له التاريخ مثيلاً. وملكشاه بدوره سلمه مقاليد الدولة، وخلع عليه لقب "الأتابك" أي الأمير الوالد.

تحاشاني نظام في هذه الأيام العاصفة، وحين ألححت في طلب الانفراد به ذات مرة، نهرني بنظرة مخيفة، خشيت على حياتي جدياً بعدها، وانزويت في جناحي داخل القصر، أراقب تطور الأمور نحو الاستقرار، في قبضته.

وضعتْ زوجتي بكري، فعدتُ إلى الريِّ، ورأيت من أسموه حسيناً، ولم أتأثر لذلك كما كان يقال لي، ولم تنشأ مني نحوه سوى عاطفة فاترة مثل التي أكنها عادة لأطفال الآخرين.

للمرة الأخيرة مكثت مع زوجتي لشهرين، لن أطيق بعدهما العيش معها أكثر من أيام. غادرتها وهي حامل هذه المرة أيضاً، وتوجهت إلى نيسابور الحبيبة، حيث يعيش عمر الخيام ويوالي أبحاثه على التقويم.

حين لاحت من بعيد، بيوتها المقدودة من شيراز أبيض، أدركت أن حنيني إلى نيسابور، إنما هو حنيني إلى زبيدة الخيام، التي غداها البعد وتوالي السنين، رسماً حلواً، يختصر كل ما كان ممكناً، من جمال هذا العالم... وفرَّطت به.

كان منزله هناك قد صار بفضل الأموال والحماية المسبغة عليه من لدن القصر السلطاني، كمنجم وعالم كبير، جنة استثنائية للملذات والمتع، له مظهر ماخورخان، في تلك المدينة العتيقة الورعة. ليلة وصولي الذي فاجأ عمر، طلب مني أن تكون خالصة له؛ بمعنى، أنه لا يريد أن أعكر فرحته بحديث الأمة المغتصبة، أو أخبار نظام الملك العاق، وأولياء نعمته الأجلاف. تبسَّمت موافقاً، لكنه لم ينل أكثر من ذلك، وفشل باستدراجي إلى حديث يبهج نفسه أو نفسي. اعتصمت بابتسامتي العنيدة، وبـ "نعم" أو "لا"، أردُ بها على اقتراحاته ومواضيعه الشائقة. وحين أخذته الخمرة بلطف إلى واحدة من ذراه العالية، رمقني بنظرة حب صاف، وسألني: "حسن!... ألا تشتاق لزبيدة؟!". تكدرت، وأجبته برسوخ"لا". قال محبطاً وهو يعبُ الثمالة: "حمار!".

في اليوم التالي امتنع عن الشراب، وطلب من غانياته وخدمه أن يلزموا الهدوء، استحضر كل قوة خياله ومنطقه، محاولاً أن يمنحني خطة تناسب واقعي وتستجيب لطموحاتي وأحلامي معاً. تحدث مطولاً عن"سياسة" نظام، التي وجدها أكثر صواباً من سياستي، طلب مني أن أتأمل صعوده بخطى ثابتة من ابن دهاق مفلس في طوس، ومعلم بسيط في مدرسة الشيخ موفق، إلى كاتب لدى جغرلبك، ثم إلى صديق لألب ، ثم إلى وزير أعظم، ثم إلى شبه سلطان للدولة من وراء الفتى ملكشاه... وكيف أعلى بالواقعية والمثابرة شأن نفسه، وأثبتها في التواريخ ، وكيف خدم أبناء أمته حين صار رجل الدولة القوي كما

فعل معي ومعه، وخدمهم عامة كما حدث حين منع الترك من ابتزازهم ونهبهم. ثم، وهذا هو الأهم في نظره، كيف خدمها جيلاً بعد جيل حين أحيا اللسان الفارسي المتناسق، وفرضه لغة لدولة السلاجقة. ثم مال على "سياستي"، فلم يجد في التنظيم السري الذي أدعو إليه سوى مشروع مذبحة أخرى للنابغين من شعبنا، يعيده كرّات إلى الوراء. ولم يجد فيما بذلته من جهد سوى خراقات غير متزنة، لم يترتب فوقها أو تحتها سوى هدر الوقت... وعندما لمس مني الاستكانة إلى وجهة نظره تلك، تقدم خطوة أخرى وأشار إلى قراءته لحركات النجوم التي تفيد بأنها لا تدعم في هذه الحقبة متمرداً، وهي منسجمة مع مصالح الدول التي قامت قبيل انتقال الدور من برج مثلثات النيران إلى برج مثلثات النبات والحيوان. وحين طأطأت الرأس مستسلماً لرأيه هذا أيضاً، هفهفته ريح السعادة وازداد ودّاً وانشراحاً. ضحك قبل أن يقول: "يخيل إليَّ أنك لست فارسياً، وأنك بالفعل عربي ساذج... ما كان أصلك؟ حميريٌّ من العرب؟". "لماذا؟!" صحتُ مستنكراً. "لأنك لا تنهج نهجاً فارسياً في عملك، لا تتجنب الصراع العنيف مع الخصوم الأكثر قوة لأنه عقيم، ولا تتقرب من تلك القوة وتحاول تطويعها لمصلحتك، بانتظار حركة مواتية من النجوم، أو هفوة من الخصم، أنت لا تراعي نصائح أجدادك الفرس، هذا إن كنت منهم فعلاً"... وأدخلت السعادة إلى قلبه مرة أخرى فوافقته فيما ذهب إليه. وغلبه سروره فطلب غانية وكأساً، استمهلته قليلاً حتى يصل بي إلى جوهر ما جئت أنشده منه، وما ابتغيه من وراء كل ذلك الاستسلام والاستكانة، وهو الإجابة عن هذا السؤال: "ماذا أفعل؟!". تنهد قليلاً وحملق في السقف، ثم عاد وزفر متردداً، وعرفت مسبقاً أنه يريد أن يقترح شيئاً خطيراً، لكن حدسه الثاقب كان يقول له أنني لن أكون عند حسن ظنه، كان يخشى انتهازيتي. أخيراً نطق بصعوبة وبعبارات متقطعة، قال: "أظن أن لا فرصة لك لمنافسة نظام... بل لا فرصة لأحد لفعلها". أومأت برأسي موافقاً فتابع: "ولكنني أعتقد أنك ستعمر طويلاً

بعد هذا الرجل، إنه يفني عمره سريعاً بهذا الكم الهائل من الجهد، وأرى أن تتبع أسلوبه ذاته في الترقي للوصول إلى رأس السلطة، أعني الإخلاص وإنكار الذات. أنت لا تستطيع فعل ذلك للسلطان، لكنك تستطيع فعله لنظام، وهذا سيوصلك، حين يثق بك إلى ما تصبو إليه إن انتظرت حتى يموت... سيبحث السلطان عمن يخلفه، ولن يجد من يضاهي نظام ذكاء وقوة وخبرة سواك... أنا واثق من ذلك... بشرط ألا تبدي اللهفة للوصول... هذا كل ما لدي... والآن أرجوك.. أريد كأساً".

❖❖❖

٤

طغرلبك السلجوقي، في الخمسين، قضيبه منتصب، ونجم سعده في صعود؛ عقيماً كان، كأنما رتبت أقداره لكي لا يكون لأحد سلطان عليه.

انفصل جده سلجوق بن دقاق، عن قبائل بدو الغُز في سهوب التركستان، بسبب جرائم لا حصر لها اقترفها بحقهم، إلى المشارف الجنوبية للصحراء عند جدار جند. ثم اكتشف الإسلام، فاعتنقه مع عائلته.

جهد سلجوق في نقل عصارة خبرته الإجرامية إلى حفيديه ولدي ابنه ميكائيلي؛ طغرلبك، من دوغراول "أن يذبح" ... وجغرل، من جغمق، أي "أن يلمع" ... اللذين أثارا الرعب في طول فارس وعرضها، حين راحا يعتديان على كل من تطاله أيديهما ... يبعثان بزوجاتهم وأولادهم إلى مخابئ في الصحراء، وينقضان على المدن بخيولهم الواطئة، في غارات مميتة.

بعد أن أسقطا دولة السامانيين، زحفا غرباً نحو خراسان ونيسابور. واستقر جغرلبك في بلخ مختصاً بذلك الجزء من العالم لنفسه ولذريته، فيما واصل "العقيم"، زحفه غرباً واحتل مطلع هذه السنة الري واستقر فيها مؤقتاً.

كنا نلاقي فيما نحن مشرقون نحو نيسابور، ثللاً من الغز المستذئبين، متعجرفي النظرات، يثبون من بئرهم فيما وراء نهر سيحون، ليلتحقوا بطغرلبك. وكنا نزول عن طريقهم بمنظرنا البائس، وتتغير ملامح أبي،

ويتصاغر كتفاه، وينحني رأسه، فينظرون إليه بعيون لئيمة حاقدة، ويبحثون في إهابه ووجهه ما يبرر رميهم إياه برمح أو سهم.

أوغلنا في الطريق شرقاً بعيداً عن الريّ، وأوغلت الشمس في كبد السماء غرباً، بدأت أشعر بتأثير حرارتها، وحدّة سطوعها على نحو غير مألوف، كأني لم أتعرض لها يوماً ... ورحت أحثو رمال الطريق بخفي المصنوع من الجلد وسعف النخيل، بتذمر لاحظه والدي.

حين خلت الصحراء من العابرين على مدّ النظر، واستوت المفازة الصحراوية بين الريّ ونيسابور إلى ما لانهاية، نطق أبي أول كلماته.. كانت ثقيلة ومنفرة بمعناها وطريقة نطقها: "هل تعبت؟". "لا ....". "الجسد يا حسن مطيّة النفوس إلى مقاصدها، ولا بد من تدريبها .. الجسد مسوس والنفس سائسه، فأي نفس ارتاضت في سياسة جسدها كما يجب، أمكنها سياسة الأهل والخدم والغلمان، ومن ساس أهله، أمكنه أن يسوس المدينة.. تلك هي الرياسة".

كدت أتقيأ .. ففي ذلك الدوار الموهن للعزيمة، يتكلم هذا الرجل العجيب عن الرياسة!. أيُّ رياسة أيُها الماشي التعس؟!. وحثوت الرمال بخفي. سألت بثقة: "بالمناسبة.... ماذا تريد أن تصير عندما تكبر؟". لم أجب أيضاً، كنت أحلم بغرفتي الطينية الباردة التي لا يعكّر صفوها سوى طنين الذباب. تطلع في وجهي من الأعلى وقال مبتسماً: "لا بد أن لفتىً ذكياً مثلك، طموحاتٍ لا تحدّ".

قلت بعد صمت:"لا أدري..!". كان يكره رجال الدين، يصفهم بالظلمة الكفرة، أضفت: "أعتقد أني أحبذ أن أكون عالماً في الدين...". "عالم دين..". ردّ بحيادية من يزن الأمور، ثم فاجأني: "الدين الإسلامي؟!". نظرت إليه مستغرباً "أثمة دين غيره؟". "طبعاً ... الدين شيء خطير. وهو طريق جيد لنيل المجد والثروة... لكنني لا أعتقد أنه يناسبك... الإسلام دين العرب، والرياسة فيه لهم.... ومن لم يكن عربياً، لا يطمعن في أي يكون أكثر من تابع للخليفة أو خادم لإمام من آل البيت....".

رغم الدوار استطعت أن أتبين غرابة حديثه.... لم يكن يتحدث يوماً عن الإسلام بهذه اللامبالاة كأنه شيء ملقى على قارعة الطريق، سألت مستثاراً: "لكنك تقول أننا عرب؟". ضحك: "طبعاً أقول ذلك... سأقوله على الدوام، وستقول أنت أنك من سلالة ملوك الحميريين العرب، ولن يتمكن أحد من دحض زعمك، لكن ذلك مجرد ... مجرد كلام... حيلة".

لم تشجعني ابتسامته على المضي في الأسئلة، صدمتني... قلما أراها. صمتُ، بينما نقل من كتفٍ إلى كتفٍ صرة ثيابه الصغيرة التي تحتوي جراباً من الكتان حشر فيه أربعة مجلدات كبيرة لفّها بثوبٍ. تابع عندما يأس من ميادرتي: "يبنى المجد الذي هو غاية النفوس على قضية محددة... بقدر عظمتها، تكون آفاق المجد مفتوحة وممتدة للرجل.... النسبة الغالبة من الناس قضيتهم الطعام والعيش بأمان... من خلال خبرتي وعملي طوال عشرين سنة في قضيتي أستطيع أن أجزم...".

قاطعته بشغفٍ وفضول: "ألك قضية؟!". ابتسم منتصراً... ها قد انتزعني من الرمال الصفراء، وهجير الشمس والحنين، ليضعني في مركز تفكيره. قال مبتهجاً: "بالطبع يا حسن....أم أنك ظننت أن والدك مجرد أجير صفارٍ حقير؟!".

أعرف طريقته في بسط فكرة أو موضوع، لا بد من تمهيد طويل، يدوخني أحياناً ويفقدني التركيز. عودني أن أنصت إليه حتى "يغلق" فكرته. فالفكرة غير المكتملة أسوأ من فكرة سيئة. قال: "قضيتي يا بني هي قضية شعبنا الفارسي، أعظم شعوب الأرض، لأن الرب شرّفه، فجعل أرواح أبنائه الجزئية بعض من روحه الكلية، في عالم الكون والفساد".

تجاوزت القانون الضمني رغماً عني. سألت: "ما عالم الكون والفساد؟". قال: "عالمنا هذا الذي نحيا فيه، وسأفصل لك الحديث عنه لاحقاً... أريد الآن أن أحدثك عن العرب، الشعب الذين نفاه الرب إلى صحراء لعنته، وظلمة الجهالة به وعدم معرفته، دوناً عن كل شعوب الدنيا، ولم يبعث فيهم نبياً، ولم

يكن لهم كتاب... حتى وصفوا أنفسهم بأنفسهم، بأنهم الشعب الأمي. هؤلاء ولحكمة في السموات، لا يعلمها إلا هو، تقرر أن يكون لهم كتاب ودين، وسلطهم علينا. قضيتي هي قضية الحكماء من شعبنا، وهي إزاحة هذا الكابوس عن صدرنا واستئناف مهمتنا ورسالتنا التي خلقنا لأجلها، وحملنا أمانتها منذ بدء الخليقة، وستبقى لنا حتى يقبض الرب روحه من عالم الكون والفساد والأفلاك، فتنحل الصور جميعاً، وينتهي العالم المادي، ولا تبقى سوى الأرواح الكروبية المضيئة".

توقف عن الكلام ليمنحني فرصة استيعاب ما يقوله: "قلة هم الذين يعرفون أسرار رقعة الشطرنج الفارسية وتأويل رمزيتها، البعض يعتقد أننا مثّلنا بها للصراع بن شاهنا الأبيض في الشرق، وشاه اليونان في الغرب، لكن هذا غير صحيح، ما بيننا وبين اليونانيين تكامل أحكمه الله... ففي حين فاض علينا من روحه الكلي وجعلها فينا على الأرض، لنقاتل قوى الظلام ها هنا، فاض على اليونانيين من عقله الكلي، ليصبحوا سادة هذا الباب وليحملوا لواء الحرب العقلية على الظلام في الأرض. وحولنا سواد من الكائنات الظلامية في جلود سوداء... شعوب وقبائل وأمم لا تلبث تنهمر من هذه البقعة أو تلك ما أن يوهن نور أحد المصباحين ويخفت. كما حين انقض علينا العرب من مكمنهم في الصحراء وأطفأوا جذوة مصباح روح العالم: عرش عاهلنا كسرى... لم يكن للعرب شيء مدون، ماذا سيدونون؟!... عندما جاءهم الكتاب وما كانوا يحلمون بذلك، أصابهم مسٌ من الجنون، فدفعوه أمامهم قبل أن يفهموا شيئاً من معانيه، وراحوا يحاربون هذا ويقتلون ذاك ويفرضون أنفسهم بذريعته. ولكن حين سقطت عاصمة ملكنا، اكتشفوا بأنّ الصحف والكتب تتنزل علينا منذ الأزل، وبأننا الموكلون بالرسالات السماوية منذ البدء، فأصابهم الإحباط بالمسٍّ ذاته... ذهل سعد بن أبي وقاص مما وجده في مكتبات فارس العامرة، من أدلة تثبت أننا الأوائل والأواخر في باب النبوة والوحي، فكتب يشرح ذلك لعمر بن الخطاب ويستفتيه في أمر كتبنا. كان موقف الأخير واضحاً وحاسماً: "اطرحها في

البحر..." ... وبالطريقة ذاتها أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، مجمع تراث العقل اليوناني في هذا العالم... وسار على هذا النهج خلفاؤه من العرب، فحرّموا اللسان الفارسي وعطلوا عباداتنا ودياناتنا وهدموا بيوت نارنا. ولكي يحطموا أرواحنا النورانية حاولوا إذلالنا كما يفعل أي منحطٍ غبي، مع متفوقٍ ذكي، بالقوة والعنف والقسوة. أحرقوا كل فارسي اشتبهوا بثباته على دينه الأول بتهمة الزندقة والشرك. ذبحوا كل من تلوح عليه إمارات النجابة والنبوغ، أطلقوا علينا اسم العلوج حيناً، وأسمونا بالموالي وقالوا: لا يقطع الصلاة إلا حمارٌ أو كلبٌ أو مولى".

وشهق من منخريه نفساً حانقاً يشبه اختراط سيفين... وغارت مقلتيه عميقاً وتحجرتا.

كانت أربطة نعلي المصنوعة من سعف النخيل تحزُ لحم قدمي عند الكعبين. وكان ثمَّة خطوط حمراء تظهر بالفعل عندما تتحرك رجلي صعوداً وهبوطاً. انتبه إلى ذلك. فبادر يسأل بنبرة حاول أن تكون هادئة: "تؤلمك قدماك؟". "قليلاً...". "حسناً...".

وتطلع إلى الأفق، كان ثمة شجرة بلا ساق تشبه صخرة داكنة تلوح في الشرق. قال: "سنستريح ونأكل عند تلك الشجرة". شعرت لحظتها بالجوع والعطش. تطلع أبي إلى الطريق الذي تتقاطر عليه قطعان الغز، وقال متألماً: "وها هو كور آخر ينعقد، وينقض من مكمن مظلم آخر، جيش جديد من الظلمانيين، على نارنا المقدسة".

❖❖❖

٥

اعتقدَ عمر الخيام ضمنياً أنه قام بأكثر من تصويب وجهتي، ومنحي خيارات أكثر واقعية بشأن مستقبلي. لكنه كان يخشى أن يكون قد تورَّط على نحو غير نزيه في مشاريعي "المتهورة"، وكنت أعي قلقه. وعندما قررت إنهاء رحلتي الاستشفائية والعودة إلى أصفهان، لم أفاجأ برغبته بمرافقتي بذريعة الاطمئنان على نظام ووضعه في صورة العمل على كتابه "نيروزنامة".

استقبلنا نظام كطفلٍ مباه، كنا أول من استطاع أن يبدي أمامنا نشوته بانجازاته. استخدمت مزاجي الجديد ووجود عمر وتمكنت من إدخال الطمأنينة إلى قلبه من ناحيتي تدريجياً. استقبلنا وودعنا في اليومين الأولين بديوانه كضيوف لدى القصر، ثم راح يتخلى شيئاً فشيئاً عن تحفظه، وصار يمرق إلى جناحي عصراً ويقرع بابي طالباً مني الإسراع في الاستيقاظ من النوم الذي كنت أتظاهر به دوماً، ونتوجه سوياً إلى جناح ابن الخيام، نقرع الباب بعنف، ونترصده حتى يفتحه لنثب إلى الداخل كمراهقين، وننقب في غرفته بحثاً "عنها"، ودائماً كنا نعثر على واحدة من بنات أصفهان اللؤلؤيات، حاشرة نفسها بين الأثاث هلعاً من الأتابك، دون أن تدري، أو يدري عمر، أن رجال الأخير هم من يدفعونها وأمثالها إلى القواد العجوز الأحمق الذي التقطه عمر سراً من سوق النساء، وكلفه بإحضار واحدة "جيدة" كل ليلة.

قبيل سفر عمر إلى نيسابور دعانا الأتابك لمقابلة ملكشاه. بجلنا في مجلسه، وشرح للسلطان اليافع الذي كان يهز رأسه منبهراً ومؤيداً كلما يذهب إليه "الوالد"، خطورة وميزات التقويم الذي يعدّه عمر، والذي قد يغدو التقويم المعتمد في العالم، لدقته التي لا يضاهيها لا التقويم النصراني ولا الهجري.

وفي سهرتنا الوداعية عبر نظام عن اطمئنانه لي بإشارات لطيفة، مثل توجيهه عمر لإبراز المراسم والاحتفالات الساسانية في المناسبات والأعياد الفارسية، خاصة عيد النيروز، في كتابه النيروزنامة، حرصاً على "تراثنا" من الضياع. مقارناً إسهامه بشاهنامة الفردوسي التي حفظت لغتنا وتاريخنا إلى الأبد. وحين حاول عمر استطلاع مشاعر نظام نحوي واستفسر عن المنصب الذي وعدني به، أقسم هذا أنه لم ينس ذلك قط، لكنه عجز عن إيجاد المنصب المناسب بعد إلغاء ديوان الخبر، الذي سيسعى لإعادته قريباً.

عند بوابة أصفهان، جمع عمر أكفنا في كفيه وقال مستثاراً: "كما قبل أكثر من عشرين سنة... لنتعاهد على الإخلاص!". وانطلق من هذا المناخ المطمئن إلى نيسابور بعد أن ضم سراً إلى قافلته القواد العجوز، معتقداً أنه كان وراء تلك الانتقاءات الرائعة. وحين علم نظام بذلك انفجر ضاحكاً وهمس لي: "إن طردني السلاجقة، سأنجح ولا شك في القوادة!".

توالت الأيام الدافئة بيننا. لكن همّاً لم يكن بالحسبان أخذ الأتابك بعيداً عني وزجه مجدداً في دوامة الانشغالات. فبعد أن انتهى من مواجهة خصوم السلطان وأخضعهم، وجد نفسه على حين غرة أمام السلطان المراهق وزوجته توركان خاتون، الذين قررا تصفية حساب متأخر مع السلطان ألب أرسلان، في شخص صديقه ومثيله: الأتابك.

ألب أرسلان، الذي كان متديناً، ومحارباً قوياً متقشفاً، وجاف المزاج، وتدور حوله إشاعة عن ميله للرجال؛ كان في عائلته يسعى لتنشئة ولي عهد قوي يصون الدولة الناشئة ويقودها قدماً. وكان يرى في ضعف رجل الدولة أمام المرأة رأس المهالك. وقد لمس من ولي عهده ملكشاه نوعاً خطيراً من هذا

الضعف، لا أمام النساء عامة، بل أمام زوجته توركان ابنة الخان الأكبر سليمان، التي تكبر ملكشاه بثلاث سنوات، وسليلة حريم خانات سمرقند العريق، حيث تُدرب الأميرات الصغيرات على فنون إغواء الرجل والسيطرة عليه، على أيدي عاهرات محترفات. وبسبب هذا الشبهة، لعله وصف توركان أكثر من مرة بالشرموطة. وبلغ به الحرص مبلغ التدخل في ليالي ملكشاه التي تستأثر بها توركان، وقسمها مثالثة بين زوجاته: زبيدة ابنة ياقوتي بن جغرلبك، والنصرانية، ابنة الإمبراطور رومانوس، وتوركان. ومن مضاجعة قسرية من هذه، ستحبل ابنة عمه زبيدة بـ"بركيارق".

إلى تلك الأيام يرجع حقد توركان على نظام، الذي كان يشغل إضافة إلى منصبه كوزير، وظيفة مربي ولي العهد. ويبدو أنه دعم حينها سياسة السلطان العائلية. أما ملكشاه فيبدو أنه كان يكنُ محبة واسعة لمربيه قبل أن يقدم له، إبان وفاة والده، ذلك المعروف الهائل، الذي لا يجازى بغير الجحود.

كان التعبير المشترك منهما عن تحدي نظام الملك، هو إظهار السلطان هوسه بسيدة القصر، وإطلاق يدها في شؤون الحكم، تحت نظر الأتابك وسمعه، وتحيِّن هفوته بالاعتراض أو الممانعة لردعه وتحجيمه. لكن نظام لم يقع في هذا الشرك قط.

شيئاً فشيئاً، خاض ملكشاه في هيبة الأتابك، راح يسخر علناً من قراراته ويتهكم على تصرفاته بطريقة صبيانية استفزازية. وازدردت الدجاجة الإهانة تلو الإهانة، وأغضت عليها في حوصلتها الكتيمة الواسعة. حتى عندما تمادى الشاب فجاء بمسخرة يقال له جعفرك، يحاكي نظام الملك في شكله، ويسخر من تصرفاته وحديثه في مجالس السلطان الخاصة والعامة، لم يحرك ساكناً، استمتع مع المستمتعين، مبدياً قدراً خيالياً من التفهم نحو هذا المراهق الجاحد.

لكن توركان كانت أكثر جدية، تفضل الضرب الذي يوجع. ولأنها كذلك، فقد فكرت وخططت جيداً قبل أن توجه لنظام أقسى ضربة تلقاها في حياته.

لا أدري إلى اليوم كيف حدث ذلك، لكنها اختارتني لتلك المهمة. كان عرضاً لا يمكن رفضه، وفرصة العمر التي لا تتثنى مرتين، فقبلتها دون تردد.

كنت قد فوجئت منذ سنة باتصال مجلس الحكماء بي من طريق ابن عطاش، الذي طلب مقابلتي في واحد من بيوته السرية بأصفهان. كان لقاءاً شجياً شكوت فيه الإهمال والإذلال. لكن مجلس الحكماء على ما يبدو كان لا يزال على موقفه المترفع مني، مع أنه طلب خدمة بدت أشبه بمبادرة شخصية من ابن عطاش لتذكيرهم وتذكيري بأني لازلت عضواً في الأربعين. وكانت تلك عبارة عن وساطة لتعيين فتاة كخادمة أو وصيفة في القصر إن أمكن، وفهمت دون أن يفصح ابن عطاش إننا بصدد زرع جاسوسة.

كانت الفتاة طفلة لم تتجاوز الرابعة عشرة، وآية في الجمال والذكاء، وكان يفترض بي أن أقدمها على أنها ابنة زوج شقيقتي. بسرعة هائلة تفاهمنا، كان لفيروزه سيرتي الأولى ذاتها. والدها رجل بسيط طموح من مجموعة الأربعمائة، رزق بثلاثة أبناء، لكن الفتاة الوحيدة بزتهم جميعاً ذكاءً واهتماماً، فنقل إليها أحلامه ومعارفه. ومثل أبي، قتل والدها فيما كان يذود عن متجر الأقمشة الذي يملكه في تبريز، في خضم الفوضى التي أعقبت مقتل ألب أرسلان. فقدمت الفتاة نفسها لمجلس الحكماء واضعة نفسها في خدمة القضية، ومبدية قدراً كبيراً من الاستعداد للتضحية، فوجهت إلى المكان الذي يليق بذكائها وجمالها، إلى القصر السلطاني.

ليس بوسعي وصف الطاقة التي شحنتني بها هذه الطفلة التي تقدم نفسها قرباناً لقضية شعبها. أعادت إلي بجلسة واحدة كل اندفاعي وحماسي وإيماني الذي كاد يتلاشى في البلنهية الكئيبة التي أرزح تحت وطأتها. لكنني ورغماً عن قناعاتي وتعقلي شعرت بنوع من الغيرة القاتلة وأنا أتخيل حياة الفتاة في القصر الذي يعج بالأمراء والقادة، تخيلتهم يفترسونها، تخيلتها تتعامل معهم في البداية بطريقة عملية فتسعى إلى إغوائهم لتصل إلى المعلومات، يتوالون عليها، تعجبها

ألعابهم، تستمتع، وتصبح علاقاتها مصدر إثارة، شيئاً فشيئاً تدمن العهر، تصبح عاهرة... عاهرة تخدم هدفاً نبيلاً!!!... وقررت أن أفعل شيئاً لهذه الفتاة التي تخاطبني بنبرة حلوة قائلة: "خالي" وأخاطبها بـ"فيروزه" جافة وجدية، لا يخفى مغزاها على صاحبة ذلك الحدس المبهر، التي أعتقد أنها تعلقت بي منذ البداية، لكنني لست متأكداً فيما إذا كانت ترى في صورة والدها القتيل، أم شعوراً آخر يمتُ بصلة إلى ما يتمتع به الرجال المتمركزين حول قضيتهم، من إغواء لأنثى تودُ تجريب جاذبيتها.

قلبت الأمر على عدَّة وجوه، محاولاً أن أعثر على الخيار الأكثر ملائمة لكلينا، قبل أن استقدمها من مخبئها في بيت ابن عطاش. أخيراً توصلت إلى الصيغة المثالية، وباشرت تنفيذها. التقيت بطواشي شاب، يقال أن له حظوة عند السلطانة، خصيّ وأمرد، لم يتوقف عن الاستناد على إحدى قدميه والفرشخة بالأخرى طوال مساومتي له حول الرشوة التي سيتلقاها، نظير تعيينها في مخدع السلطانة حيث لا يستطيع أحد لمسها حتى السلطان نفسه. أخيراً رضخت لإصراره الصلب رغم موقفه المائع، وناولته مبلغاً يعادل مرتبي لثلاثة أشهر، فيما كان يفلّي لحيتي بحثاً عن الشعيرات الشائبات التي سأبدو أكثر شباباً وجمالاً فيما لو انتزعتهن! وقال انه يستطيع أن يفعل ذلك مع ألم خفيف لذيذ.

صيف سنة ١٠٧٥م التي مات فيها الخليفة العباسي القائم بأمر الله، ولم أكن قد توليت أي عمل بعد، رغم الوئام الدائم مع نظام، كان كل ما أفعله هو نقل المعلومات لابن عطاش من فيروزه التي تتسل إلى جناحي متخفية بهيئة خادم صبي مرة كل ثلاثة أيام، فاستمتع بها، وافرغ ما لديها من معلومات على رق مستخدماً لغة الأرقام السرية... ذات قيلولة، وفيما كنت أمارس ذاربتي القديمة بقتل الذباب الذي يتكاثر عنوة في غرفتي منتظراً فيروزه، قُرع الباب، لم تكن فيروزه وحدها، كان معها امرأة منقبة، لم تكن سوى السلطانة ذاتها. لم

تعلق توركان الداهية على علاقتي التي يفترض أنها محرمة بفيروزه، كانت ذكية جداً ومباشرة. جلسنا في غرفتي الداخلية تحرسنا فيروزه، ودون أن ترفع النقاب تحدثت بعبارات بليغة عن هدفها المحدد: تدمير نظام الملك. وعن خطتها المدروسة: كشف سرقاته من إيرادات الدولة ورسومها التي كثر المتحدثون عنها مؤخراً، دون أن يتمكن أحد من إثباتها لحجبه الوثائق المتعلقة بذلك في ديوانه. لم تمكث طويلاً، كانت تهشُ الذباب من وراء الخمار، وربما كانت تبعد الروائح... ربما كانت الغرفة قذرة!. المهم؛ انسحبت كما جاءت بعد أن حدَّدت لي موعد تنفيذ خطتها، والمكافأة التي سأتلقاها: وزير أعظم... ومربي ابنها داوود ولي العهد، ذي السنوات الخمس.

سعيت لمقابلة ابن عطاش ووضعته في صورة هذا التطور. أطلعته على الاتفاق الذي ضربته مع السلطانة، كان أول رد فعل له أن ارتعش، وأظن أني رأيت شعر رأسه يقشعر، لعله لم يكن يؤمن حقاً أن جمعيتنا البسيطة ونضالاتها المتواضعة ستحقق هدفها يوماً، وربما أشياء أخرى، لا أدري. لكنه في النهاية وعندما كرَّرت عليه المعلومات المتعلقة بالقران الفلكي وموقعي منه، جرفه الحماس أيضاً. كان يطالبني بين لحظة وأخرى بالهدوء، رغم استثارته الشديدة، والتعامل مع هذه الفرصة بروية وأعصاب باردة. اقترحت كتمان الأمر عن المجلس لأني لا أثق به، فأثنى على ذكائي، وأفصح عن ازدرائه لزملائه، خاصة نائب الموبذ موبذان، الذي وجده شخصاً متعجرفاً أحمقاً.

لم أطلق العنان لفرح قلبي ونشوة نفسي مع ابن عطاش، فعلت ذلك مع فيروزه. هذيت بكل ما يجيش في خاطري وما يتخايل أمامي من أمالٍ ورؤى ساحرة. كانت في سريري، تداعب وجهي وتقبلني بين لحظة وأخرى، وفي لحظة مسكرة سألتني إن كنت أرغب بمباشرتها. وكنت حتى ذلك الحين أستمتع بها من الخارج، متعللاً بضرورة ذلك لتبرير وجودها سراً في جناحي، الذي ربما كان مراقباً. كانت مستعدة لحظتها لتهبني نفسها، ولا أشك بأنها كانت ترغب في

الحبل مني. لكني لم أكن أستطيع التوقف عند حلمها الصغير ذاك، كان حلمي يطير بي على جناحه العالي السريع، وغلبني غبائي، فنفحتها موعظة عن العفّة التي يجب أن نتحلى بها كجنود للقضية!... أخجلتها. لكن صورتها لحظة لملمت ثوبها الحريري حول ساقيها العاجيتين، لن تبارح عالمي الاستمنائي، كأجمل ما تختزنه ذاكرتي، التي كانت وقفاً على زبيدة الخيام.

٦

"عقيدتنا ...!!".

نطق أبي. ثم تريث متفكراً. كان يبحث عن الموضع الأمثل لتثبيت رأس الخيط، قبل أن يلفّ ويدور حولي بخيط الشرنقة، وكان يريدني أن أبقى هادئاً وساكناً ليتمّ عمله.

كنا قد غادرنا للتو ظلّ الشجيرة الشوكية التي مالت بانصياع منذ الصغر مع الريح الغربية. وما زال طعم الزيتون المرّ والجوز الغني تحت أضراسي. تحسست بأصابع قدمي الخفّ الذي نظفته، فلم أشعر بالزلق. كنت مستعداً للانطلاق.

"أصل القصة ـ قال بنبرة واثقة وراسخة ـ أنّ العالم كان نوراً خالصاً يدعى يزدان. ففكر: لو كان لي منازع كيف يكون؟!. فنشأ عند ذلك أهرمن، أي الظلام، كما ينشأ الظل للشخص. وبخلاف يزدان، جاء اهرمن مطبوعاً على الشر والفتنة والفساد والفسق والإضرار، وكان لابد من حدوث الصراع بينهما ... وتداخلت جيوشهما، فحصل امتزاج النور بالظلمة... ثم توسطت الملائكة بينهما وتصالحا على أن يكون العالم السفلي خالصاً لأهرمن سبعة آلاف سنة. وخيّر يزدان الناس هناك وهم حينئذٍ أرواحٌ محضة بلا أجساد، بين أن يرفعهم عن مواضع أهرمن، أو يلبسهم أجساداً كالدروع ليحاربوه، على أن

ينصرهم في النهاية ويكون لهم حسن العاقبة، فاختاروا الحال الثانية. وهكذا حصل الامتزاج في العالم الأرضي، القائم على التضاد والسعي للخلاص، خلاص النور من الظلمة. وعصرنا ليس سوى يوم آخر من الصراع بين يزدان وأهرمن. ومثل ما يسلك النور والظلام، كذلك يسلك أتباعهما؛ لا يفعل النور إلا بالقصد والاختيار، ويخبط الظلام بالصدفة والاعتباط، وهو الشكل الذي حدث به الامتزاج، لكن الخلاص لن يحدث إلا بالقصد والاختيار".

تنحنح أبي، بحّ صوته فيما هو يجهد نفسه مقتفياً خيطاً ناعماً في دماغه. "الناس سلالتان؛ الأولى جدها كيومرث، أو آدم بلغة العرب، جوهرها نوراني، علوي، لطيف. والثانية خلقها أهرمن من المادة، ظلمانية، سفلية، كثيفة... ألبس يزدان سلالته أجساداً مادية لتتقي في الحرب جنود أهرمن، لكن بما أن المادة مثل أهرمن من طبيعة عدمية، سرعان ما يصيبها البلى والفساد، فقد كانت الأرواح النورانية الخالدة كلما بليت أجسادها المادية انتقلت إلى جسد آخر، يَحسنُ كلما كان بلاؤها أحسن. وتنحط إلى بدنٍ أخسَّ، عندما تقصِّر أوتخمل... وهذا ما ندعوه عالم الكون والفساد، حيث تتكون الصور من النور والظلام، والروح والمادة، ثم لا تلبث أن تفسد وتزول... جحيم الكائنات النورانية الذي تصارع للخلاص منه، لما تنال فيه من الآلام والأوجاع، متمثلاً بالجسد... وتنزع إلى الجنة، التي هي حياة أبدية وراحة ولذة وسرور... أما أتباع أهرمن الظلامية، فإنها تتشبث بالأجساد الحيوانية الكثيفة، وتخشى الموت لأنها حينئذٍ ستذهب إلى الجحيم، جهنمير بلغتنا الفارسية، التي تعنى العدم، ولاشيء سوى العدم، فيما تعني الجنة الخلود والأبدية".

كان فراغ صغير قد نشأ بيني وبين الشرنقة التي يلفها حولي، ولما كنت مُطالباً بالسكون وانتظاره حتى يفرغ من عمله، لم أتحرك لأشر إليها. واثبت حصافته ودقة حرفته التي أثبت علو كعبه في حرفته، عندما بادر إلى تلافيها: "لا بد أن ذكر الأفلاك بين الفينة والأخرى يربكك ويعوق استيعابك لما ألقيه

إليك؟!". عاد يثبت نظره في ملتقى الطريق مع الأفق الشرقي حيث تسقط أشعة الشمس المائلة نحو الغروب، فتنعكس وتتناثر على ذرات الغبار، لتمنح الأفق لوناً أصفر جافاً وغير متماسك، ولا يغري بالذهاب إليه. فيما بدا الغرب الذي تقبع فيه الري، أزرقاً مشرّباً بلون ورسيّ مضيء. قال: "أدار يزدان معركته مع أهرمن من علاه، وبين يديه أربع قوى: التمييز والفهم والحفظ والسرور... وعلى هذه الهيئة كان الحي الناطق باسم يزدان على الأرض، يقود صراعنا ضد أتباع أهرمن وبين يديه موبذ موبذان، أي أحكم الحكماء، والهربد الأكبر والأصبهبد والرامشكر...".

استل نفساً وتابع: "شرح أحكام النجوم طويل، ولكنني أذكر لك طرفاً منها ... الكواكب جميعها تستمد قوتها التي تحرك بموجبها الموجودات على الأرض عالم الكون والفساد، من النفس الكلية للرب يزدان. وحركتها تتوقف عندما يقبض يزدان روحه الكلية من العالم وتحدث القيامة الكبرى. كما حين يقبض روحه الجزئية التي يحيا بها شخص من الأشخاص فتحدث القيامة الصغرى على ما ذكر رسول الله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم: إذا مات المرء قامت قيامته. وسترجع النفس الكلية إلى عالمها الروحاني، ومحلها النوراني، وحالتها الأولى التي كانت عليها، قبل تعلقها بالمادة، كما قال تعالى: ۞ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنا فاعلين ۞. والكواكب السيارة ملائكة مقربون، تقترب بحركتها إلى الأعلى، التي تدعى الأوج، من فلك الكواكب الثابتة حيث عرش الرب، لتستمد منها النور والفيض والقوة، ثم تنحط إلى الحضيض وتقترب من عالم الكون والفساد، وتوصل تلك الفيضات إلى أشخاصنا السفلية. وهي لهذا تجتمع في سنوات معلومة في برج واحد من الأبراج مثنى أو ثلاث أو حتى سباع، لتنتقل إلى العالم السفلي كمية من الفيض، يعجز واحد منها عن حمله منفرداً. يسمى ذلك قران فلكي، ويعقب كل قران حادث كبير على الأرض، يستدل الحكماء والراسخون في العلم عليه مسبقاً من

عدد المقترنات وزمنها . وهي على سبعة أنواع، فمنها قرانات الملل والدول، التي يستدل عليها من القرانات الكبار التي تكون في كل ألف سنة، وتنتقل فيها المملكة من أمير إلى أمير ومن أمة إلى أمة ومن بلد إلى بلد ومن أهل بيت إلى أهل بيت آخر. ومنها ما يدلُ على تبدل الأشخاص على سرير الملك وما يحدث بأسباب ذلك من الحروب والفتن التي يستدل عليها من القرانات التي تحدث كل عشرين سنة مرة واحدة. وهلم جرا...".

كانت الشمس قد حطت على خط المغيب خلفنا تماماً، وألقت أشعتها ظليّن عملاقين لنا، بدا ظل أبي كائناً خرافياً حقاً، وهو يلوِّح بيده اليسرى على هيئة محيط كرة قائلاً: "هذا بالعموم شكل العالم العلوي الذي يقع فوق عالمنا، وفوق فلك القمر، وسأدلك على معالمه العلوية عندما يهبط الظلام... أما الآن فيجب أن نبحث عن مكانٍ نأوي إليه ونجمع الحطب لنوقد النار".

وضعنا حملينا الصغيرين في بقعة كلسية نظيفة ، وتجولنا في المكان نجمع الحطب. نصب أبي شراكاً من خيوطٍ حريرية جعلها على شكل أنشوطة خفيه، أحاط بها مأوى القبرات، التي هي حفرٌ صغيرة بحجم الكفِّ تربض فيها ليلاً. اختار عدة مرابض، تأكد أنها قيد الاستخدام بتفحصه لرطوبة الذرق المحيط بها . قال وهو ينصب آخر أنشوطة، ويربطها إلى جذرٍ شوكي قريب: "سترى أنّ أباك يجيد أشياء كثيرة... سيكون إفطارك غداً قبراتٍ مشوية".

❖❖❖

٧

نهاية لم تخطر لي ببال، لا في جنوني ولا في تعقلي... فبعد أن خلفت التيه ورائي، وتجاوزت حدود دولة سلاجقة الشام، وجنودها الذين ينشدون المكافأة الكبيرة المرصودة لرأسي ها أنا أقف على شاطئ البحر الأحمر الذي تتداعى أمواجه برفقٍ إلى رمال صحراء سيناء، المشرقة بلا حدود، يهبُّ منه نسيم رطب، يتلاعب بثيابي وشعر وجهي ورأسي، يغمرني أمنٌ دافئٌ، مترامي السكينة، رطب الطمأنينة.

جلس ملكشاه كما اتفقت مع توركان ، على عرشه في البلاط الرحب، ألقى نظرة محبَّة إلى أتابكه وقال: "قرأت الفصل الأخير من سياسة نامة". رفع إليه نظام عينين كليلتين بعيدتي الغور وقال: "نعم!" ... واسترسل الفتى ممتدحاً الكتاب الذي يعكف نظام على تأليفه منذ سنة ، مضمناً إياه نصائحه في إدارة الدولة وفن الحكم، يقدمها لربيبه، مكتوبة بماء الذهب، فصلاً فصلاً، منذ صار التواصل المباشر بينهما مدعاة لتوتر السلطان وألم نظام.

"نعم أيها المُعذِّب!" قالت عينا نظام المتعبتين، فيما ربيبه يسهب في امتداح الكتاب. "ما تضمر أيها الولد العابث؟!" . كان سكوته يهمس للفتى الذي سدَّ أذنيه اليوم، فلا يسمع سوى صوت توركان، التي في قلبه. قال:" تحضُّني على معرفة موارد ونفقات الدولة بدقة، فكيف السبيل إلى ذلك أيها الوالد؟" .

تحفَّزت، هذا هو الجزء الذي يخصُّني. دلَّك نظام جبينه المغضن، قال:" تحتاج وقتاً طويلاً، دولتك شاسعة غزيرة الموارد والنفقات. انصح بإنشاء ديوان يسجل فيه الواردات والنفقات يوماً بيوم". "هذا عن المستقبل، ماذا لو أردت أن أعرف ذلك الآن، كم من الوقت نحتاج؟". "ماذا تريد أيها الولد لأبيك؟!". مرة أخرى قال صمت نظام ونظرته الكابية. "هاااه؟"، نده الولد مستحثاً. "لا أقل من سنتين...".

كان يفترض أن يسألنا السلطان نحن الحاضرين فيما إذا كان لدينا رأي أو تعليق، فأطلب الكلام، لكنني سارعت رافعاً إصبعي، وما أن أذن لي السلطان حتى قلت، ناسياً تقديم التبجيل والثناء الواجبين: "أستطيع إنجاز ذلك في أربعين يوماً!". ولأنني نسيت الشرط الذي كان عليَّ أن أفرضه، فقد منحني السلطان برهة من الوقت لأتم حديثي، ران خلالها صمت قاطع كأن سيفاً عملاقاً مرَّ في المكان بسرعة البرق. قال السلطان: "هكذا ببساطة؟ ألا تريد تسهيلات أو...". قفزت متذكراً: "بشرط أن توضع تحت تصرفي سجلات الديوان وموظفي الوزارة". لم أنظر ولم أر عينيَّ نظام الملك في تلك اللحظة، ولن يقع بصري عليهما بعد ذلك أبداً.

سمعته كأنني في الحمى، أو في تلك الأمسيات في الريِّ، عندما كنت طفلاً يغفو فيما والداه يتبادلان الحديث، قال نظام أنه يرحب بذلك. ثم سمعت السلطان يسأله: "منذ متى لم تحصل على إجازة يا والدنا؟". "منذ أن التحقت بخدمة جدك جغرلبك يا ولدي"!... صمتٌ... قطعه ملكشاه وقد خَفُتَ حماسه قائلاً: "فنحن نمنحك إجازة لأربعين يوماً على نفقتنا، تذهب خلالها وتتمتع بما شئت من ملكنا ودولتنا، ترافقك الحراسات والتشريفات". "نعم!". نبس نظام بانصياع فاتر. ثم مدَّ السلطان يده يريد مفتاح الديوان، للحظات ظلَّ الأتابك صامتاً قبل أن يقول "نعم!" ومدَّ يده إلى عبِّه ليخرج مفتاحاً كبيراً من الذهب، نهض وسلمه للسلطان بنفسه.

كنت أرى البحر لأول مرة. عمقه يبعث الثقة بأبدية ما، وصوت أمواجه المنتظمة يشعرني بوجود نظام قاهر، يمسك العالم. ركعت أصلي: "يزدان!... يا رب الكون.. إليك أتضرع... أنقذني يا رب... خلصني من هذا العالم.. خلصني من الجحيم...خذني من هذا الجسد اللعين كما تأخذ النور من الحطب.. خلصني يا رب".

ما أن ناولني السلطان المفتاح حتى داهمتني خيانته، ذلك الجسد اللعين. ارتعشت أصابعي، وانقبضت أحشائي، وشعرت أن جزءاً مني قد انفصل عني وناصبني العداء. وعندما تجولت في الليل المتأخر بين غرف الديوان وخزائنه، وبدل أن أمسك الفرصة بثقة وعزيمة، رابطت في المرحاض حتى فرغت معدتي تماماً.

في الصباح غيرت كافة الأقفال وطلبت بعض الحسَّابين للمساعدة. أما موظفي الديوان فقد استبقيتهم خارجه، استدعيهم فرادى عندما أحتاج وثيقة ما. اعتذرت لرجال الدولة الذين سعوا لمقابلتي ذلك اليوم، كنت أعلم أن بعضهم سيتملقني متحسباً للمستقبل، وبعضهم متورط في عطايا نظام ويريد لو أراعيه... وفئة قليلة من أصدقائه لعلهم كانوا يسعون صادقين لتجنيبه كارثة محتملة.

أما نظام فقد غادر أصفهان في الصباح الباكر مع قلة من بطانته، قاصداً مسقط رأسه طوس. ومن هناك سيتنقل، كما صرَّح، بين مدارسه "النظاميَّة" التي أسسها في مرو ونيسابور وبلخ وهرات، ليطمئن إلى حسن سير الأمور فيها ونجاعة مناهجها، ولعله يمارس فيها عشقه الأول: التدريس.

في الأيام العشرة الأولى التي انهمكت خلالها في التقصي تجاهلت الإسهال والألم. كانت سعادتي بما أعثر عليه من ثغرات في عمل نظام تطغى على كل ألمٍ أو هاجس. على أني لم أهمل تلك الإشارات اللعينة وحاولت تعويض ما أفقده، بالغذاء الكثيف الدسم. فأزداد معدل خروجي كثيراً. وبعد اليوم الخامس عشر صرت أراجع الوثائق وأدون المعلومات الهامة في المرحاض. في اليوم السابع عشر

نبهتني فيروزه بشكل لطيف إلى تدهور صحتي. طلبتُ مرآة وصرت أنظر فيها عدة مرات في اليوم. ما هذا؟ شحوب كامد وغضون عميقة كأن عمري ألف سنة. وأخذت ساعات عملي المثمرة بالتناقص فيما كومة الوثائق التي نقلتها إلى غرفة أمينة تبدو كأنها لم تمسّ. زدت ساعات عملي مع فريقي وضاعفت كمية الغذاء، فتضاعفت سرعة النداء اللعين. في اليوم الثامن والعشرين استحكمت بلية المغص، وأنشبت مخالبها القاطعة في أحشائي، فاستدعيت طبيباً. نصحني بمنقوع بذور اليانسون الدافئ، فصرت نواماً بليد الذهن. تخلفت عدة أيام عن خطتي التي خصصت فيها يومين لدراسة موارد ونفقات كل ولاية على حدة. بعد شهرٍ انهارت مقاومتي، ودخلت صراعاً عنيفاً مع المرض والوثائق.. وخوفي من الفشل.

والآن... حان وقت الكوابيس. صار النوم موعدٌ مع الغولة. يأتي الرسيس المميت في مفاصل قدمي ويدي وعضلات رقبتي وكتفي، أتقلب وتصطك أسناني وأطرافي، ثم أهجس في نومي برؤى مرعبة موضوعها غالباً صحتي وسلامة جسدي. كأن أراني أنفث دماً، وثمة من يخبرني بأني مسلول، أو يتفصد الجلد عن آفات مؤذية ويسيل منه الصديد، أو تتساقط أشعار رأسي ووجهي من تلقاء نفسها، ويلحقني من ذلك الرعب. وبعد ذلك أعجز عن التمييز بين المنام والواقع. ويقول لي صوتٌ: "إن من يؤلمه جسده في النوم كما في اليقظة، فقد دنا أجله...".

ثم جاء التخليط...صرت أرى مساعدي في النوم بهيئات مختلفة، أتعامل معهم حين استيقظ على أساسها، فهم أطباء حيناً، وحكماء وفرفاشيين حيناً آخر، وجنوداً سلطانيين حيناً رابعاً.. لم يسخروا مني، كانوا يبدون التعاطف والتفهم، فأنا وزير الدولة المقبل!. لكنهم بالتأكيد كانوا ينفجرون ضاحكين ما أن انطلق إلى المرحاض سادًا نقبي بكفي خشية انفلات أمعائي بينهم.

عندما كنت أضبطهم يتهامسون قلقين حول وضعي الصحي، وهذا أعيه

الآن فقط، كنت أعتقد أنهم يتآمرون عليَّ، فانتزع الوثائق منهم وأراجعها بدقَّة، وأدخل في دوامة الحيرة، فكلُ شيء صحيح. هل تمكنوا من خداعي مرة بعد مرة؟!. أم أني صرت عاجزاً إلى حدٍّ عدم القدرة على كشف ألاعيبهم... في هذه الأثناء حاولت أكثر من مرَّة أن أضرم النار في المكان، لكنهم كانوا يثبتونني حتى أنام، لأستيقظ بهمَّة عالية واستأنف عملي كأنَّ شيئاً لم يحدث، حتى يداهمني انهيار آخر.

بدأ الرعاش وانعدام التركيز في الأيام الخمسة الأخيرة، لم أكن قد أنجزت الكثير من المهمة العريضة التي تنطعت لها. فقدت إيماني بالنجاح، وانضم سياف السلطان إلى جوقة الرعب التي تتهددني في اليقظة والمنام. على أن جزءاً يسيراً من المعلومات والأرقام التي حزتها، كان كافياً لأمكن اللبوة المسعورة توركان، من تمزيق دجاجة الدولة العجوز.

اليوم وأنا أتفحص الأمور بهدوء، أرى أن الإيمان والثقة، هما سرُ الناجحين في هذا العالم، ونظام كان من هذا النوع. كنت أتساءل دهشاً كلما عثرت على وثيقة بمبلغ هائل ممهورة بخاتمه ومصروفة من أموال السلطان لشخص ربما لم يسمع به الأخير مطلقاً، عن سر تلك الجرأة. كيف جرؤ على تحويل خراج ولاية كاملة إلى وجهة مجهولة دون أي تبرير أو تعليل؟. وفوق ذلك يحتفظ بكل الوثائق التي تدينه. أهي الثقة المطلقة بالنفس، أم الإيمان الأعمى بالقدر؟!.

في اليوم الثامن والثلاثين بلغ الاضطراب والتخليط والإنهاك حداً سأعجز معه حتماً عن الوقوف بين يدي السلطان، الذي قررت التوجه إليه بما أحرزت من الأدلة الكثيرة الدامغة على تلاعب نظام بموارد الدولة وتبذيره لها.

تجرعت أكبر كمية ممكنة من شراب كثيف جلبت مواده فيروز وأعددته بنفسي من ثمار حامضة وبذور اليانسون وجذور اللفاح وأعشاب أخرى منومة قوية... وهجعت كالأموات.

أيقظني الحسَّابون عصر اليوم الأربعين كما أوصيتهم، احتجت إلى ساعة

من الوقت لأستذكر ما حدث خلال الأربعين يوماً الفائتة، ثم أسرعت إلى الغرفة الآمنة واستخرجت الوثائق الأساسية، وجمعت إليها ما أنجزه الحسابون في غيبوبتي. وأوصيت أن تجلب لي وجبة طعام، وحلّة بسيطة حسنة الشكل. تناولت الطعام بنهم، وجلست أتجاذب الحديث مع الحسابين علّ ذلك يحد من تسارع خفقان قلبي بالتزامن مع تلاشي تأثير الدواء والراحة. أخبروني أن نظام قد عاد منذ الأمس ويبدو بحالة ممتازة، وقد دخل على السلطان وشكره لأجل الاستراحة!... وأن حديثهم دار حول اكتشافه نابغة من طوس أيضاً، لم يبلغ الثامنة عشرة، ويتلقى العلم في مدرسته بنيسابور يدعى محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي!. وأوصى الجميع بحفظ اسمه لأنه عبقرية يجود الزمان بمثلها، مرّة كل مائة سنة!.

سريعاً مرّ الوقت، وأرسل السلطان يستدعيني قبل وصول الحلّة الجديدة، فدخلت عليه بثيابي المتسخة. كان البلاط يضج بجيش من ذوي الشأن، ولاة وقادة وأعيان وعلماء وأمراء... كلهم جاءوا ليشهدوا نهاية نظام الملك، الأسطورة التي لازال نجمها يتألق منذ ثلاثين سنة.

تقدمت نحو العرش، مع كل خطوة إلى الأمام كان ثمة جزء مني يتخلى عني، ينفصل ويولي الأدبار. عندما بلغت مكاني بين يدي السلطان، كنت قد صرت أعزلاً حتى من نفسي.

كنت في موقع الفشل الذريع، يسألني السلطان فيجيب واحداً غيري. يسأل سؤالاً آخر فيجيب واحداً غير غيري، يسألني إن كنت معتوهاً، فأجيبه: "بل أنك المعتوه، لأنك لم تدرك ذلك حتى اللحظة!". إحساسي بقدمي ظلّ راسخاً ومتصلاً، وكنت أستوثق من جاهزيتهما بين الفينة والأخرى. ولاذ بهما عقلي مثل حملٍ جبان، وراح يتوسلهما الهرب بعيداً عن المكان الذي يُطالب فيه بتحديد خراج بلخ وعطاءات الجند في ثغور أذربيجان وما إلى ذلك من السخافات التي لا يعرف عنها شيئاً سوى ما ارتبط بها من رؤى في تلك الأيام

الأربعين المدمرة. وحين سألني السلطان يائساً إن كنت في النهاية قد وجدت فارقاً مهماً بين موجودات بيت المال والموارد المقيدة في الديوان، أجبته: "بالتعاون مع أطباء عرجان زودنا سيافك بنسخة من مفتاح الجَبس حين انشق القمر وذبل البلح الحامض..." وانفلتت أوراقي مني فجثوت على أربع أللمها. قال السلطان غارقاً في الضحك وهو يربِّت على كتف نظام الملك: "جنَّ صاحبك!". وحين أذن لي دامع العنين من شدة الضحك بالانصراف، لم تخذلني قدماي، وجريا إلى أقرب خلاء، ثم حملاني بسرعة خيالية إلى بيت ابن عطاش السري، واختبأت داخله حتى شفيت.

علمت بعد ذلك أن لا أحد من الحاضرين قد فهم شيئاً مما حدث، بسبب التزاحم والضجيج. وأن منظري جاثياً أللم أوراقي قد بعث الأسى في قلوب معظمهم، بما فيهم نظام الملك، الذي راح خصومه يبثون الشائعات والحكايات حول سرقته لأوراقي حيناً، أو حول سمٍّ قاتل دسَّه لي أعوانه حيناً آخر. وفي كل الأحوال فإن نظام الملك أخذ جنوني على محمل الجد، فقد عانى الأمرين من تعقلي، فما ينتظر من جنوني؟!. "يجب أن يموت". لا بد أنه قال ذلك في قرارة نفسه، بنبرة حازمة لا تردَّد فيها.

ألقيت حجراً إلى وجه البحر فتعكر بدوائر سرعان ما طغى عليها الزبد المقبل. واستدرت عائداً إلى قافلة البدو المتوجهة إلى القاهرة التي سيسبقني إليها رجالي السبعة ليبثوا الأخبار عن قرب وصول رجل الفاطميين الخطير في عقر بلاط أعدائهم السلاجقة، والذي كان قاب قوسين أو أدنى من تقلد الوزارة، قبل أن ينكشف أمره ويفرَّ وينجو بأعجوبة، مخترقاً وطوال سنتين من المطاردة الجنونية، دولة سلاجقة الشام قاصداً إمامه وسيده، الإمام الفاطمي الثامن عشر، المستنصر بالله.

❖❖❖

٨

أفقت متيبس الأطراف، فوق مرقدي الصلب على الربوة الكلسية التي لجأنا إليها اتقاءً للزواحف والحشرات. وأقبل أبي يحمل خمس قبرات مملوصة الرأس. تباسم بتباهٍ، لقد وقعت كل القبرات في الأشراك التي نصبها لها.

أوقد النار من جديد، شيُ قبرة يحتاج إلى احراق عودٍ واحد فحسب، كانت طيوراً هزيلة ساذجة. وعنّت لخاطري فاطمة "ماذا تفعل الآن، أهي تفطر؟ هل سألت عني؟". في هذه الأثناء كان أبي يأكل القبرات بنهم، يسحق لحمها الناشف وعظمها الرقيق معاً، فيصدر عنه صوت طقطقة وتمطق... نظر إليّ وأنا أتظاهر باستلال اللحم الضئيل عن العظم الرقيق بما يشبه القرف، وتبسم.

عدنا إلى المشي، ومن بعيدٍ لاحت سمامات الغبار، ها قد انطلقت مواكب أخرى من ذئاب الغزّ نحو الغرب، مستغلة برودة الصباح، مثلنا. نظر أبي بتشاؤم إلى الشرق وقال وهو يشير بظاهر كفّه خارجاً: "دعنا مما يحدث وراء فلك القمر، ولنبحث فيما تحته، فنحن نعيش الآن هنا". قال: "أول من هبط هنا، روح جزئية من روح يزدان الكلية هو كيومرث، ويعني بلغتنا الحي الناطق، ويسميه الآخرون آدم. منه توالدت أرواح جزئية أخرى، هي أرواح شعبنا الفارسي. وفي الغرب هبطت بضعة من العقل الكلّي لينشأ عنها اليونان، السلالة النورانية الأخرى. كان منا الأنبياء والحكماء، ومنهم الفلاسفة والعلماء،

عملنا في تكامل، غايته نصرة يزدان النوراني على أهرمن الظلماني، وعمل كلٍ منا على حدة حيناً، وسوية حيناً آخر، وبالتعارض أحياناً ... بل أنّ أحدنا قد يهاجم الآخر عندما يزيغ أو يشط ، ليعيده إلى جادة الصواب. وهذا ما توهمه بعض السذج صراعاً بيننا ...خصّ الرب الفرس بالوحي، الذي يهبط من عرش الرب إلى النورانيين في فلك الكواكب الثابتة، فتصعد عندئذٍ الكواكب السيارة إلى هناك بالحركة المدعوة بالأوج فتتلقى الوحي، ثم تهبط إلى حضيض حدود فلك القمر، وهنا يتناول الوحي واحد من الفرس. أقول واحد من الفرس، لأن تلقي الوحي من النورانيين يحتاج إلى طرفٍ روحاني، يتلقى الوحي من خلاله، وطرف بشري يلقيه من خلاله إلى الناس، وهاتين الصفتين لا تجتمعان في مخلوق سوى رجلٍ من ورثة الحي الناطق، الذي تنتقل روحه كاملة القوى من حيٍّ ناطق إلى آخر، تجتمع فيه ستٌ أربعون صفة لا تجتمع في كل كورٍ إلا في رجلٍ واحد . فيما يحوز من هم أذى رتبةً ،المسمون بالحكماء، صفة أو أكثر من تلك الصفات، تمكنه من تلقي الوحي استرشاداً بحركات النورانيين وإشاراتهم اللطيفة، وفي بعض الأكوار والأدوار ترتفع روح الحي الناطق من الأرض لسبب لا يعرفه إلا الرب، ويتعين عندئذٍ على الحكماء أن يجتمعوا ليديروا العالم السفلي، إذ باجتماعهم تجتمع الصفات الست والأربعون المتفرقة بينهم" .

حشدٌ هائل من الأسئلة ضج به دماغي، كلٌ يريد أن يخرج أولاً مستفهماً وطالباً تفسيراً. أفكاري المستقرة التي لقنت إياها منذ الصغر، الأفكار الراسخة التي زرعها ويا للغرابة، أبي نفسه، وقفت فاغرة فاها غير مصدقة، وهو ينحرها واحدة تلو أخرى. نطقت متلعثماً بسؤالين زمطا معاً من فمي."أليس نبينا محمد عربي، وجدّه إسماعيل ألم يكن نبيّاً، وجبريل ألم يهبط بالوحي من عند الله مباشرةً...؟!" .

ضحك أبي ضحكةً ممطوطة يريدني أن أسترخي قليلاً. فأضفت:"ألم يبعث الله المسيح إلى الروم كما قلت... أليس هو روحه وكلمته؟" . ضحك مجدداً. قال وهو يجمع أصابعه ويهزّها : "مهلاً مهلاً ..." .

وتمهل هو، حتى في خطوه تمهل، قال بهدوء: "يجب أن تعلم أولاً أن ثمّة فرقاً بين الدين والشريعة. وحين أقول أنّ الرب اختصنا بالوحي، فأعني أنه اختصنا بالدين، وهو أوامره المرسلة إلى جنوده الذين يصارعون أهرمن الظلماني وجنوده في العالم السفلي. والدين في لغة العرب هو الطاعة من جماعة لرئيس واحد، ولما كان الإنسان هو جملة مركبة من جسدٍ جسماني ظاهر جلي، ومن نفسٍ روحانية باطنة خفيَّة، صارت أحكام الدين وحدود الشريعة على وجهين: ظاهر وباطن؛ والظاهر هو أعمال الجوارح، والباطن هو اعتقادات الأسرار في الضمائر، وهو الأصل كما قال النبي محمد عليه السلام: الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى. فالدين واحد وأن اختلفت الشرائع. والذين أنكروا نسخ الشرائع لم يميزوا بين الدين والشريعة. فأرباب الشرائع مثل محمد العربي وعيسى الرومي وموسى اليهودي، إنما أرسلوا لحفظ أحكام الدين الظاهر على أهلهم، وهم في ذلك بمثابة المعتني بأمر الجسد دون الروح. وكل نبي، هو بمثابة الظاهر لباطن من الفرس، يسوسه كما تسوس الروح الجسد ... سوس المسيح كان يحيى، وسوس موسى كان هارون، ثم يوشع بن نون، أما إسماعيل الذي قلت أنه جد العرب فكان سوسه إبراهيم أحد أجدادنا الذي يشاع تزويراً وتزيّفاً بأنه والد إسماعيل".

كأنني اقتنعت جملة بما قال، كأن الجدال فيه انتهى، وانتبهت إلى جزئية منه أثارتني بالغ الإثارة، واندفعت أسأله عنها، قلت: "ومن كان سوس محمد العربي". "ظننتك أذكى من أن تستفسر عن أمرٍ كهذا، يمكنك استنتاجه ببساطة" .قال أبي مقرعاً بلطف وتابع متسائلاً: "قد لا يخطر لأحد من غير الفرس أن يسأل لما وكيف حضر سلمان الفارسي في ذلك الصقع النائي من صحراء العرب الشاسعة لحظة ظهور الإسلام... أنت أيضاً كان يحق لك أن تسأل لو لم أخبرك". لم أمهله طويلاً، سألت مجدداً بلهفة:"ومن هو نبينا من الفرس الآن؟". "كورنا هذا يخلو من حيٍّ ناطق، فأمرنا موكل إلى مجلس الحكماء، لكن الأمر لم يكن كذلك على الدوام، فمنذ قرنين من الزمان، وبعد

زمن طويل من رحيل كسرى، حلّت روح الحي الناطق في أبي مسلم الخراساني، وقاد شعبنا في ثورته الشهيرة على العرب، تحت غطاء نصرة العباسيين. لكن تابعاً أحمقاً من أتباعه يدعى سنباذ، كشف أمره حين نادى علناً بولا يته، فقتله العباسيون قبل أن يتم عمله، وكانت روح كيومرث قبله في مزدك". "ومتى ستظهر روح كيومرث مرة أخرى؟". "علم ذلك عند الرب والراسخون في العلم... لكن ديننا يؤكد أنّ روح الحي الناطق كيومرث ستوالي الظهور حتى يأتي ذلك اليوم الذي تظهر فيه إلى الأبد، ويملأ الأرض عدلاً ورحمةً، ويعيد دولتنا، ويبسط سيطرتها على كامل المعمورة فتختفي عندئذٍ دولة العرب والترك وسواهم من الأقوام الظلمانية أتباع اهرمن".

كانت أسئلتي المتناثرة الصغيرة تعبر عن حيرتي إزاء التناقض الأكبر الذي يقوم في مخيلتي بين ما قاله سابقاً وما يقوله اليوم. تناقض أعتقد ضمناً أنه لا يمتلك إجابةً وتفسيراً واضحين لهما، وخشيت أن أحشره في مأزق محرج، لكنني لم أستطع التصبّر، سألت بحذر: "لكنك تقول إنّ الإسلام ليس ديننا، وأراك تستشهد به وبالقرآن وبما قاله النبي محمد مراراً...".

قاطعني مستنكراً: "حين تلفظ اسم النبي محمد قلّ عليه السلام... فهو نبي نقله الرب من الظلمات إلى النور حين اتصل به الحكيم سلمان... ما نطق به الأنبياء كلّه حقٌ وصدقٌ ولا مريّة فيه، لكن ليس الأمر كما يعتقد هؤلاء الظلمة الكفرة، بل أمر وراء ذلك لا يعلمه إلا الرب والراسخون في العلم. وأنا حين استشهد بالقرآن أو بما قاله عليه السلام، فإنما أستشهد بوحي من الربّ لا بكلام أحد من البشرية، ولا وفق المعنى البسيط الذي يعتقدونه فيه. الإسلام ليس ديننا، هذا صحيح. ديننا هو الدين الوحيد على وجه هذه الأرض، والإسلام والنصرانية واليهودية شرائع تصلح لعامة البشر، وأولى ما يصلح للعامّة من حكم الدين وآدابها ما كان ظاهراً جلياً مكشوفاً، مثل الصلاة والصوم والزكاة والصدقات والقراءة والتسبيح والتهليل ومثل علم العبادات وعلم الأخبار والروايات والقصص. أما الذي يصلح للخواص البالغين في الحكمة والراسخين

في العلوم، فهو علم الدين والنظر في أسراره وبواطنه الخفية المكنونة".

بدأت طلائع الغزّ بالوصول، كنا على وشك الالتقاء بأول ثلّة منهم عندما تأفف والدي وصمت، أراد إن نتوقف عن الحديث وأردتُ ذلك. كانت حمولة هذا النهار التي ألقاها على دماغي الفائر، هائلة... ومن هامة رأسي إلى أسفل قدمي شعرت بالألم. طلب مني أن أخرج لفافة الرأس البيضاء الطويلة من صرّة ثيابي، لفّها حول رأسي برفق، بدت مثل تاج كبير من القطن. لم أكن اعلم أنّ غطاءاً سميكاً كهذا يمكن أن يبعث البرودة في هذه الصحراء. ولمزيد من الرفاهية توقفت وأرخيت اربطة نعلي. فقال علي الصباح: "هل تعبت؟..أأحملك؟".

قلت رافضاً بشدة: "لا لا... فقط الأربطة مشدودة جداً".

٩

حين هربت من أصفهان إلى مصر قبل سنتين، كان يرافقني ثمان من رجال دعوتنا، وجههم مجلس الحكماء لتلقي التدريب هناك. وفي تينك السنتين الرائعتين رغم ما اكتنفهما من صعاب، تمكنت من استمالة الجميع وتجنيدهم لصالحي. لكننا فقدنا واحداً من المجموعة في قرية قرب ميافارقين، درج أهاليها، لعقيدة يعتنقونها، على هجر البيت الذي يتوفى صاحبه الذي عمّره، والانتقال إلى بيت جديد، وتكونت من ذلك قرية أموات كبرى، على طرفها الغربي هلال ضيق من منازل الأحياء. قررنا اللجوء إلى ذلك الملاذ الفريد في شتاء سنة ١٠٧٦ م القارص. لكن عملاقاً، عارياً وأصلع، من الجنّ، وامرأة صلعاء، من الجنّ أيضاً، برزا للشاب ليلاً بين الخرائب وطلبا منه أن يخبرني أن المنازل التي شغلناها هي لقوم مضطهدين من الجنّ نفاهم من باطن الأرض مليكهم الطليس، لإدمانهم السكر برضاب الآدميين. غادرنا المكان حالاً، لكن الشاب تولّه بالجنية الصلعاء التي استجدته قليلاً من الريق لها ولرفيقها. وكرّ عائداً إلى الخرائب، ولم نعثر له على أثرٍ بعد ذلك أبداً.

في عكا افترقنا، ركبوا الرجال البحر وتوجهوا إلى الإسكندرية، فيما سلكت طريق الصحراء إلى القاهرة، مانحاً إياهم فسحة وقت تزيد عن الشهرين لاستباقي، والدعاية لي والتحضير لاستقبالي.

كان أداؤهم رائعاً، وتضافر مع مجهود استثنائي بذله الموبذ موبذان، هبة الله الشيرازي، الذي كان لديه كل الأسباب لدعمي ودفعي قدماً إلى الأمام. واستقبلني في حاشية كبيرة عند باب زويلة.

كان نفوذ الشيرازي، داعي دعاة الفاطميين لأكثر من عشرين سنة سابقة، مهدداً بالتلاشي، جارفاً معه بالطبع موقعنا في الدعوة والدولة. وجاء حضوري هنا في هذا الوقت العصيب، بتاريخي وشبابي وإمكاناتي، لينقذ الآمال التي يعلقها مجلس حكمائنا على تلك الدولة منذ عشرات السنين.

لم يكن لهبة الله ذنبٌ في تراجع نفوذنا في دار الخلافة الفاطمية، بل أن خطتنا طويلة الأمد لتسخير إمكانياتها، لم تعرف نجاحاً كالذي حققه هذا الرجل العظيم، الذي هجر منصب الموبذ موبذان، وجاء ليشرف بنفسه على انجاز الجزء الحاسم من تلك الخطَّة. وكادت جهوده تؤتي أكلها سنة ١٠٥٨م، عندما اتصل بالبساسيري ودعمه بالمال والسلاح وأشرف عليه لثلاث سنوات، دفعه بعدها لمهاجمة بغداد مستغلاً خروج طغرلبك إلى شمال العراق مطارداً أخيه من أمه إبراهيم ينال، فاستولى عليها، وقبض على الخليفة العباسي القائم بأمر الله وانتزع منه إقراراً خطياً بأحقية الفاطميين بالخلافة، ثم نفاه إلى عانة، ورفع الألوية الفاطمية فوق بغداد والبصرة وواسط، وخطب للمستنصر على المنابر. لكن طغرلبك الذي هزم ينال وخنقه بوتر القوس، كرَّ على البساسيري، وهزمه، وقتله...

كان ماء نهر النيل هو سبب تراجع نفوذنا، فقد انخفض لسبع سنوات متتالية، عصفت خلالها بمصر، مجاعة لا مثيل لها، وعمت الفوضى، وانهارت الدولة، وانحطت جيوش الفاطميين إلى المعمورة تتناهبها، واقتتلت حول الغنائم في الأسواق والنجوع، وتحزب الجنود كلٌ لأبناء جلدته في ثلاث كتائب هي البربرية، والتركية، وكتائبنا المعروفة بالديلمية، التي ضخها مجلسنا بالتدريج في الجيش الفاطمي لتكون نواة جيشنا الخاص عندما يحين موعد الخلاص. لكن

دعم السلاجقة لأبناء عمومتهم، جعل النصر من نصيبهم، وكان ثمن ذلك أن أقاموا الخطبة للعباسيين في الإسكندرية. ونهبوا القصور والمكتبات الفاطمية في القاهرة.

ومن على حصيرة من جريد النخيل كتب المستنصر يطلب العون من واليه على عكا، بدر الجمالي، الذي وصل القاهرة سنة ١٠٧٤ م، واخمد التمرد التركي، وتولى جميع المناصب: الوزارة، وقاضي القضاة، وداعي الدعاة، إضافة إلى قيادة الجيوش...فمن هو بدر هذا؟!.

إنها سنة ١٠٤٢م... هاهو بدر... مملوك صغير جلبه التجار من أرمينيا وبيع لقائد تركي... هاهو في السادسة عشرة من العمر، بوجهه الجميل الفاتن، اسماً على مسمى، أنجز تدريباته العسكرية للتوّ، ويقود خمسة جنود في غارة صغيرة للقوات الفاطمية إلى الجنوب من دمشق...وسامته تخجله، فأعين عشاقه من القادة والجنود تتلامع حوله متشهية متلهفة. وها هو بعيد الغارة التي أبلى فيها بلاء ممتازاً بين يدي قادته الشبان، يلبي دعوتهم للثناء عليه... وفي الصحراء، في خيمة عسكرية بثلاثة أطناب، أطنبوا في الثناء على مؤخرته اليانعة كدراق الشام. وها هو يغادر الخيمة في السحر، ليبكي بمرارة عند صخرة سوداء مغروسة في الرمال. وحين ستطلع عليه الشمس سيكون قد خلق خلقاً جديداً، ولن نستطيع أن نقول في حقّه بعد ذلك كلمة واحدة تمت إلى البراءة، أو الجمال، بصلة. وسيترقّى في المراتب العسكرية، دون أن تفارقه صورة تلك الصخرة السوداء المغروسة في الرمال...

وها هو بعد عشرين سنة قائداً لحامية عكا، الصيف في أولّه، وبدر في الثامنة والثلاثين من العمر، يقود "خيرة" جنوده في رحلة صيد إلى الأحراش شرق المدينة. رحلة الصيد تناسبه، ففيها الخلوة، وفيها الإثارة التي تبعثها ملاحقة الطرائد، وهناك الخيمة المنعزلة، ذات الأطناب... يراقب بدر جنوده اليافعين الذين يتقافزون بين يديه برشاقة، يختار ذي الخطوة الرخيَّة الشهيَّة،

ويأمره بإعداد مائدة النبيذ ولحم الطرائد ... لن أقصَّ عليكم الوقائع الأخرى المخجلة التي يتخذ فيها بدر دور الغانية اللعوب، لكنني سأخبركم بأنه كان مدمناً على لعق منيه، الذي يستدره دائما بالطريقة ذاتها، وفي أجواء تعود به دوماً إلى خيمة قادته الشبان.

وذاك الجندي، ذو الخطوة الرخيَّة، هو بالذات من سيكون سبباً في موت بدر. فهو الوحيد الذي لم يقتله بعدما ملَّ مطارحاته. لكن الأفضل ابن بدر الجمالي سيكتشف بالصدفة سنة ١٠٩٤م، أن رئيس حرس والده، هو معشوقه المفضل منذ عشرات السنين، وسيقتله. فيموت بدر على الأثر.

لقد توسخت برؤية هذه القذارة عن قرب، بعد شهرين من وصولي إلى القاهرة. فقد لفتت انتباهه الضجة الكبيرة التي أثيرت لدى وصولي، والحفاوة البالغة التي أحاطني بها هبة الله والأمير نزار بن الإمام المستنصر، الذي كان في الثالثة والثلاثين، ويكن كرهاً متمادياً لبدر ومحبة خالصة لأبناء شعبنا.

كان جهل الأرمني بشؤون الدين والفكر مطبقاً. وهو إذا نجح في تنظيف الساحة من خصومه العسكريين بالسيف، فإنه عجز عن فعل شيء لنفوذنا الفكري في دار الخلافة. وكانت عينه لا تحول ولا تزول عن الشيرازي الذي يكن له الخليفة وأسرته احتراماً يقرب من التبجيل، خاصة من طرف الأمير نزار، تلميذه والمرشح لخلافة المستنصر في الإمامة. وقد التقطت هذه البارقة وأعدت صياغة أحلامي مهتدياً بخيطها الرفيع، وبتجربة نظام الملك مع السلاجقة.

كان نزار يصغرني بنحوٍ من عشرة أعوام، شاب انفعالي، سطحي، حقود، ظاهر البغضاء، ولا تشك للحظة في كونه من العرب. حشرته بما أوتيت من قوة إقناع ومهارة، في ركن التلميذ منذ مقابلتنا الأولى. ويبدو الطريق مفتوحاً أمامي لأصبح مرشده ووزيره عندما يتسنم الإمامة بعد سنوات على أبعد تقدير. كان عليَّ الآن أن أعمِّق كرهه للأرمني، وأن أعزز ثقته بنفسه، ليكون شخصية مستقلة تستقطب القوى التي هزمها بدر وشتتها، من بربر وترك وعرب وفرس،

وتأليف حزب قادر على الإطاحة بلاعق منيه ذاك.

بذريعة التعرف على إمكانيات ونوايا السلاجقة عن قرب طلبني الجمالي و" استنطقني" مطولاً. حاول أن يرسل لي عبر نوعية أسئلته وجفاف نبرته رسائل تحذيرية. وقد جاريته في مكره الساذج، وتظاهرت بالبلادة وقلّة الفهم. وخرجت من عنده وأنا منحن حتى يكاد رأسي يلامس الأرض توقيراً لحامي إمامنا وأتباعه في كل مكان. وأسرعت إلى معتزلنا أنا ونزار وهبة الله، لأعطيهم تقييمي ورؤيتي لمكامن قوة وضعف هذا الرجل، الذي صرنا جدياً في طور التخطيط للقضاء عليه.

اتفق هبة الله مع كل ما ذهبت إليه من آراء ومخططات بهذا الخصوص، وبخصوص مستقبل وجودنا على أرض مصر. وهو لم يعرْ تحذيرات نائبه في بلادنا مني أيما اهتمام. وصدقت نبوءة ابن عطاش الذي توقع أن أحوز رضاه وإعجابه. كان في الثامنة والسبعين من العمر، نقياً في أقصى مصافات الحكمة. يريد للرسالة التي نذر نفسه لها أن تمضي قدماً بغض النظر عن وجوده وعدمه. وفي خلواتنا الأخيرة، أبدى أسفه وندمه لاختياره أبا الفضل نائباً له في مجلس الحكماء معتمداً معيار السن والأقدميَّة وحدهما. شرح لي، بنوع من الاستشراف الذكي، وظيفة الموبذ موبذان على ضوء نظرية المثل والممثول التي أبتدعها حكيمنا الكرماني، والتي تقوم على مقابلة مجلس الحكماء بيد الرب التي يفعل بها ما يريد على الأرض في غياب الحي الناطق. حيث ينوب الموبذ موبذان، مناب الإبهام، في مقابل القوى الأربع، ويفوقها جميعاً في القوة ،ولا تستطيع فعل شيء دون مشاركته، وهو بسبب هذا الامتياز يتحمل المسؤولية الأكبر أمام الربِّ عن كل ما تفعله جمعيتنا، وعليه أن يتحلى بالنزاهة والحكمة، وهو ما لم يفعله أبا الفضل.

قبيل وفاته في كانون الأول من سنة ١٠٧٨ م، توليت عملياً مهمة قيادة الجناح الفارسي في القاهرة. وبحادثة بوابة الذهب الشهيرة دشنتُ تلك المهمة. فقد وجدنا أننا يجب أن نُشعر خصوم الأرمني المشتتين الخائفين بمناوأة نزار

لعدوهم، فيتقربوا منه ويلتفوا حوله. وقد رسمت لذلك خطة سهلة التنفيذ.

كان ابن بدر الأكبر وولي عهده المنتظر الملقب بالأفضل، المحارب الشاب الذي يفوق والده ذكاءً وانضباطاً، يلج قصر الخليفة صبيحة يوم ماطر عبر بوابة الذهب المقصورة على العائلة الفاطمية وأركان الدولة. فجأة برز موكب الأمير نزار من قصر الخلافة وتقابل الموكبان "مصادفة" فتنحى الأفضل بحصانه عن الطريق قائلاً: "السلام عليكم". فانفجر نزار دون مقدمات، وزمجر بصوت جمع فيه كل غلّه المكتوم قائلاً: "انزل عن حصانك عندما أمرّ يا أرمني يا كلب!... ما أقل أدبك!".

مات هبة الله بعد أسبوعين من هذه الحادثة مسموماً على الأرجح. ودفناه بدار العلم في القاهرة بعد أن صلى عليه المستنصر. ونجوت أنا من محاولتي اغتيال، بفضل حذري الشديد والحراسة الوثيقة التي أقامها عليَّ نزار في قصره. وتساقطت رؤوس رجالنا في القصر ودار العلم والجيش واحداً تلو الآخر. ومَثل أمامي هاجس الموت مرة أخرى.

وفي ليلة شباطية مضطربة الريح، تحمل زخّة من مطر حيناً ونفحة غبار حيناً آخر، استدعاني الإمام عن طريق نزار للمثول بين يديه، ولم أكن قد قابلته سابقاً. وللدخول على الإمام الفاطمي معنى روحاني كبير، ليس له مثيل في أي معتقدٍ أو دولة أخرى. كان ممثل الرب بمعنى ما، ومقابلته هي البركة العاجلة الخالدة، وبلوغ المراد الأعظم الذي هو الجنة. وقد انتظرت شخصيات كبيرة جداً من رجال الدعوة وأعلامها البارزين أشهراً وسنوات على أبواب الأئمة، قبل أن يؤذن لهم وتحصل المشاهدة التي غالباً ما تغير مجرى حياتهم.. من جهتي لم أكن أجد رؤيته شيئاً ذا بال. على العكس، خشيت أن يلفت ذلك نظر الأرمني لعلاقتي المتنامية بنزار، تلك العلاقة التي أنظر إلى مستقبلي ومستقبل بلادي من خلالها.

لا أذكر أني رأيت في المستنصر شيئاً مميزاً سوى المحيا النبيل الذاوي،

لرجلٍ شارف على الستين، أمضى ثلاثة أرباعها حاكماً مطلقاً لواحدة من أعظم الدول في التاريخ، وأكثرها اضطراباً وتردداً بين ذرى المجد السامقة، ومهاوي الانحطاط السحيقة.

كانت جلسة طويلة تطرق الحديث فيها إلى الماضي وعبراته التي يميل المستنصر إلى استخلاص نقيضها، شأنه شأن كل شخص تقلبت به الحياة كل منقلب. ثم تطرَّق إلى الحاضر وشجونه ويأسه المطبق. وأخيراً إلى المستقبل الذي رسم له خطاً واضحاً ينسجم مع خطي وخطتي التي اتفقت عليها مع الشيرازي ونزار. وعندما نادى مؤذن القصر بصوته العذب داعياً إلى صلاة الصبح، كان المستنصر يتحدث عن ضرورة رحيلي فوراً إلى الإسكندرية، القلعة الوحيدة المناوئة للجمالي في الدولة الفاطمية، والتي يحافظ حاكمها ناصر الدولة أفتكين، وقاضيها جلال الدين بن عمار، على الولاء المطلق للإمام، فهناك فقط سأكون بمأمن من غدر الجمالي، وقادراً على العمل براحة مع مناوئيه الآخرين، والانقضاض عليه في أول سانحة.

ولم أنس أن أُلمِّح في نهاية تلك المقابلة إلى خطر داهم استشعرته وشممت رائحته منذ وصولي إلى القاهرة. سألت المستنصر: "من إمامي بعدك؟". حدَّق عبر العتمة المتلاشية مطولاً، ثم قال: "ولدي هذا!". تبسم نزار؛ فيما غاص والده في الرؤى القاتمة التي أثارها سؤالي.

❖❖❖

١٠

عندما لاحت طلائع قوافل الغزّ الهوجاء، سارع والدي إلى دفن كيس نقوده الصغير وحقيبة قماشية تحوي مجلدات ضخمة إلى جانب الطريق. تابعنا سيرنا منكسي الرأسين بمذلّة ومسكنة، لكن هيئتنا هذه لم تعن شيئاً للمفرزة التي تسبق الجميع على أمل الفوز بصيد خاص، قفزوا عن خيولهم الواطئة وهاجمونا مباشرة، ألقى والدي أغراضه ورفع يديه باستسلام وفعلت مثله. كانوا يرطنون بلغتهم التركية الغليظة الخشنة، لم يجدوا في صرتي ثيابنا ما يستحق، بادر احدهم إلى تفتيش أبي، وسارع آخر إلى تلمس جسدي، فجأة رفع طرف ثوبي، وانكشفت عصفورتي فصرخت برعب وانثنيت عليها. قهقه فارس لم ينزل عن حصانه ورطن بشيء يبدو انه أمر، فتناول الذي يفتشني العمامة عن رأسي ونفضها، وحين لم يجدوا شيئاً يستحق أن يسلبونا إياه امتطوا خيولهم وانطلقوا غرباً قبل أن يلحق بهم الآخرون... ولا أدري كيف أنهم لم يطلقوا علينا النبال لأننا لم نكن نملك شيئاً.

ومثل نهار البارحة بدأت الشمس تعلو وبدأ العرق ينز مني غزيراً، أما والدي فإن جلده المدبوغ ولحمه الضئيل كان يفرز ملحاً كملح السبخات. يشرب قليلاً من الماء، لا بقصد التوفير ولكن لظنه بأن هذا الماء سرعان ما سينضحه الجسم، آخذاً معه شيئاً من روحنا وذاتنا. مع ذلك لم أستطع أن أقاوم العطش، شربت وتعرقت حتى ترطرط ثوبي بعصيري، وصار كتيماً خانقاً، فاضطررت

لفتح عروة زيقي والنفخ فيه، بينما كانت ثياب والدي جافة ينفذ الهواء من مساماتها بكل راحة. ابتسم لي وأنا أنفخ في مأزقي، في تلك اللحظة تحولت عيناي من الشرق، حيث نيسابور التي صار بلوغها غاية مناي، إلى الشمال حيث سلسلة طويلة وبعيدة من الجبال الزرقاء، تخيلتها باردة يتهاوى بين أوديتها وقممها الشاهقة نسيم منعش رطب. سألته وأنا أشير إليها: "ما تلك الجبال؟".

"هذه جبال البوروز، أعلى جبال في بلادنا، وأول جبال ارتفعت فوق الأرض، وأول موطئ قدم لجدنا كيومرث، وعلى تلك القمة أتراها ... هناك إلى الغرب قليلاً ... يدعى جبل دامافند .. هناك أنفذ يزدان مشيئته في صورة نور متلألئ، فكان جدنا زارادشت... وضع روحه في شجرة أنشأها في الفلك المحيط وزرعها في قمة الجبل، ثم مازج روح زارادشت بلبن بقرة أكلت من الشجرة، فشربه أبوه، فصار نطفة ثم مضغة، في رحم أمه دغدوية".

صمت متأملاً وأضاف: "من تلك الجبال الشامخة انحدر أجدادك، من كيومرث إلى زوران الكبير إلى زارادشت إلى مزدك إلى ماني إلى هرمس... وكل أولئك الأشخاص العظام الذين حلت فيهم روح الحي الناطق لتقود جيش النور في حربها ضد جيوش أهرمن الظلماني". لم أكن قد سمعت بأي من هذه الأسماء التي ذكرها، فخطر لي أن أستفسر عنها واحداً بعد آخر لكنني لم أعد أذكر سوى اسمين: زرادشت وهرمس. "زارادشت أحد أعظم من حلت فيهم روح الحي الناطق كما سبق أن أخبرتك، بعثه الرب في زمن كشتاسب الملك، عندما بلغ الأربعين دعا الملك فاستجاب له، وكان كور كامل، كتبت فيه النصرة الخالصة لجيوش يزدان ربنا ... له كتاب ستقرأه ولا شك يوماً يدعى زند أفستا ... ومما أخبر به هذا الكتاب أنه يظهر في آخر الزمان رجل يدعى "أشيزريكا" أي الرجل العالم، تنقاد له الملوك وينصر الدين الحق ويحصل في زمانه الأمن والدعة وسكون الفتن وزوال المحن. أما هرمس فهو من يدعوه القرآن باسم النبي إدريس.الحي الناطق في زمانه، وقد جاء بصحف هرمس، وهي كتاب هام أيضاً لا بد أنك ستقرأه يوماً، فقد أودعه علم أحكام النجوم،

حين صعد إلى السماء الرابعة المتوسطة بين السموات السبع، أي فلك الشمس، وهناك استقى من الروحانيين مدبري الأفلاك والأبراج والكواكب السيارة معاني حركاتهم من شرفٍ وهبوطٍ وأوج وحضيض، وجوزهر وخسوف وكسوف وقرانات كبرى وصغرى. وهو محفوظ لدى حكمائنا، يسترشدون به في الأكوار التي ليس فيها حيٌ ناطق".

يلغي الألمُ الأشد الألم الأخفّ. كذلك التعب والإرهاق، اعتدت أن أحفظ كل ما يلقيه عليَّ أبي لأنه سيطالبني بتذكره. لكنه كان يلقنني بعدلٍ ما أستطيع أن أفهمه وأستوعبه، وأحياناً يكتب لي ما يراه عويصاً لأحفظه. اليوم والبارحة أهال عليَّ جبالاً من المعلومات والأفكار التي لا يكفي كونها مثيرة لحفظها من المرة الأولى، وأنا لهذا أشعر بالقلق والحيرة والخوف. ماذا لو أنه استوقفني عند أبواب نيسابور ليطالبني بتكرار ما ردده على مسامعي طوال الطريق؟! قلت أن تعباً قد يلغي آخر، وبالفعل يلغي الآن تعبي الجسدي شقائي العقلي. تجلت متاعبي وانحصرت في قدمي اللتين بدت أعصابها مشدودة إلى درجة الإيلام. توقفت قليلاً ورفعت رجلي اليمنى في الهواء في إشارة واضحة إلى أنني لم أعد أتحمل المزيد. سألني:"هل تعبت؟". أجبت منهكاً:"أجل!".

أشار إلى صخرة في البعيد وقال:"سنستريح ونأكل هناك... أأحملك أم أنك قادر على الوصول إليها بنفسك".قلت وأنا أرمق الصخرة البعيدة البعيدة: "بل أستطيع أن أبلغها".

لكن ذلك لم يكن صحيحاً، وتوقفت في منتصف الطريق، ليحدث ما لم يحدث في حياتي قط. حملني أبي على ظهره لما يزيد عن فرسخ. قربت منه إلى حد الالتصاق، لحم على لحم، وجلد على جلد، وامتزج عرقنا ومزجنا ببعضنا البعض.

استلقيت على الأرض واتكأت على صرة ثيابي. كنت أحرص طوال اليومين السابقين على نظافتها، لكنني أخيراً ألقيتها على التراب وغرزت مرفقي فيها سانداً رأسي المثقل المرهق، أراقب أبي الذي جمع الحطب وأوقد النار بمناسبة

الليل الذي حلّ أخيراً.

يبجل أبي النار، وحين يوقدها يتمتم بأشياء غامضة. "كم بقي من الطريق؟" سألته، قطع زمزمته وتطلع إلى النجوم ليقول: "إن سار كل شيء كما سار في اليومين الماضيين... سنصل بعد غد". وتابع الزمزمة. كنت قرأت عَرَضاً شيئاً في لعن المجوسية التي أسماها المؤلف عبادة النار، ووصفها بالوثنية. سألت علي الصباح: "أكان شعبنا قبل مجيء الإسلام يعبد النار؟". ابتسم ابتسامة جانبية هازئة ومحتقرة، غير من وضعية الركوع أمام النار وتربع على الأرض ليصير نصف وجهه في مواجهتي، ذاك الذي يشع عليه ضوء النار، فيما النصف الآخر غائص وممتزج بالظلمة قال: "لم يوفر العرب فرصة للحطِّ من شأننا إلا اغتنموها ...". تأمل والدي الجمرات المشعات الجميلات وقال متوهج الوجه: "نحن نعظم النار لأنها جوهر شريف علوي... لأنها نورانية لطيفة، وهي بطبعها خيرة... ألم تقرأ كيف أنها لم تحرق جدنا إبراهيم، وهي كذلك لا تحرق النورانيين أجمع، بل تكون عليهم برداً وسلاماً لأنهم من طبيعتها ذاتها ... وحين نخشع أمامها فإنما نخشع أمام معجزة الخلاص التي يجسدها الاحتراق... هذا الحطب الكثيف المظلم كيف يكتنف هذا النور اللطيف؟ والأهم كيف يخلص النور نفسه من أسر المادة لينطلق شعاعه إلى السماوات العلا، بينما تتحطُ المادة وتفسد وتتهاوى إلى أسفل؟!".

في هذه اللحظة بالذات، وعندما ألقى والدي مزيداً من الحطب إلى الموقد وبدأت ذؤابات اللهب تتراقص في الظلمة الشاسعة، تخايل لي ما كان يتخايل على الدوام عندما أرى تلاعب ألسنة اللهب الأفعوانية الغامضة، تراءى لي إبليس، ذلك الكائن الذي رفض السجود لآدم لأنه من تراب وماء بينما هو مخلوق من النار! أتراها عقيدتنا تقدس إبليس أيضاً؟!. كان سؤالاً يحتاج إلى يقظة وتركيز، خشيت أني لا أملكها، فاخترت موضوعاً أسهل، وسألت مبدياً اهتمامي بما يلقيه عليَّ والدي: "لماذا ساعدناهم أذن ما داموا سينقلبون علينا، ولما لا نقوم إليهم قومة رجلٍ واحدٍ فنسحقهم؟!". "أما لماذا ساعدناهم فتلك مسألة لا يحق

لنا أن نخوض فيها، أراد ربنا ذلك، أراد أن تظهر دولتهم وتغيب دولتنا ردحاً معلوماً من الوقت وذلك على مجاري أحكام الزمان، نصفه نهارٌ مضيء، ونصفه ليل مظلم، وكما ذكر الله بقوله ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس وما يعقلها إلا العاقلون ﴾... لقد تلقى سلمان عليه السلام الأمر بالحضور في المكان والزمان المعلومين، لبدء ظهور دولة العرب، من خلال الروحانيين مدبري الهياكل الفلكية، لأن الله أراد تجديد الملك في المملكة، وانتقال الدولة من أمة إلى أمة، ولذلك دلائل بينة وعلامات واضحة، وقد اقر النبي محمد عليه السلام وبعض من آل بيته الأبرار بفضلنا على شريعتهم. وفوق ذلك اقروا بأن أمره عائد إلينا أولاً وتالياً، ومعروف لدى العرب وسواهم حادثة القباء الذي ألقاه النبي محمد عليه السلام على آل بيته وضم تحته ابنته فاطمة وحفيديه الحسن والحسين وابن عمّه علي وحكيمنا سلمان عليهم السلام أجمعين. ومن أقواله المعروفة التي يحاول بعض العرب إخفاءها كأن لم تكن، قوله: لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لتناوله رجل من أبناء فارس... وقوله أيضاً: طوبى لأخواني من رجال فارس، يجيئون في آخر الزمان، يجدونه سوادٌ على بياض، ويؤمنون بي ويصدقونني. وقول الصادق جعفر من آل البيت: بدأ الإسلام غريباً، ويعود غريباً، فطوبى للغرباء... وقال عز وجل للمخلفين من الأعراب﴿ ستدعون إلى قومٍ أولي بأس شديد﴾ وقال عز وجل: ﴿سوف يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه﴾. يقصد بذلك شعبنا. ويحاول العرب حرف الكلم عن مواضعه ظناً منهم أن ذلك يغير من الأمر شيئاً، ويمنعون به أمراً كان مفعولا، لكن.. هيهات هيهات".

قلت وكنت بالكاد أفقه ما يقول: "ولم لا نبصّرهم بحقيقة كل ذلك؟". "لقد نهانا الله عن ذلك يا بني بقوله: ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾.

اختلطت الأمور في عقلي والتبست، قلت من خلال الوسن: "لكن سلمان عليه السلام علمّ النبي محمد ... عليه السلام".

وسمعت خلال انسحابي إلى عالم الظلمة والراحة والدي يقول:"لقد جعل

الله في النبي محمداً نوراً. قال تعالى ﴿ أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾".

ببراعة وخفة تملكني سلطان النوم، وفي عالمه الآخر، رأيتني ألاعب فاطمة بحجري النرد، ألقي وتلقي، وفجأة تلقفت يدٌ سوداء خرافية الطول حجري النرد، رفعت ناظري فإذا ماردٌ من العرب، عرفت أنه من العرب باحساسي، قال بسخرية: "تلاعبني؟!". وألقى بحجري فاطمة فانقضضت عليهما محاولاً استعادتهما، لكن يده كانت أسرع من يدي، فتلقفهما وقال بضحكة متعجرفة: "فزتُ...سآخذ فاطمة". بلمح البصر حمل فاطمة تحت إبطه وقفز إلى ظهر بعيرٍ عربي تتأرجح على ميمنته قربة من الجلد، مملوءة بالماء، وخفَّ به البعير مسرعاً... رأيتني أركض وراءه في صحراء مفروشة بصخور مسننة ... كنت حافياً وراحت قدماي تؤلماني، تورمتا وصرت أعرج، ثم انفجرت الدماء منهما.

١١

بحر الإسكندرية أبعد غوراً وأطول شاطئاً وأنقى سماءً من البحر الأحمر. لكنه لم يمنحني ذلك الشعور المريح بأبدية الحياة. هنا أيضاً تلاحقني رؤى الموت ويهددني جسدي اللعين بالانهيار. أمشي وأمشي حتى تُنهك قواي. أتفحص هيئة كل خلقة حيّة وجامدة، وكل رسم ترسمه الغيوم البيضاء المتناثرة على الأفق الغربي، محاولاً تناسي هواجسي ووساوسي التي تنهشني. أعود مرهقاً إلى قصر الحاكم حيث أقيم، وما أن اسمع قعقعة سلاح الحراس بين نوبة وأخرى حتى تستيقظ الهوام المفزعة التي عاشرتها سنوات دون أن آلفها.

يستطيع جيش من القتلة أن يختبئ في مدينة الإسكندرية الواسعة. بواباتها مفتوحة للقوافل التي لا تنقطع، وشاطئها شاسع ومظلم، فكيف آمن غدر الأرمني وحيله؟!. كنت أتساءل: متى يظهر القاتل بعينيه المتحجرتين فجأة؟! وكيف سيكون ملمس النصل؟ أم تراه سيخنقني بحبل؟!. وهل ينهار جسدي قبل ذلك، أم بعده، أم أثناءه؟!... يا للعار!.

كنت أتمشى ذات ضحى على الشاطئ الهادئ بُعيد رجوع الصيادين وشبع النوارس، متخيلاً الإهاب الذي سيظهر فيه، وخطّته، والوقت الذي سيختاره. محاولاً أن أحفظ ما يجب عليَّ أن أقوم به عند ذاك بدقّة، لأنفذه تلقائياً وبسرعة... عندما رأيتهما، لمحتهما لبرهة خاطفة، ثم تواريا بشكلهما المميز

الكريه خلف صخرة، وكمنا ينتظران حلولي في تلك البقعة الخالية لينقضا عليَّ. استللت خنجر أبي الطاليقوني الذي إن تمكنت من خدشهما به، فإن سمَّه سيقتلهما ولا شك غداً أو بعد غد، حين يكونان على وشك قبض مكافأة اغتيالي. وتراجعت دون أن أحول وجهي عنهما، حتى بلغت بقعة كان صياد متأخر يصلح شباكه فيها، لكنه كان قد غادر. ولم أجد من ألتجئ إليه سوى قدمي، أكبر الأعضاء، أجملها ... وأسرعها.

بعد دقائق صرت في قصر الحاكم، الذي استدعى القاضي ابن عمار على عجل، للتباحث في هذه البلية!... وعندما وصفت القاتلين للقاضي توجه عابساً إلى ناصر الدولة وأنَّبه: "ألم تأمر رجالك بإحكام المراقبة على الشاطئ؟". "بلى يا سعادة القاضي وقد التقطوا عدة مجموعات.. لكن هذين!". "هذا لا يجوز، لا يجوز أن نقبل بوقوع هذه الجريمة تحت بصرنا وسمعنا!". وراح الرجلان المهيبان يتناقران مثل ديكين كلٌ يدعي أنه الأكثر حرصاً، فيما أنا واقفٌ بينهما ترعبني الأرقام التي ذكراها والخطط التي يتبعها القتلة التي لم أوضع بصورتها حتى الآن.."كيف؟!". صرخت فأخرستهما. نظرا إليَّ بدهشة، ثم سألني القاضي: "ما بك؟!". "يحدث كل هذا ولا تخبراني، ثم تسألني ما بك؟!". "وما شأنك أنت؟!". سأل الحاكم مستغرباً.وتابع: "نحن نتحدث عن مجموعة من مدني الخمر الذين تحولوا بعد تحريمنا لتجارة النبيذ إلى تناول عشبة تعطي مفعولاً مشابهاً لمفعول الخمر بدعوى أن لا نص يحرمها، لكن الإمام أصدر حكماً بتحريمها، ونحن نعمل على قمعهم، لكنهم يلجأوون إلى الشاطئ... هذا ما نتحدث عنه، فما شأنك أنت؟!". قال القاضي ذلك بنفس واحد كي يبدو موقفي مضحكاً قدر الإمكان. ولأن ما قاله لم يكن مضحكاً كما توقع المسؤولان اللذان كانا ثقيلي الظل بخلاف عامة المصريين، ولأنه كان معقداً، ولأن حدسي الذي كان متوقداً أنبأني بضرورة الانتباه، فقد استوقفته طالباً توضيحاً دقيقاً لكل كلمة.

"إنها الهاوما..الهاوما وحق الرب!". كنت أردد وأنا آخذ طريقي سريعاً إلى سوق العطارين العظيم في الإسكندرية. سأل الجندي الذي يرافقني عن محلة العطار الذي يثق به ابن عمار، ووجهني إليه لأستفسر منه عن العشبة الغريبة. كان الطالعي عالماً كبيراً في علم العطارة والتداوي بالأعشاب، لكنه مثل سائر علماء مصر، كان داهية لا يشق له غبار في علم العيش، والتحايل على الحياة. لم يهزَّه ما ذكرهُ له الجندي من أني مبعوث القاضي، ولا قولي بأني معلم ابن الإمام. اعتصم بأول عبارة تفوَّه بها: "النبتة التي تسأل عنها حرَّمها مولانا، ولا أعرف عنها شيئاً". تجولت قليلاً في متجره، ناقشته في بعض أبواب علمه معلقاً على بعض وصفاته، وفرحت عندما أظهر اهتماماً وراح يسجل بعض الوصفات الخاصة التي لم يسمع بها سابقاً... وحين عاودت السؤال عن النبات الغريب كرر عذره السابق، وانصرف إلى زبائنه.

في طريق العودة سألني الجندي النعس الذي يمتشق رمحاً طويلاً: "لماذا لم تعطه نقوداً؟". تطلعت إليه باستغراب. كنت على اطلاع على ما في مصر من فساد ورشوة... لكن بين العلماء؟! سألته: "وهل سينفع ذلك؟!". تعجب من سذاجتي"يا رجل!". ثم بسط كفَّه العريضة السمراء قائلا: "أعطني دينارين وسآتيك بكل المعلومات التي تريدها". "هل ستعطيهما للعطار؟". "بالطبع..أما بخشيشي فأنت تحدده...". قلت أني أمنحه الدينارين فيما لو فتح لي باب التفاوض مع الطالعي الذي سأتولى أمره بنفسي، فدفع كفه نحوي بثقة.

كان الطالعي واضحاً: "أنت رجل عالم وتدري، ليس هناك معلومة بلا ثمن". دفعت إليه كيس نقودي. اضطرب لثقله. حدَّق فيه بشهوة. دفعه في جيبه وقال: "اسأل؟!".

تسمى في اللهجة المصرية "الحشيش"، تشبيهاً لها بغذاء الدواب الأساسي، فهي نبات يجعل المرء "بهيمة...ولا مؤاخذة!". وتسمى في لغة العرب الخشخاش، أو "القنب الهندي". إشارة إلى موطنها الأصلي، ويطلق عليها هناك في الهند اسماً يقرب من "بيرنافي". جلبها إلى مصر تجار اليمن. طول النبات لا يتجاوز

الأذرع الثلاثة إذا كان مزدهراً. يستخدم المصريون الجذور والسوق والأزهار وحبوب الطلع والبذور. لكن أوراقه هي الاشيع استخداماً، لرخص ثمنها وسهولة إعدادها. فهي تغلى ثم تعجن ويصنع منها أقراص بحجم البندق، أو تجفَّف في الشمس ثم تسحق وتمزج بالسمسم المقشور والسكر وتستهلك على شكل ذرور. وأحيانا تمزج بالعسل والمعطرات وتستهلك على شكل لعوق... كل ذلك في سبيل الحصول على السرور والنشوة. ولعلها كانت أوفق من الخمر لمزاج المصريين الجاف.

ثم فتح الطالعي مغارة علي بابا. وهي حديقة مسورة بظاهر البلد، يزرع فيها الحشيش ويصنعه ويبيعه لزبائن مخصوصين من كبار تجار المدينة وأولادهم، الذين تفشت بينهم هذه العادة بسرعة هائلة خلال السنتين أو الثلاث الماضية، وهي كل عمر هذه العادة في مصر. وبأموال الأمير ومسا عدة الحاكم والقاضي، تحولت تلك المزرعة في غضون أيام إلى مخبأ لي، ومكاناً لزراعة النبتة وتجريبها.

غرسنا البذور غبَّ عقرب نيسان، وبعد أن أتقنت كل طرق إعداد وتصنيع الأشكال المختلفة من الحشيش، شرعت بإجراء التجارب على شابين حديثي العهد بتعاطي هذه النبتة، متلازمين وصحيحي البدن حتى الآن، ويبدو عليهما الإملاق وانعدام الحيلة. تظاهرت بالعطف عليهما، وعرضت أن أزودهما بالحشيش مقابل خدمة مسكني الصغير في الحديقة، فوافقا فوراً.

لم تأت تجاربي بنتائج مشابهة أو مقاربة لتلك التي حفظتها عن الهاوما، المشروب الذي تغنى به العظيم زارادشت، الرائع الساحر، ملك الأدوية المصنوعة من الأعشاب، من يدفع الموت بعيداً بعيداً... بل وجدته مثل كل المسكرات الأهرمينية، يبعث الحقد والحسد والبغضاء، ويسقط متعاطيه في التهويمات الأنانية، كأن يتخيل أنه أقوى رجلٍ في العالم، يقتل أعداءه بضربة من إصبعه.. توهم ذلك احد الشابين، فيما كان الآخر يتوهم أنه خليفة المسلمين، ويعاشر

أجمل غانية في العالم، فيما هو يشبك بخبلٍ زميله المتهدم الجسد، الذي تفوح من أسنانه النخرة رائحة جد كريهة. الحشيشة لم تكن بحال من الأحوال الهاوما، أو شراب الجنان، باعث الخلود والسرور الأبدي، الشافي من كل علّة، بل يبعث المرض في النفس ويهدم الجسد، وقد يموت متعاطيه إذا ما أفرط في تناوله. وهو يشبه من جميع النواحي "الهاومات" الزائفة الأخرى التي آحصيتها سابقاً، كالساليفا والخلنج والأفيدرا والراوند. لكنه أشد منها تأثيراً.

بالطبع لم أجرؤ على تذوقه، فمن ناحية كنت أخشاه كنبات آهرميني يحرّمه يزدان، ومن ناحية أخرى كنت أخاف ما يشاع عن استحكامه الشديد فيمن يتذوقه ولو لمرة واحدة.

على الرغم من هذه النتيجة الواضحة، لم يتوقف النداء القادم من أعماق حدسي، يحضني على الاستفادة من هذه التجارب التي أغدقت عليها من أموال الأمير نزار طوال سنتين.

في عصر يوم صيفي مثقل بالرطوبة، كنت في تلك المزرعة النائية أعيد وأكرر تفحص نتائج ذلك العمل والوصفات والتركيبات المختلفة، احتجت إلى زهرة من زهور الحشيش التي تنمو في الخارج. ندهت على الشابين المتكورين على الأرض وسط الغرفة كميتين، لكن أحداً منهما لم يتحرك. وكنت قد تبحرت في حيل المصريين ومكرهم. فأعلنت أني ذاهب إلى القاضي لأشي بهما، فقفزا مشتبكين وهرولا معاً إلى المزرعة ليحضرا كومة من الأزهار، ثم وقفا أمامي مرتعدين متوسلين ألا أنفذ تهديدي. تذكرت إذ ذاك مهاتراتهما حين ينتشيان، فيقتل أحدهما القاضي ابن عمار، ويسحل الآخر الحاكم ناصر الدولة، ويصيرا حاكم وقاضي الإسكندرية، ويبيحا زراعة وتعاطي الحشيش... حتى عندما ضحكت كان النداء يلح عليَّ: "لا تهزأ! حوِّل ما يثير السخرية إلى شيء ثمين..." . وما هذا الشيء الثمين؟!... لكن بارقة لم تبرق لي...ما هذا الشيء؟!... ورحت أقتل الذباب المتوفر بأعداد هائلة في مصر.. ما هذا الشيء

الذي يكافئ ما أهدرت من أموال الأمير؟... لعله يتوقع مني أن.. أن أقتل الجمالي مثلاً... حقاً لما لا أجعله مدمناً ثم استدرجه ليقتل؟! بدت الفكرة سخيفة، فلو كنا نستطيع الوصول إليه لدسسنا له السم، هو وولده وانتهينا...

عندما مالت الشمس إلى المغيب، وتململ الشابان ونهضا بتكاسل ووقفا أمامي ينتظران الجرعة المسائية. قلت بجدية: "ابن عمار والحاكم صادرا ما لدي من الحشيش...". فبكيا. ثم غضبا وراحا يضربان الأرض بأيديهما مهددين. قلت: "ما رأيكما لو نقتلهما ونخلص الإسكندرية منهما؟" . قالا أنهما على استعداد لفعل ذلك الساعة... بشرط أن أزودهما بجرعة واحدة.. ناولتهما الجرعة وخرجت إلى العراء... تتشقت الصعداء، وشرعت بالبناء على هذه الواقعة الصغيرة التافهة... المُلهمة.

١٢

في صباح اليوم الثالث للرحلة، سألته: "متى تسقط دولة العرب وتصعد دولتنا؟". "سقوط هذه ليست مقرونة بعودة تلك... لقد وقع في هذا الخطأ بعض أسلافك، ولاقت أمتنا من جراء ذلك الأهوال... ذات يوم أخبرت النجومُ الحكماء أن دولة بني العباس ستقوم... حكماؤنا استعدوا لاستقبال هذا التغيير في الدولة واستثماره لصالح أمتنا... هذا الاستثمار محدود بالنبوءة التي لا تعد سوى بأن يكون بني العباس أكثر رأفة بنا من أبناء جلدتهم الأمويين... لذلك أمروا أتباعهم وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني، بنصرة العباسيين، وإظهارهم، وهذا ما حدث، وكان لنا دورٌ بارزٌ – كما يُعتقد – في إسقاط تلك الدولة، وظهور هذه. وكان يمكن استثمار هذا الاعتقاد، في إنعاش أوضاع شعبنا، ريثما يحل دورها وكورها، لكن بعض المُستَجدين السذج، ظنوا أنَّهم يستطيعون وقد أسقطوا دولة راسخة أن يسقطوا دولة ناشئة، خاصة أن مركز قوتها في كفِّهم. وشرعوا سراً، وبالضد من نصائح الحكماء وتوسلاتهم، بحياكة مؤامرة يستولون من خلالها على الدولة العباسية، ويعلنون قيام دولتنا على الأسس والعقائد الفارسية الأصلية. لكن محاولتهم باءت بالفشل، حين تعثرت الدعوة وانكشفت وقتل أبو مسلم الخراساني في البلاط الذي حارب لأزيد من عشرين سنة لقيامه.". "فما الدولة التي ستظهر بعد دولة العرب إذن؟". "إنها دولة هؤلاء

الترك الأغواز، قالت النجوم منذ سنوات عديدة إن الرب سيظهر دولة الرجال الشعث على الخيول الصغيرة الواطئة... وها هي!".

بدأت سمامات الغبار ترتفع من الشرق، وأقبل الغز تتقدمهم نظرتهم الحاقدة القاتلة. قلت نافذ الصبر: "ألن تقوم دولتنا يوماً؟". تنهَّد أبي، صمت ملياً، ثم نطق بنبرة غريبة، تقع أصواتها بين التوسل والرجاء: "اسمع يا حسن... أحسنت بك الظنَّ فكشفت لك خلال اليومين التاليين طرفاً من أخطر أسرارنا، ليس سر قضيتي فحسب، بل سر عشرات أو مئات الألوف من أبناء شعبنا الذي يسعى إلى للخلاص... وهو أمر أقسمت أغلظ الأيمان ألا أكشفه لأحد ما لم يقسم بدوره على حفظ السر، بل لقد أقسمت على أن أقتل كل من أكشف له طرفاً ثم لا يستجيب... لقد ربيتك بنفسي وأعددتك على خير ما يعدّ الفارسي الصالح، لهذا تهاونت معك في هذا الأمر لقناعتي الراسخة بأنك ولا بد ستعتنق هذه القضية، بل أكاد أجزم بأنه سيكون لك معها شأن عظيم... ولكن.. هل لامست هذه الدعوة روحك وعقلك واستولت عليهما أم لا؟". "أجل... لقد حدث هذا". "هل تجد أن روحك تتوق لخدمتها طوال حياتك والإخلاص لها؟". "أجل!". "هل ستقسم على ذلك بحق ربنا يزدان العظيم؟". "أجل!". "أقسم له في سريرتك إذن... وبعد ذلك سأطلعك على كل ما تشاء معرفته". "ماذا أقول؟!". "قلْ.. قلْ ما يخطر لك... إنه عهد بينكما ... ولكن احرص على ذكر الطاعة، اسمه الأعظم، الذي قامت به السموات والأرض". أطرقت قليلاً، أنا الصغير الضعيف وجهاً لوجه أمام إله. إله لم أسمع عنه قبلاً. إله غير إله المسلمين الذي رأيت كل الناس يتوجهون إليه، وفعلت ذلك مثلهم مذ كنت صغيراً دون أن أفكر أو أعي شيئاً ... يا إلهي... يا إلهي وإله أمتي وبني جنسي، ساعدني كي أعاهدك! أعني على مخاطبتك، أعني على الوقوف بين يديك!.

رفعت وجهي نحو الشمس، عين يزدان، حدَّقتُ فيها، شُد حبل متين بين حدقتي عيني وبينها: "يا رب!.. يا يزدان، يا إلهي... أعاهدك على الطاعة إلى أبد الآبدين!". وسرت في جسدي رعشة بدأت من فكي، وسرت إلى عنقي،

ووصلت إلى ركبتي، خلا دماغي من أي شيء، لم تبق فيه فكرة واحدة، تطهّر، لم أعد أستطيع أن آمر قدمي بالمسير، توقفتُ في منتصف الخطوة كأنها شلت، وجدتني صغيراً صغيراً، جزيئاً متضائلاً أمام كليّ هائل، يغمر نوره الأكوان، فمن أنا الصغير التافه لأجرؤ على مخاطبته؟. ارتعشت روحي، لم أعد أرى بدقة، غامت الأشياء وانغمرت بنورٍ باهر، الخوف، إني خائف!. وسقطت على وجهي فتلقفني أبي. وتملّصت من بين يديه كدمية مربوطة المفاصل بخيوطٍ حلتّ فجأة، عندما صرت على الأرض كان كل شيء في يختلج ورحتُ أردّد بنصف وعي: "أنت ربي... أنت ربي... أنت يزدان ربي".

حين أفقت مما أردته أن يكون موتاً، تلك التمثيلية التي استجابت لها أطرافي بذكاء، كنت منهوك القوى، حتى أن عرقاً غزيراً بدأ يتصبب مني... كيف؟! لا أدري. للجسد دهاؤه أيضاً. مددت قدمي على الأرض، أبي سندني وراح يسقيني ماء، اقتربت السمامات كثيراً، فسارع إلى دفن نقوده وجعبة كتبه في مكان قريب.

وصل خمسة من الغزّ على خيولهم، تباطؤوا بلامبالاة وانتصبوا فوقنا، كانوا يتكلمون فارسية تعلموها مؤخراً. سأل أكبرهم سناً، وكانت له فجوة بين أسنانه السفلية: "ما به الولد؟". تركني أبي فتراخيت أكثر وتهدل شدقي. انتصب يجيب السائل المريع: "مريض يا سيدي... قالوا لنا أنّ طبيباً في نيسابور يشفيه". قال تركيٌ شاب بارز العضلات، قوي الإهاب إلى درجة القبح: "هذا لا شفاء له إلا بالسيف... اقتله يشفى...". قهقه رفاقه فردّ والدي بشجن: "وهل يستطيع أب أن يقتل ولده أيها الفارس الكريم؟". قفز عندئذٍ شاب يبدو أنه أصغرهم ومهرجهم، استلّ سيفه قائلاً: "... أنا أداويه...كم تدفع؟". واقترب المهرج المجنون ووضع حد سيفه الأثلم على عنقي، شعرت بوخز نتوءاته الحادة على بشرتي، ضغط قليلاً فأحسست بأن أسنان منشارٍ قد غرزت في أديم عنقي، تطلعت إليه بعينين ضارعتين مرعوبتين، خشيت أن اختلج مرة أخرى فيحزّ السيف المنشاري رقبتي، سكنت كميتٍ لا تتحرك سوى عيناه، تطلعت إلى

حيث تطلع الغزي المجنون، إلى أبي الذي أسقط في يده وهو يراقب تطور الموقف ببلاهة. قال الغُزّي: "كم معك؟ أستطيع أن أذبحه بدرهم". "ليس لدي أي نقود أيها الأخ الكريم". "في هذه الحالة سأضطر إلى ذبحكما معاً". مرّت اللحظات ثقيلة مجنونة، مهرج مستهتر يجد هذه المفارقة مضحكة، وربما أضحكت كل معسكر الجنود الهمجيين: "ذبحتُ ولده كرمى لوجه الله... الأب مسكين وفقير...لا بد أن ترأف بحال الفقراء..". "هاااااااه؟"... قال المهرج وهو يدفع حدَّ السيف في عنقي. وترقرقت دمعةٌ مُعذبة في عيني أبي. "هاااه؟". قال الغُزيُ مكشراً ومهدداً. فتدخل الغزي الأهتم ببرود: "هيا أيها الرجل... هات ما معك". رفع أبي عندئذٍ ذراعيه بتوسل فهطلت دمعتيه وغصَّ بهما وهو يقول: "أقسم بالله العظيم ليس لدي قطعة نقود واحدة أيها الأخ الرحيم...". "لا تكذب". نبر الغزي الذي تطوع لذبحي، وهو يشدني إلى حد السيف. تردد أبي قبل أن تسعفه قدرته الفطرية المدهشة على المراوغة والتملص، قال: "كان لدي دريهمات... أخذها أول فارس صادفني".

تأمله الأهتم بعين مرتابة وطال صمته. قال أخيراً متوجهاً بابتسامته ذات الثغرة إلى المهرج: "يبدو أنك ستعود إلى أمك يا إياز خالي الوفاض من أي مغنم أو مفخرة... هذا الجرذ ليس لديه مال، ولا فخر بقتله". ضحك الجميع وجاء دور الشاب ذو القوة البشعة ليقترح حلاً، قال: "إياز... على سبيل التعويض...انكح الولد!". ويبدو أنّ فكرة نكاحي بحالتي تلك قززت إياز فدفعني بعيداً بقرف: "حتى أنه غير صالحٍ للنكاح!". وامتطى فرسه شاتماً، ثم شدّوا أعنّة خيولهم وغربوا يرطنون ويسخرون ويضحكون، مخلفين سحابة من الغبار.

ثم وصلت القافلة الكبيرة التي يسعها الطريق بالكاد، مرّت أخفاف الجمال البختكية قرب قدميّ الممدودتين بعجز إلى الأمام. لم أجرؤ على رفع ناظري إلى راكبيها. وعندما ابتعدت أصواتهم وقعقعة سلاحهم، تطلعت إلى أبي... كان وجهه بالغ الصفرة، فقد حطَّت عليه طبقة كثيفة من الغبار الناعم. خلع عمامته ومسح وجهي برهافة وحنان كأنه يعتذر. ثم قرفص إلى جانبي وراح يمسح

وجهه متطلعاً بلا تركيز إلى الشمال.

مرَّ الوقت فارغاً مجوفاً، كنت أمدُ ساقي بانفراج إلى الأمام مثل مغتصبة ذليلة، يراقبني أبي خلسة. كنت أدرك ما يساوره من قلق وخوف، لمست ساقي وقفزت واقفاً بنشاط، قلت له بابتسامة: "ألن نواصل المسير؟! " بحيورٍ لا نظير له أجاب على كل أسئلتي، بحماس اطلعني على أشياء لم أسأله عنها، ولما كان الموضوع مثيراً فقد بحّ صوته مرّة أخرى.

السر... السر الخطير الذي أطلعني عليه، يتعلق بجمعية أنشأها من أسماهم مجلس الحكماء، وهم مجموعة من علماء الفرس ونوابغهم في شتى المجالات، أخذوا على عاتقهم حفظ روح أمتهم من الضياع إلى حين يأذن الرب من خلال روحانيِّ الكواكب بعودة دولتها مرّة أخرى، من خلال حفظ الدين الروحاني، الذي فهمت أنّه خلاصة ما جاء به كيومرث ونوح وإبراهيم وزراداشت وماني وهرمس ومزدك وديصان ورزام والصائبة وسواهم، من أصحاب المذاهب الروحانية التي تراكمت عناصرها عصراً بعد آخر لتشكل رسالة شعبنا ودوره وفعله في عالم الكون والفساد.

أخبرني أيضاً أنّ هذه الجمعية يدير شؤونها أربعة كما يدير يزدان العالم بأربعة قوى وكما يدير خسرو العالم السفلي بأربعة وزراء يرأسهم موبذ موبذان، أي أحكم الحكماء، منتقون من أربعين، والأربعون منتقون من أربعمائة، والأربعمائة منتقون من أربعة آلاف من المؤمنين التائبين المخلصين. وكلما مضى شخص من الأربعة قام في رتبته شخص من الأربعين. وإذا مضى شخص من الأربعين قام في رتبته شخص من الأربعمائة، وإذا مضى شخص من الأربعمائة، ارتقى إلى منزلته شخص من الأربعة آلاف، وكلما مضى شخص من الأربعة آلاف ارتقى بدلاً منه واحد من المؤمنين التائبين المخلصين، فبلغ درجته وقام مقامه. وتحت هذه المراتب الأربعة عدد هائل من الأنصار.

❖❖❖

١٣

الربّان الصقلي الرائع، ولعله كان يونانياً، كان مهووساً بالمغامرات والعجائب. يتحدث باستثارة طفل، عن الأنواء التي صادفته، والحيتان التي حاولت قلب سفينته، والقراصنة الذين أفلت منهم، وحوريات بحر أخذت نايا تهن زملاءه إلى حتفهم على صخور مسننة... كان في الخمسين، يكبرني بخمس سنوات، ولولا تلك التكشيرة العنيفة على وجهه وهو يتكلم، والتي اكتسبها من تلقيه الدائم للفحات الشمس ودفقات الهواء البحري، لكان سيبدو مثل أكبر أبنائي.

منذ البداية لفت نظره المبالغة في الحراسة والتوتر اللذين رافقا صعودي إلى سفينته ما إن رست في الإسكندرية، حيث أمره حاكمها بأن يوالي إبحاره فوراً بعد أن أصعدني إلى سطحها ونفحه مبلغاً كبيراً من المال. راح يحوم حولي ويتقرب مني بحكاياته العجيبة وخرافاته المشوقة. سائلاً إياي في كل مرة إن لم تكن قصته تلك فريدة ومذهلة، فأهزُّ رأسي مبتسماً بصمت يحمل أكثر من معنى، يخمن أن بعضها سيء، فيصمت محرجاً.

الحقيقة أني لا أقوى على الكلام. أشعر أني سأتقيأ أمعائي إن فتحت فمي. أشعر بالغثيان والوحشة والضياع. فها أنا مرة أخرى أبدأ من جديد... ها أنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل. وها هي أقداري تأخذني إلى أبعد الأماكن عن

التوقع، إلى حافة العالم الغربية.

ها أنا أغادر مصر، بعد ثلاث سنوات من وصولي إليها، والتشرد بعيداً عن موطني وأهلي... آه كم اشتاق لأهلي، ولديَّ؛ حسين الذي لم أره مذ كان قطعة لحم طريَّة.. ومحمد الذي لم أره أبداً، أمي.. كم كنت قاسياً عليك يا أمي، وكم آمل أن أجدك حيَّة حين أعود. ودغدويه المحبَّة، وفاطمة.. يا!!!!!!! فاطمة التي لم أعانقها، ولم أرها، منذ عشرين سنة.. يا فاطمة الحبيبة، كم أخاف أن أموت قبل أن أعانقك يا حبيبتي... يا فاطمة حين أعود.. أحقاً أعود؟!.

صرتُ أعرف أنني بعد كل سقوطٍ أحتاج إلى زمنٍ -صار يطول شيئاً فشيئاً- لكي اكتسب التوازن والقوة مجدداً، وتشفى رضوضي الخفية، ثم ما ألبث أن أنطلق في محاولة جديدة... ولكن متى؟...متى تنجح إحدى تلك المحاولات؟ أم أن احدى سقطاتي ستكون بلا غد؟ أتكون هذه؟!.

أخيراً غلبه فضوله فسألني: "ما حكايتك؟!". "كم من الوقت يحتاجه المرء للتأقلم مع الإبحار؟". رددت على سؤاله بسؤال وأنا أحرص على إغلاق فمي جيداً غبَّ كل كلمة خشية التقيؤ في وجهه. قال مطمئناً أن ذلك لن يطول... وكنت أسأل نفسي "متى أقوم من هذه السقطة؟ يبدو الوقت المتاح لي هذه المرَّة قصيراً. ومع هذا الغثيان يبدو الأمر أكثر صعوبةً". "إلى حينٍ فقط.. إلى حين". كانت نفسي تجيبني بثقة. وعاد الربان يتفحصني بفضول.

بدلاً من أن أجيبه دخلت معه في نقاش مطول حول الاتجاهات. كان بارعاً في علم النجوم مثل أي ربان. لكن تفوقي عليه في هذا الباب كان كاسحاً، وأعترف لي بذلك مندهشاً. "إنها دهشة أولى أيها البحار الطفل... ماذا لو أني أستطع أن أخبرك بما تصبو إليه.. حكايتي... جزؤها الأخير الذي يفوق كل حكاياتك إثارة وحقيقية... ماذا ستقول لو حدثتك عن الحشاشيّن المسكينين اللذين نقلتهما إلى القاهرة غائبين عن الوعي، وأنزلتهما في مسكن مستأجر يقع على أضعف نقطة من المسار اليومي لموكب الجمالي وولده، من قصرهما إلى

قصر الإمام، ثم سقيتهما اللعوق المركز وأطلقتهما على الرجلين بخنجرين مسمومين... هل ستنفجر ضاحكاً حين أصف لك كيف استولى عليهما الرعب حين تصدى لهما الحراس ووليا الأدبار. أم أنك ستنظر نحوي بكراهية وتقزز عندما تعلم أن أولهما قُتل حالاً، وأن الآخر تخوزق لاحقاً... بعد أن أدلى بمعلومات مشوشة عن خطته ورفيقه لتخليص الإسكندرية من ابن عمار وأفتكين بالتعاون مع عالمٍ انطبقت أوصافه عليَّ لكن اسمه؟..لحسن الحظ كان يجهله. وبالطبع عجز عن تحديد المزرعة التي تم إعداده فيها. ولولا ذلك ما تردد الجمالي في اجتياح الإسكندرية وتمزيقي إرباً. ولما رضي بهذا الحل الذي تدخل المستنصر بكامل ثقله كإمام ليفرضه، رافضاً تضييع استقرار الدولة مجدداً بين جنون الجمالي وعناد الأمير نزار الذي استبسل في الدفاع عن عنقي. كيف استطيع أن أخبرك أيها الربان أن نفيي إلى شمال أفريقيا الذي قرره الخليفة كي لا أقع في قبضة السلاجقة في الشرق، قد قبله الجمالي لأنه يبقيني في مرمى خناجره وسمومه... ولا أستبعد أن يطاولني في هذا البحر، أو في أول ميناء نرسو فيه، أو في المدينة التي سأقطنها... كيف أخبرك أيها البحار اللطيف أني رجلٌ محكوم بالموت الذي لن أنجو منه ما لم أتحرك، ما لم افعل شيئاً في أسرع وقت، اليوم، أو غداً أو بعده على أبعد تقدير...". "تبدو عالماً فاضلاً". يقول الربَّان. أتمادى في الترفع القانط، مع فواصل من الصمت. يرنو إليَّ بتوسل، ويكاد الفضول يقتله.

"وما بلادي؟ أيُّ مستقرٍ ذاك؟ قد يكون وضعي هنا أفضل. كنت في وطني بلا وطن أحن أو أحلم بالرجوع إليه، وفعل شيء على أرضه...".

يقوم الربان إلى حاجز السفينة ليفحص الأمواج، وملتقى السماء والأرض. يسألني مولياً ظهره لي: "ما الفرق بين الصحراء والبحر؟". أجيبه وأنا مشغول حتى الذهول بمصيري... تلمع عينا الربان، فأجد سبيلي: "الصحراء خلاء شبيه بالبحر. ملغزة وغامضة مثله، لكنها أكثر بلادة. لا تتوقع أن تنشق صفحتها فجأة عن جنية بحر... أو حوت حتى...". "لكن لا حيتان ولا جنيات

في البحر. أقصد.. لم أرها منذ زمان بعيد..". يستدرك خجلاً وحزيناً. ثم يستأنف: "لكن الصحراء ثبات... الثابت ليس كالمائج. هنالك الأشياء حقيقية... أليس كذلك؟!" .. "أجل أيها الربان الطفل... أجل منحتني درب الخلاص... الثابت ليس كالمائج... وهو بالتأكيد أقوى من العابر... أظن أن هذا ما أحتاجه... سأفكر في ذلك ملياً فيما بعد، وأرى كيف يمكنني أن أحول العبارة إلى فعلٍ قوي... والآن إليك ما تريد ... وما أريده أنا".

البحار الصقلي لمعت عيناه واتسعت حدقتاه دهشة عندما حدثته عن البوادي الشاسعة، عن المدن والقرى المنعزلة، وعن الغابات والبساتين والجبال... بل أن البيوت كما وصفتها بدت له شيئاً خارقاً... وبعد أربعة أيام من الإبحار المُغثي أدركت سر ذلك... إنه البحر ببساطته وعمقه، بترامية وسواده، بخلائه وتلهفه لأي جديد يلوح على الخط الفاصل بين السماء والماء، سواءً أكان منارة أو سفينة قراصنة أو زعنفة حوت عملاق... أو حتى مجرد صوت، صوت ناي ساحر إلى حد القتل.

في اليوم الخامس حدثته بقصتي، وشيت الحكاية التي لم يستغرق اختراعها أكثر من ساعة، بمشاهد حقيقية مما عشت ورأيت وسمعت. الربان الذي قبع مفتوناً أسفل قدمي طوال النهار، آله على نحوٍ خاص كنزي الذي تركته مدفوناً عند شاطئ عكا!... "خاصة ذلك الكتاب النادر في علم السحر!". ثم تركته لنفسه، لشيطانه، ومضيت إلى قمرتي الصغيرة لأغفو بارتاح. عند منتصف الليل جاء حاملاً شمعة صغيرة جداً. قال بدهشته الطفولية: "وجدت حلاً!".

مهتدياً بنجم الكلب الأكبر، قاد الصقلي سفينته بعنفٍ، ملتفاً حول مسارها، معانداً الريح والظلام، وعائداً إلى شاطئ المتوسط الشرقي. في الصباح أخبر الركاب الذين لا يتجاوز عددهم الثلاثين أنه مضطر لاستباق عاصفة ربيعية مدمرة، تلوح في الأفق، والفرار منها شرقاً. بدا مجنوناً وهو يخبرهم بذلك، لكنه كان يبدو مجنوناً على الدوام، لذلك لم يخامر الركاب شك في صدقه.

على مدى الأيام القادمة التي ستتأرجح فيها السفينة بشدة بسبب الريح غير المواتية، والتي سأقضيها في قمرتي التي لجأتُ إليها هارباً من وحشة عرض البحر، دائخاً أعاني إسهالاً فموياً هذه المرة، سيأتي الصقلي كل ساعة بخبر جديد وخطة أخرى للإيغال شرقاً. "سنقيم في قرية الموتى ثلاثة أيام... أودُ أن أتعرف على جنية... صلعاء صلعاء! المهم أنها جنية من... من أي مادة هم الجن؟!". وما إلى ذلك من الهواجس والأحلام والقرارات الحازمة بأن يهبط من بحره ويجرب حظَّه على برِّ الشرقيين الساحر.. "سنخوض أجمل المغامرات". يقول بتأكيد ساذج. ويعدد مدناً ساحرة. "ما أدراك أنها ساحرة؟!". "أسماؤها!..اسمع الرنين.. أصفهان.. شيراز.. كربلا..سمرقند.. نهاوند...نيسابور.. بغداد..سيراف...الرُها..". ويموج البحر تحتي، وأتقيأ أمعائي وقدرتي على التحمل، فأقسم بيني وبين نفسي أن أملك مكاناً صلباً، أنعم فيه بسكينة وثبات، لا يزعزعهما سلطان، ولا يقلقلهما مجنون، ويعجز العالم كله عن انتزاعه مني.

عندما أخبرني ذات صباح أننا صرنا على مبعدة أقل من نهار وليلة عن شواطئ عكا، استخرجت ملء كأسٍ من المقند الكثيف الممزوج بالحشيش، وأحكمت إغلاق الكيس على كتبي وأشيائي، وربطت كيس النقود الثقيل إلى حزام الكوستي تحت ثيابي، وكيساً آخر من الجلد، أودعته ثروتي المصرية: كمية كبيرة من بذور الخشخاش المنتخبة، المبططة السوداء والبنية. عند هبوط الظلام وهجوع الركاب المنهكين، ودعت الكائن الوحيد الذي شاركني المكوث في جوف السفينة، الحصان العربي المتطير، الذي كان يراقبني طوال الوقت، بنظرة احتراس حيواني متوجسة. وصعدت إلى السطح.

كان الربان الصقلي بدوره في منتهى الإنهاك، واستجمع كل قوته ليلوح لي بذراعيه مستبشراً. احتضنني وأشار إلى نقطة ضوء واهنة تظهر وتختفي عند خط الأفق. قال: "منارة عكا". ناولته كأس المقند، وأخبرته بأنه مقوٍ عظيم الفائدة. لعقه بأصبعيه وهو يرنو إلى الأفق غارقاً في أوهامه. فيما رحتُ أتجول

على السطح باحثاً عن قارب النجاة الصغير.

كنا نركب المدّ، ونبحر بقوته نحو الشاطئ، كان آخر ما تحدثت به مع الصقلي هو تشكيل شاطئ عكا وموقع كنزي منه. قال أن جنوب الميناء صخور هائلة. قلت: "للأسف، كنزي هناك". "سنبحر إليه مباشرة". "وماذا عن الصخور؟". "سنقفز فوقها". "بالسفينة؟!". "طبعاً أيها الساحر الشرقي...".

قبل أن يقفز منتشياً بالمقنَّد القوي "فوق الصخور"، كنت قد قفزت إلى القارب الصغير وأسلمته للمدّ ليجرفه بنعومة نحو الشاطئ الذي بلغته عند انبلاج الفجر. قلبت القارب وأغرقته في البحر، وتبولت على جرحٍ سطحي أسفل فخذي. ثم شرعت دون إبطاء في تسلق التلال الرملية المشرفة على البحر متوجهاً إلى الخان الذي بظاهر المدينة، وكنت أقمت فيه عندما قدمت إلى مصر بصفة تاجر، دون أن ألتفت مرة واحدة إلى البحر، ذلك الضريح المفتوح، لأستبين مصير السفينة، التي أجزم أنها تطايرت ألواحاً على الصخور المسننة، وأن ربانها الصقلي لن يفيق أبداً من حلمه الشرقي، بحوريات البوادي البعيدة، بعد أن يئس من الالتقاء بحوريته البحرية التي تستدرجه بعزفها الساحر إلى خليج بِكر، هبط من الفردوس، لتتزوجه.

١٤

تطلعت إلى النجوم حيث الروحانيين مدبرو الهياكل يحلقون في أفلاكهم، وبعد أن استمتعت بمنظر النار ومشهد خلاص روح الحطب من مادته، وتحولها إلى نورٍ لطيف. سألته: "أبي... في أي مرتبة من مراتب الجمعية أنت؟". تبسم وجهه الناري، قال: "رفعتُ مؤخَّراً لرتبة الأربعمائة". ملأني الفرح والغرور، يا الله، أبي واحد من أربعمائة أفضل فارسي، بل وأفضل أربعمائة حيّ على وجه هذه الأرض!. أردت أن أسأله عن كيفية بلوغه هذه المكانة المرتفعة، لكني ارتأيت تأجيل ذلك وسألته عما أتوق الى معرفته أكثر قلت: "فأنت تعرف إذن متى تقوم دولتنا مجدداً؟".

تنهد ليقول: "الحقيقة يا حسن أني لا أعرف تماماً، أسرار الحكمة تتكشف كما تكشفت لك اليوم، لكنها لا تنتهي ولا تتكشف نهائياً إلا في المراتب العليا، مرتبة الحكماء الأربعة. هؤلاء لديهم علم أكثر الأشياء خطورة، لمعرفتهم تواقيت القرانات الكبرى والصغرى. نحن في جميع المراحل يا بني نعمل على القاعدة التي حددها لنا أحد الحكماء السالفين وعاهل الفرس في حينها أزدشير الذي قال في وصيته: الملك والدين توأمان، لا قوام لأحدهما إلا بالآخر، فالدين أسُ الملك، والملك حارسه، فما لا أسَّ له مهدوم، وما لا حافظ له ضائع. ولربما كانت هناك أسرار فيما وراء ذلك وأعمال جليلة وكشوف باهرة، فإن أردت معرفتها فما عليك سوى الاجتهاد والإخلاص والتفاني، فإنك بالغ مرحلة الأربعين والأربعة

وربما مرحلة الموبذ موبذان ذاتها، فلا شيء يحول بينك وبينها سوى رذيلة الكسل ودنس الشهوات".

طاف في خيالي لحظتها مراحل العمل وتفاصيله، تخيلته عالم من الأسرار والغموض، سفر ولقاءات، رجالٌ وشبّانٌ لا أعرفهم ولم أرهم سابقاً، ألتقي وإياهم على معتقدٍ خطير، ونسعى سوياً وخفية إلى غاية عظمى: بناء دولة، وملك وسلطان. وفي الطريق نسقط دولاً وملوكاً وسادة... ساحرٌ لاح ذاك الدرب، خلابة هي المغامرة العظمى الجماعية، مغوٍ وفتّان درب الخلاص الذي أشعر بأني في تلك اللحظة قادرٌ على قطعه بثقة هائلة بالنفس، تسمو على كل خوف وقلق ورهبة. لم يعد العرب ذلك المعدن الفريد الذي اختاره الله ليحمل كلمته الأخيرة إلى البشرية، لم يعد الإسلام فصل الكلام، لم يعد للترك، أي هالة أو هيبة.

فجأةً ابتسم علي الصباح، تناول جعبة كتبه التي لم أعرف بعد ماذا تحوي. أخرجها من بيتها الذي حشرت فيه بصعوبة. كانت أربعة مجلدات مغلفة بالجلد العتيق، وضعها فوق الجراب الخالي منضدة، أفرد كفَّه فوقها كأنه يريد أن يقسم. قال محدقاً في بؤبؤي عيني: "عندما أطبق الظلمانيون العرب على روح هذا العالم، يريدون إطفاء شمعته متمثلة بعقائدنا وحكمتنا التي تراكمت على امتداد آلاف السنوات، وعندما حرم اللسان والحرف الفارسي، خشي حكماؤنا أن تندثر بعض علومنا، فلجأوا إلى حيلة ذكية يحافظون بها على تراثنا بمأمن عن كل أذى أو تهديد، وعكفوا على وضع هذا المصنف العظيم الذي دعوه رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، أي رسائل من صفت نفوسهم النورانية وبقوا على الوفاء للعهد الأزلي ليزدان الرب. هذه الموسوعة الضخمة تتضمن عقائدنا وحكمتنا الروحية، وشطراً كبيراً من المعرفة العقلية اليونانية، التي لا يحصل الخلاص الكامل إلا باجتماعهما. ولكي لا يناصب العرب هذا المصنف العداء، ولا يَعدمه المسلمون، فقد صاغوه ملفعاً بالرموز والمعميات والشعارات الإسلامية المحمولة على عدَّة أوجه، ظاهره رفع العرب فوق الأمم ليفهم أن

واضعيه منهم، وأنّ غايتهم الحرص على مصلحتهم وحفظ شريعتهم. ثم بثوا هذا المؤلف بين الوراقين ودعموه ووهبوه أو باعوه بأرخص الأثمان، ليبقى في طول بلادنا وعرضها، كالجمرة المصونة التي لا تخبو جذوتها تحت الرماد ... وفي هذا المؤلف أسرار وألغاز لا تنتهي، تبدأ من مؤلفيه الذين كتمت أسماؤهم، وتنتهي في لغز الرسالة الثالثة والخمسين، فالرسائل كما هي مصنفة في هذا السفر هي اثنتان وخمسون رسالة، لكن فهرسها يقول إنها اثنتان وخمسون رسالة ورسالة، لكننا في كل النسخ المعروضة في هذا السفر لا نجد تلك الرسالة، ونجد فقط اثنتان وخمسون، فأين هي الرسالة الثالثة والخمسون؟. إن هذا السر الأخير، الرسالة الثالثة والخمسين، يحدد ما يجب عليك فعله خلال العقدين أو الثلاثة القادمات من حياتك. فالرسالة اللغز مبثوثة بين الرسائل الأخريات. وهي كما تقول عنها الرسائل ذاتها: منتهى الغرض منها وأقصى المدى ونهاية القصد وغاية المراد ... الرسالة الثالثة والخمسون هي رسالة أمتنا الخالدة على مدى الدهر. وقد دُسّت بين السطور وكلمات الرسائل الأخرى بحذاقة الصائغ ودقّة الجواهرجي، شذرات ورموز وملغزات لا يقف على كنهها ولا يحيط بحقائقها ولا يحصلها ولا شيئاً منها إلا من ارتاض وحذق وعرف وتدرب وتمهر ببقية الرسائل أو بما شاكلها".

تناول المجلد الثاني، فتحه فإذا ريشة طاووس جميلة تقف في مفرق إحدى الصفحات الصفراء، نظر في تلك الصفحة لحظة ثم تطلع إلي قائلاً: "سأمنحك المفتاح... المثال والأنموذج الذي ينبغي أن تسير عليه لتستخرج رسالة شعبك من بين هذه المئات من الصفحات... هنا في الجزء الثاني ثمة قصة ومحاورة بين زعماء الأنس والجنّ والحيوان والطير وسواها، وهم يختلفون حول المسائل الكبرى في هذا العالم، ولكن الحوارية تختتم بما يقوله الإنسان الكامل، أعلى المخلوقات مكانة وقدرة وسمو صفات، ما تقول الرسائل عنه؟". وراح يقرأ: "العالم الخبير، الفاضل الذكي، المستبصر، الفارسي النسبة، العربي الدين الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي

النسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السيرة، الملكي الأخلاق، الرباني الرأي، الإلهي المعارف، الصمداني". أغلق الكتاب ليقول: "ليكن للإنسان الكامل ما يكون م الصفات، لكنه لن يكون إلا فارسي الأصل والمحتد، وهذا يشطر الخلائق إلى شطرين فارسي يستطيع أن يكون أي شيء، وغير فارسي... عبارة بلا معنى، وماهية لا تنمو، مثل بصقةٍ من البلغم".

في اليوم التالي كان أول من صادفنا فارسان عجلان على حصانين بالحجم الطبيعي، حين اقتربا منا بديا أنيسين، ولسانهما فارسي متسق. حيانا الكهل منهما وسألنا عن سبب قطعنا الطريق مشياً على الأقدام. والدي الذي لم يتخل عن حذره أجاب متضائلاً بقوله: "وكيف يسافر فقيران أيّها الأخ الكريم؟". ثم سألنا عن وجهتنا، فأخبره والدي أننا نقصد نيسابور للعمل، بعد أن شحت الأعمال في الريّ التي يستعد طغرلبك للانطلاق منها في هجوم جديد ربما كان نحو اصفهان أو همذان. تكلم عندئذ الفارس الشاب ماداً عنقه بعينه الشزراء إلى الأمام: "وربما بغداد..؟!". فخفض أبي وجهه متحفظاً، وظللت أنظر إلى الفارسين بخوف. تبسم الشاب ودسّ كفه في خرج حصانه، أخرج قبضة من الزبيب الأسود ودعاني: "اقترب أيها الفتى الشجاع...هذا زبيب سمرقندي لم تذق مثله دهرك..". تطلعت إلى أبي مستفتياً فأجاز لي أخذ الزبيب بعينيه. سكب الشاب ما في قبضته. قال انتظر، وصبّ لي قبضة أخرى. سألنا الكهل فيما إذا كنا نحتاج إلى الماء أو الطعام، نفى أبي ممتناً. ورجا لهما السلامة. شدا أعنّة حصانيهما وغربا. حين ابتعدا هزّ أبي رأسه بأسف. قال: "بويهيان ولا شك..". استأنفنا المسير. روى أبي قصة صعود آل بويه، الفرس الأقحاح من جبال الديلم، الذين كانوا على صلة وثيقة بمجلس الحكماء، وهؤلاء أنبأوهم بأن دولتهم تقوم في ظل دولة بني العباس، وتعمّر ما يقارب المائة عام، ثم يسقطها الأبالسة الشعث على الخيول الواطئة. ولم يستغرق الأمر سوى بضع سنوات بعد ظهور دولتهم ووصول سلطانهم إلى واسط حتى استنجد بهم الخليفة العباسي المستكفي بالله لينقذوا دولة الخلافة والخليفة ذاته بعد أن حاصره العامة في

قصره يريدون انتهابه. فكر حينها السلطان أحمد بن بويه بإزالة الخلافة العربية وإعادة دولتنا، لكن الحكماء نهوه عن ذلك، فالقران ما زال معقوداً للعرب، ونصحوه بتهيئة أمتنا وانتظار القران الفلكي المناسب. عمل ابن بويه النصيحة، فأبقى اسم الخلافة للعباسي وانفرد بالسلطة تحت لقب أمير الأمراء. وفي عهد خلفائه من بني بويه المطيعين لحكمائهم تمكن هؤلاء من انجاز هذا السفر العظيم المسمى رسائل إخوان الصفاء سراً. وضمنوه جميع عقائدنا". نفث أبي بحرقة. قال: "ها قد انقضت الأعوام المائة.. ستسقط دولتهم".

وفي عصر اليوم ذاته سلكنا طريقاً يفترق عن طريق نيسابور، وأوغلنا جنوباً وراء علامات يعرفها والدي. وصلنا قبل الغروب إلى وادٍ شقّت أديمه مساكب الأمطار حتى بان عظمه العاجي. هبطنا إلى قعر الوادي المفروش بالحصى وحطام الصخور الكلسية البيضاء، حتى بلغنا مكاناً يسيل منه على مهل نبع لم أر في حياتي أصغر منه، تسيل ماؤه حوالي خمسة عشر خطوة. طاف أبي باحترام شديد حوله متفحصاً، وتذوق ماءه قبل أن يأذن لي بفعل ذلك أيضاً. شربت أضعاف ما شرب، كان الماء الذي يسيل بلا تدفق فاتراً، لكنه حلو المذاق إلى درجة لا تصدق. ثم صعدنا إلى كتف الوادي بعيداً عن النبيع الذي ترتاده الضواري ليلاً. وضعنا حملينا الصغيرين، وجلنا في المكان نجمع الحطب، وأوصاني أبي بضرورة أن يكون بالغ الجفاف. تذكرت عندئذٍ الركن الذي يُجففُ فيه الحطب في فناء بيتنا واهتمامه الخاص بتلك الأخشاب المفصولة عن حطب موقدنا، والتي يوقد منها ناره كل صباح ومساء. وتذكرت الديك الذي قفز مرة إلى تلك الأخشاب وذرق فوقها، حينها نالت أمي واحدة من أعنف ضرباته.

حين لامست الشمس خط الأفق الغربي وضع أبي كدأبه طوال الرحلة حجراً وتربع أمامه مترقباً الضوء الورسي للغروب. حين كاد اللون المصفر يتلاشى تماماً، ركع وقبّل الحجر بتبجيل عظيم... حين رفع وجهه المحتقن، التفت إلي قائلاً: "منذ الآن عليك أن تقبل أول وآخر حجر تقع عليه عين يزدان". أوقدنا النار وردد أمامها صلاته بصوت مسموع. ميزت لأول مرة كلماته

وتراتيله الغامضة. صارت أصواتاً واضحة وكلمات صريحة: "أعلن وأنفذ هذه العبادة والتبجيل والتقديس للخالق يزدان، الساطع المجيد، الأعظم والأفضل، والأكثر جلاء وثباتاً، الأحكم، أعظم الأشياء كمالاً، الذي يدرك غاياته، والأكثر عصمة عن الخطأ لأنه يملك الحقيقة والعدل والنظام، أعلن هذا للذي يرتب عقولنا على نحو صحيح، الذي خلقنا، وغذّانا، وحمانا، وهو الروح الأكثر وجوداً".

في الوقت المتبقي شرح لي خطوات الطقوس التي سنجريها عند فجر ذلك اليوم، وكررتها معه عدة مرات. وعندما غفوت رأيت في الحلم طرفاً من تلك الطقوس وسمعت مجدداً الأسماء الغريبة التي اسمعها لأول مرة: سبيتا – ارمايتي... فاهو مانو... أميرتات...

ثم أشرق ذلك الفجر المميز، فجر ارتداء حزامي المقدس، الكوستي. استيقظت عندما كان أبي يجثو أمام حجرٍ أبيض متجهاً صوب المشرق، منتظراً عين الرب يزدان، وعندما اشرقت انحنى وقبّل الحجر. ردَّد ابتهالاته وترانيمه. عندما انتهى، التفت ليوقظني، وجدني منتصباً إلى جانبه. حملنا متاعنا والعيدان وهبطنا إلى حيث النبع. حفر أبي ستة أخاديد متتالية بعمق إصبعين.. ربط كوباً نحاسياً بعصا قصيرة ذات تسع عقد وطلب إلي أن أخلع ثيابي. ثم بدأ بغسلي، سكب الماء على يدي ثلاث مرات، ثم انتقلت إلى الحفرة الثانية... في الحفرة السادسة كنت أقف على أصابع قدمي أولاً ليغسل أخمصي وعقبي. ثم على عقبي ليرش الماء على أصابع قدمي. ثم وقفت على الحصى بمواجهة الشمس البازغة لأردد وراءه: "أعظم المجد والثناء للدين الحق، الكامل، القويم، الدين الذي أنزله الإله عن طريق رسوله زرادشت وخصَّنا به، دين الإله الذي بلَّغه زرادشت للناس". أكثر ما أذكر من تلك اللحظات هو أن نسمة رائعة منعشة تهاوت في الوادي، وتماوجت على بشرتي، مثل ثوب حريري ناعم، تلهو به الريح.

ناولني الثوب القطني الأبيض الجديد، ورحت أرتديه، فيما هو يتلو دعاء

التوبة، الذي يشير إلى الجيب الصغير في أعلى الثوب، حيث تطلب الصلاة مني أن أراقبه دائماً سائلاً نفسي: "أهو مملوء بالأعمال الصالحة أم الشريرة؟". ثم وقفنا أمام النار، وتلا أبي دعاء الاعتراف بيزدان ربّاً، وروح زرادشت الحيَّة، الناطقة باسمه. في المرحلة الأخيرة وقفت مستقبلاً الشمس الصاعدة من الشرق وأخرج أبي الحزام الذي لم أره قبلاً، والمصنوع من اثنين وسبعين خيطاً من صوف الغنم الأبيض، بعدد أسماء يزدان المقدسة، لفّه على خصري ثلاث مرات، كل واحدة ترمز إلى ركن من أركان الدين الثلاثة: الفكر الطيب، القول الطيب، العمل الطيب.

ثم رددت دعاء تقلد قيد العبودية ذاك للرب يزدان، الذي سيطوقني طوال حياتي: "أتوسل إليك ربي أن تمد يدّ المساعدة إلى شخصي الضعيف، أحمدك ربِّي واثني عليك لما وهبت لي من فكر طيب، وقول طيب، وعمل طيب... الرفعة والخلود لدين الإله، دين زرادشت..".

١٥

كالنوم في ليلة صيفية خرساء، مرَّت تلك الأشهر الطويلة من المشي المتواصل. بلا كوابيس، بلا أرق، بلا مرض، بلا هواجس، قطعت المسافة من شاطئ المتوسط الشرقي إلى فارس، مستغرقاً حتى الذهول في تفاصيل ما سأقدم عليه. وحين أشرفت على كرمنشاه قرب حدودنا الغربية، بلحيتي الطويلة جداً، وثيابي الأكثر بلى من ثياب أشد الدراويش زهداً، وببطني الملتصقة بظهري كبطن أبي، حينها لم يكن قد تبقى معي مما جلبته من مصر، سوى كيس بذور الخشخاش، والمقنَّد وبعض أوراق الحشيش، ورقعة كبيرة دونت عليها بالرموز ما سأفعله حين أعود خطوة خطوة، وبدقة زمنية محسوبة اعتباراً من هذه السنة١٠٨١م، وصولاً إلى القران الفلكي الذي تفصلنا عنه خمسة عشر سنة.

ليست الخطوة الأولى أن أذهب إلى الريِّ فأستطلع أخبار أهلي. بل أن أتوجه إلى التخوم الغربية لدشت "صحراء" كافر القاحلة، المكان الذي حطَّت فيه اللعنة حين هبطت على الأرض، تحديداً إلى لسان ضيق وممتد إلى الشرق من يزد، حيث جبل صغير يدعى جبل الثعابين، يكاد يكون خلواً من أي نوع من أنواع الحياة، باستثناء أعداد هائلة من الأفاعي التي يشاع أن التعرض لبعضها بالنظر وحده قمينٌ بقتل الرائي، وجعلت الجبل مكاناً مهجوراً ومجهولاً ومنسياً لفرط

تحاشي الناس له. فقد قررت أن أضع هناك خطوتي الأولى.

في السنتين اللتين أمضيتهما في ريف الاسكندرية، وجرياً على عادتي بنبش العلوم الغامضة، عقدت صداقة مع حاوٍ مصري خمسيني، يعيش عيشة رغدة في البلدة. كان الرجل بالتأكيد خَلَفَ واحدٍ من السحرة الذين تحدوا موسى بأفاعيهم. وكانت له شهرة كبيرة في الإسكندرية وما جاورها، فلا أفعى ولا ثعبان "يعصى" عليه، وهو من هذه الناحية يُعامل كولي من أولياء الله. بالرشوة دخلت أسراره ومنزله الذي يعج بعدد هائل من الأفاعي المتنوعة المرعبة حقاً. كان يلتقطها بيديه العاريتين من أي مكان تذكر فيه، ويسافر أحياناً إلى خربات ومفاوز بعيدة ليجلب أنواعاً جديدة منها. وفي غيابه كانت زوجته تقوم على رعاية "أولاده"، الذين ينطلقون نحوه ما أن يدخل المنزل ويلتفون بشوق على جسده وعنقه ويلتقطون بياض البيض المسلوق من على طرف لسانه، ويشربون الماء العذب من كفّه. أخذني أكثر من مرة لالتقاط أفاع "غريبة"، وعلمني طرق تدجينها من البداية إلى النهاية. لكني لم أتقدم كثيراً في هذا السبيل لأني رفضت التعري من كامل ثيابي، وهو الإجراء الأول لتصيد الأفعى، التي تخاف وتجبن إلى حد الشلل من منظر الإنسان العاري، وحين ذاك يلتقطها كما يلتقط قطعة حبل، وبقطعة قماش تعضها الأفعى ينتزع نابيها فتصبح بلا خطر. ثم يأتي التجويع والإطعام، ثم التسلية والمرح قرب النار التي يجلب منظرها أعظم البهجة إلى قلب الأفعى، فلا تلبث أن تستسلم لرغد العيش وتصبح أليفة، تحب سيدها وتطيعه كما يفعل أيُ كلب أو قط. وكان أهالي الإسكندرية يستدعون حنفي على مدار الساعة ليمنحوه مكافآت سخية لقاء استخراج أفعى أو ثعبان ظهر في بيوتهم أو زرائبهم أو متاجرهم، يكون في الحقيقة واحداً من "أبنائه" الذين يطلقهم "يسعون" وهو "يسعى" وراءهم. ومن أهم ما تعلمته منه كان قائمة بالغة السرية بالمواد التي تُنفر الثعابين وتطردها بعيداً، وعلى رأسها الزيت الشفاف الذي تفرزه الأرض من بعض شقوقها، وعَرق الخيل المعالج ببعض

الأدوية. وبحسب معلوماتي لم تكن المادتين معروفتين بتلك الخاصيَّة، لا في فارس ولا غيرها من بلاد المشرق.

كان جبل الثعابين حين وصلت إليه أواخر الصيف، أصفر موحشاً، لا دابة تدبُّ ولا طائر يطير. وحين تعريت وخطوت بحذر بين صخوره السوداء صعوداً وجدت نفسي فجأة بين أعداد هائلة من الأفاعي، بعريِّها العاهر، وانسيابها المميت، وتموجات ألوانها التي تذكر بسكرات الموت... تتوارى مثل الغواية... ثم تظهر مندفعة كالقدر... على نحو يذكر بـ"الشر وقد استفحل" كما تقول الأفستا.

عندما تنبهتْ لوجودي هناك هَدأتْ، وراحت تنظر إلى عريي بعيون ثابتة جامدة، بعد قليل راحت تبسط رؤوسها المفلطحة على الأرض بخنوع. خَفُتَ عندئذ وجيب قلبي، فالأفاعي هي الأفاعي، سواء أكانت في فارس أم في مصر، وتأكيداً لذلك أجريت اختبارات أكثر دقة، ووزعت كمية من البيض في ثلاث مجموعات، وضعت الأولى في وسط بقعة رششت حولها عرق الخيول المعالج بالأدوية، وقد حصلت عليه من عملي كفاسل للخيول في أحد خانات يزد. البقعة الأخرى رششت عليها زيت الأرض الذي استخرجته من واد قرب أرك. وتركت المجموعة الثالثة كما هي إلى جوارهما، وعدت أدراجي إلى الخان.

في النهار التالي لم أجرؤ على الاقتراب من البقعتين المعالجتين رغم عريِّي، كانت أعداد هائلة من الأفاعي المختلفة الألوان والأشكال، ترابط عند حدودهما دون أن تجرؤ أي واحدة منها على اقتحامها وتناول البيض. أما المجموعة الثالثة فلم أرَ لها أثراً. استخدمت المرشتين المملوءتين بالسائلين السحريين لشق الطريق بحذر أمام خطواتي، حتى انفتحت الدائرة حول بقعة عرق الخيل، فدخلتها ووقفت في المركز، عارياً تحدِّق نحوي عشرات الأفاعي الصحراوية الخبيثة، بخشوع ووجل.

لم أتلذَّذ بالنجاح يوماً كما تلذذت به في تلك البقعة، تحوطني كل تلك

الأفاعي المخيفة وهي تعلن عبوديتها وذلها بعيونها الثابتة الصاغرة. ساعات طويلة في قلب وكر الثعابين، أراقب بتركيز حاد، سلوك تلك الكائنات الغامضة، التي حولها سائل تافه هذا التحول العجيب. أعاين دهشاً شعوري الناشئ بالسيطرة والقوة، فليست مشاعر الآخرين نحو من يروض الأفاعي وحدها الغريبة، نظرته إلى نفسه أيضاً غريبة.

قمتُ بعد ذلك بعدة جولات في الجبل، أجريتُ خلالها مزيداً من التجارب، وتقربت أكثر فأكثر إلى عالم الأفاعي حتى ألفته تماماً. ثم انتقيت قمة مفلطحة لجبل صغير تكاد تكون أول بقعة تتلقي أشعة الشمس، وآخر ما تسقط عليه، لأقيم فوقها منزلي. رششت الطريق الخفيَّة المؤدية إليه بالسوائل الخاصة، ونفيت عدداً كبيراً من الحيات خارجها، وسويتها جيداً بفأس.

في اليوم التالي اكتريت بغلاً نقلت على ظهره خيمة صغيرة مرقعة، تليق بزاهد، ونصبتها في الأعلى. ثم آويت إلى فيئها لأعاين شعوراً فريداً آخر، بالثقة والرسوخ هذه المرَّة.

ومثل عالم، أو تاجر، أو مثل عالمٍ تاجر، أفردت الرقَّ الملغز وتناولت الريشة والدواة وشطبت هذا الواجب. وانتقلت إلى التالي: البحث عن خادم مخلص..."مريد". هكذا كتبتها، بين قوسين.

من الرائع والضروري أن يكون لك مريد إذا كنت مبشراً. فكما أن لا دعوة تنتشر دون ملاذ آمن، يستطيع معتنقيها أن يفروا إليه في أوقات الشدة، كذلك لا داع ينجح دون أن يكون له ذيل صغير، يتبعه كظلَّه، على هيئة مريد أعمى. فمن ناحية يأخذ المريد على عاتقه الهموم الصغيرة التي تهرق وقت سيده وتتشبث بتلابيبه، ويستر إسته... ويجذب المريد بفضل الخصلة الخلقية التي تربط البشر بقطيع الأغنام، أتباعاً أكثر بكثير مما تفعله خطب المبشر ودعاويه.

واجتذاب المريد الصغير،الذي يؤمن بك إيماناً مطلقاً، ويضع حياته بتصرفك ولا يبغى شيئاً سوى أن يكون تابعك، سهلٌ للغاية؛ يكفي أن تكون

مترعاً بالغرور، والإيمان بأنك تستحق تابعاً، لتناله. أما طرق التقاطه فتشبه الطرق التي يجني بها الكثير من التجار الجدد رأسمالهم؛ متباينة وشخصية، لكنها جميعاً غير نزيهة. كان يسعدني الحديث عن قصة كل واحدٍ من أتباعي، باستثناء شرف.

كنت أقطع المسافة المقفرة بين يزد وجبل الثعابين حين شاهدته يرعى قطيعاً هزيلاً من الأغنام، قادته إلى تلك البقعة التي يتجنبها الرعاة حذر الأفاعي. وما أن رأيت جمجمته المسطحة وجبهته الضيقة حتى أدركت أنه بلا إرادة أو خيال. وحين سمعت طرفاً من حديثه الهاذي مع نفسه أدركت انه مخبول وأبله...والتابع الذي أبحث عنه. بدأت بمنحه طعاماً كلما مررت من هناك، ثم بدأت أفحصه عن كثب بالحوار؛ كان يتيم الأبوين، يعمل راعٍ بأجر زهيد لدى أسرة متوسطة الحال تقطن قرية في الجوار. عمل في عدة مهن تخلى عنه أصحابها جميعاً بطريقة وديَّة. وحين سألني ذات مرة عن نفسي ومن أكون، أخبرته بطريقة مداورة، أنني ولي من أولياء الله، وعندما لم يتأثر بذلك، شرحت له أن هذه الصفة تعني أن الله ولأنني كل صلاحياته في هذه المنطقة، فكاد يغمى عليه. مسحت على رأسه، ثم أخبرته أن بإمكانه أن ينشد عوني فأهب لأنقذه من مقري في جبل الثعابين، من أي ورطة، حتى لو كان الموت ذاته. فأغمي عليه هذه المرة، ولم يستعد وعيه إلا بعد أن سكبت دلواً من الماء على رأسه الذي بلا هامة.

في اليوم التالي أصر على مرافقتي إلى الجبل ليراني بعينيه أصعده، فقد سخر منه أبن مؤجره الصغير حين روى له حديثي. أخذته إلى الجبل وصعدته، بعد أن أوصيته ألا يخبر أحداً بعد اليوم بما يرى مني. وأن عليه عندما يتعرض لمشكلة جديَّة أن ينادي بأعلى صوته: "يا سيدنا عليك ما تستحق...أغثني". وكررها ثلاث مرات كان فيها جميعاً ينسى عبارة "عليك ما تستحق"، التي لم يفهمها قط.

عرجت عليه مساءاً بعد أن نقلت أمتعتي البسيطة إلى الخيمة، فاستقبلني بشغف، مستفسراً عن سبب غيابي طوال النهار. قلت أن شيطان الموت يحوم فوق "أرضي" في هذه الآونة، وأني كنت ألبي استغاثات مئات الناس الذين كاد اللعين يهلكهم. ومنحته طعاماً وجعلته يستذكر الاستغاثة التي حفظها أخيراً. ثم مضيت إلى الخان.

في الصباح الباكر وضعت فوق ثيابي الرثة شارات المتصوفين وتعصبت بعصابة خضراء وتوجهت نحو القرية. وجدت فتىً صغيراً يرعى قطيع شرف عند مدخلها. لم أكلمه مع أنه راقبني باهتمام. وأخذت طريقي إلى المنزل لذي وصفه لي شرف وصفاً دقيقاً. ووقفت عند مدخل سوره الحجري المنخفض طالباً السماح لي برؤية شرف.

ذهلت الفتاتان اللتان كانتا تمخضان اللبن في الفناء، وجريتا إلى الداخل. نادت إحداهما بدهشة: "أبي جاء سيده...جاء حقاً!". قلت بارتياح للرجل الذي مَثل أمامي مرتبكاً بعد أن ألقيت السلام "جئت أغيث المسكين شرف". في الحال شمل البيت الاضطراب، وأحطت بحفاوة خفية، وشعرت أن غيمة فاتنة تحملني على جناحها. ها قد نجحتُ أيضاً!. ورددت على وجهي طرف العصابة، فمنذ الآن لا يجوز أن يعرفني أحد.

بالطبع، كنت قد دسست في طعام الفتى مسحوق المريْص الممغص، وخلاصة زهر البرجون الذي يسبب الهذيان ولا يذهب الذاكرة. وحين اشتدَّ عليه فعلهما ليلاً، راح يستجير بـ" سيدنا عليه ما يستحق" من شيطان الموت الذي يريد الفتك به. وقد حملوا كلامه على محمل الهذيان، حتى ظهرت بفناء الدار. على عجل أسقيته شراباً مضاداً للدواء الممغص الذي كان فعله يتلاشى. وبعد ما يقارب الساعة من الخلوة طلبت دلواً من الماء العذب وذوبت فيه قليلاً من خلاصة الحشيش وسقيت شرفاً، فحلق منتشياً. ثم خرج إلى أهل الدار مشرق الوجه ليخبرهم بأني على استعداد لسماع مشاكلهم وحلّها إن رغبوا!. دخلوا جميعاً وجلسوا في ركنٍ متراصين. سردت قصة كل واحدٍ منهم كما

استخلصتها سابقاً من شرف. وركزت على صاحبة الدار وبنتيها اللتين كانت أولهما عانساً، وبشرتها بالزواج بعد ستة أشهر، ولمحت للأخرى الشابة بضرورة وضع حد لعلاقة مع أحد الجيران يُستخدم فيها شرف كوسيط ساذج. أما الصبي الصغير، أمل أبويه، فقد بشرتهما بمستقبل عظيم ينتظره. ورجوتهم أن يشربوا الماء الذي تلوت عليه الأدعية، ووعدتهم بتلبية استغاثتهم في أي وقت. ثم غادرت وسط ذهول شاحب، حتى أن صاحب الدار نسي أن يد عوني للغداء الذي اقترب موعده. ولم يحرك أحدٌ منهم ساكناً باستثناء شرف، الذي ارتمى على قدمي متوسلاً السماح له بمرافقتي وخدمتي. لكنني رفضت، وقلت إن تفانيه في خدمة عاهله هي أفضل خدمة يؤديها لي.

غادرت ولم ابتعد، عدت تحت جنح الظلام وكمنت قرب السور. سمعتهم في الفناء يروون الحكاية مراراً لسكان القرية الذين يتقاطرون جماعات وفرادى، مستفسرين عن الولي المغيث، ساكن جبل الثعابين. طمأنني وصفهم للسعادة الروحية التي شملتهم أثناء حلولي القدسي بينهم، والغمّ الذي حطّ على قلوبهم عقب مغادرتي للبيت. أما شرف الذي أتضح فجأة أن كل أهل القرية كانوا يشعرون بأنه من رجال الله، فقد ظلّ صامتاً كالمسحور، يضمر ويفكر بأمرٍ ما. وفي الصباح التالي كاد يدمر خطتي بموته. فقد وصل الجبل مع مجموعة من رجال قريته على رأسهم سيده، يحملون القرابين والهدايا. وبينما توقف الآخرون المتشككون بعيداً، واصل تقدمه حتى أصبح عند أسفل الجبل، وكان أي صلٍ صغير سيقتله لو أنه تقدم خطوة أخرى في أرض الشر تلك.

حمل الهدايا الصغيرة وتبعني عبر الدرب الذي حددته له، وأخبرته أنه مرشوش بعطري الخاص. وحذرته من الذهاب إلى حيث لا أذهب، أو القيام بأي تصرف ما لم أمره به. وبدون التصريح بكلمة واحدة صار شرف خادمي ومريدي الذي يتبعني مثل ظلي الأعمى.

والآن؛ هاهو يخدم البقعة الصغيرة التي احكمها بحبور ورضا. يجلب الماء

صباحاً ويعتني بالخيمة الصغيرة، ثم يقضي سحابة النهار صاعداً نازلاً بين أسفل الجبل ومقري، والمرشّة في يده، ينثر عطر الإمام الذي قوامه عرق الخيول، بين يدي الحجاج، فقد ذاع خبري في قرى يزد بسرعة البرق، وصار جبل الثعابين المنسي، محجاً لوفود لم تنقطع يوماً واحداً، حاملة مريضاً أو أكثر، مع كمية وفيرة من الطعام والقرابين التي يقدمها البعض طلباً للشفاء أو البركة...ويقدمها بعضهم لمجرد أنهم خائفون من شيء غامض. كانوا يأتونني بالكثير من المرضى الذين يعانون ضعفاً في الروح والنفس، فأمرهم ببساطة قائلاً: "قم! افعل كذا..أفعل كذا". فينهض المريض الذي أقعده الوهم شهوراً وسنيناً، أمام ذهول ذويه ودهشته هو نفسه.

كان شرف أيضاً يقوم بدوره على أحسن وجه، كان من ذلك النوع الذي يجيد التواطؤ الساذج، ينفذ ما ألمح إليه بدقة، دون أن يبدي تشككاً أو تساؤلاً. كان يطلب إلى الوافدين أن يقفوا خارج الخيمة ويسارع إلى رفع الملاءة الحريرية البيضاء حاجزاً بيني وبينهم، لأنه لا يجوز أن يشاهدوا "سيدنا". وقد يجلس بين الفينة والأخرى على طرف البقعة المرشوشة ملقياً بفتات البيض المشوي إلى الثعابين الفظيعة المتكاثرة هناك ويتجاذب الحديث معها، لا لشيء سوى ليلقي الرعب في قلب شخص يبدو متشككاً أو مرتاباً بخصوصي، ويريد أن يعرف مزيداً من المعلومات عني. وقد كنت أمرتُ شرف أن ينهى الزوار عن طرح هذا النوع من الأسئلة، فأنا" سيدنا ...عليه ما يستحق"، وحسب.

ولم يكن يقلقني أو يزعجني شيء في تلك البقعة الهادئة التي كانت تمنحني أقصى درجات الهدوء وحدّة الذهن، سوى بعض المنغصات من طرف شرف. فهو مثل أي تابع، يصبح أحياناً عبئاً ثقيلاً، وغبياً غباءً لا يحتمل. يستفزني نهمه الشديد الذي اكتسبه من تشرده وعمله كراعٍ يلتهم كل ما يقدم له من الطعام الشحيح، حتى صار عاجزاً عن كبح جماح نفسه والتوقف عن الأكل ما دام أمامه ثمة طعام. ورحت أحمل المقند القليل أينما ذهبت خشية أن يقع تحت

يده فيقضي عليه، وأصبِّر نفسي بكل قواي منتظراً حلول الظلام لأخلع عني ذلك الذيل الثقيل الذي ينهك مؤخرتي.

❖❖❖

١٦

أتطلع من نافذة غرفتي في الطابق العلوي من سكن الطلاب المقيمين، إلى مئذنة الجامع الملحق بمدرسة الشيخ موفق النيسابوري، في عصر يوم الجمعة ذاك من أيام كانون الثاني سنة ١٠٤٢م، المنعش والبهيج بشمسه التي سطعت فجأة.

أنظر إلى الباحة الخاوية التي تضج بالتلاميذ عادةً، صمتها مدوٍ، وبلاطها الحجري متوتر، ومشدود في غياب الأقدام التي كانت تتزاحم فوقه. حتى أطراف أشجار الرمان والمشمش واللوز العارية، كانت تهتزُ في النسيم البارد بتوتر.

في هذا الوقت المميز من كل أسبوع أضع أمامي جزءاً من رسائل إخوان الصفا وانطلق في تلك الرحلة الحزينة إلى بيتنا الذي في الري.

هل كان من الضروري أن انتقل من طرف بلاد فارس إلى طرفها الآخر سعياً وراء المعرفة؟. وهل المعرفة ما كان وراء ذلك أم الانتقال بحدِّ ذاته؟ فتلك الرحلة وسمتني لزمن طويل بميسمها الساخن كما يوسم الجمل. تلك الرحلة التي تقوم جداراً بين ماضيَّ القصير في البيت، وبين ما سيأتي من الأيام، كانت غاية أبي ومراده.

تعجُ مدرسة الشيخ موفق بتلاميذ وطلاب علمٍ اكبر وأصغر مني سناً، لكنني

صرت أكثر عزلة مما كنت عليه في بيتنا مع فارق هام، هو أن من كان يعزلني في البيت، أبي الحاضر دوماً، لا يزال يعزلني هنا، ولكنه هنا صار لا مرئياً، وهذا يجعلني أكثر انعزالاً. لم أفرح، لم يبهجني شيء حتى الآن في مدرسة الشيخ موفق سوى قراره الأخير بتخصيص غرفة صغيرة لي في الطابق الثاني بدل تلك الغرفة الجماعية التي كنت محشوراً فيها مع ثلاثة طلاب من مدن مختلفة.

حكاية انتقالي إلى هذه الغرفة الصغيرة، الباردة قليلاً، بدأت منذ أول يوم وفد فيه شركائي الثلاثة قبل خمسة أشهر. كنت من أوائل الوافدين، وضعت في المهجع وحدي لمدة خمسة أيام، فجأة وفد عشرات الطلاب، وامتلأت جميع الغرف بما فيها غرفتي.

شعرت لأول مرة بالهياج والاستعداد الكامل للعدوان، ليس لأن الصبية الذين جيء بهم إلى غرفتي ليشاركوني إياها كانوا تحديداً من النوع "التافه والفارغ"، ولا لأنهم كانوا فرحين بانفصالهم عن أسرهم، بل لأني صرت أفقد التركيز والقدرة على الدراسة.

كانوا يجمعون أقاربهم وأبناء مدنهم الآخرين من المهاجع الأخرى، ويحتشدون في غرفتنا، ويلعبون ألعاباً سخيفة، في الوقت المتاح لنا للعناية بشؤوننا ما بين صلاتي المغرب والعشاء، وهو الوقت الذي كنت أفرغ فيه من واجباتي المدرسية لقراءة الرسائل، بعد ذلك يطفأ السراج، ويتوجب علينا النوم. وحتى هذا غير متاح فهم يواصلون هرجهم وأحاديثهم وألعابهم في الظلمة. وأحياناً، وهذا ما سبب لي أقصى درجات التوتر، كانوا ينامون أشفاعاً في الفراش الواحد، يتهامسون حول شيء خاص وسري، اعتقد أن له صلة بالنساء والفحش، وكنت مصيباً فيما توقعته. عندما لم تنفع تحذيراتي المتكررة وأصبحت معادياً تماماً لهم، أبرزت الخنجر الطاليقوني من داخل كم ثوبي في تحذير نهائي لهم. في الصباح التالي ذهبوا إلى المشرف الحسن الطوسي، وشكوني إليه ولم يتورعوا عن الزعم بأني هددتهم بالخنجر.

راع الحسن الطوسي أن يخفي تلميذ داخلي مجد ومتفوق خنجراً تحت

ثيابه، لكنني حين نسبت الخنجر إلى أبي الصفار الذي صنعه لي من النحاس لمجرد الذكرى، وأنني لا يمكن أن أتخلى عنه كما لا يمكن أن أؤذي به أحداً، لم يستطع أن يخفي تعاطفه، لكن عدم تفهمه لعدوانيتي المبالغ فيها استمر، حتى أبلغته بأمر "اللعبة" التي يمارسها شركائي في الظلام، فانتصب عندئذ واقفاً وهو يردد بعصبية: "العادة السريَّة؟! يمارسون العادة السريَّة علناً... وجماعياً؟!".

لم أكن أعرف ما العادة السريَّة بعد، وفاجأني ردُ فعله الساخط، وهو اللطيف المحبوب الهادئ. وقد أدرك أني أجهل ما أتحدث عنه حقاً، لذلك لم يتوسع في الشرح، وطلب مني العودة إلى دروسي، بعد قليل طلب التلاميذ الثلاثة.

حسبت أن الأمر انتهى هنا، لكنني سأعرف بعد ذلك بسنوات، أن التلاميذ الثلاثة قد توجهوا في اليوم التالي إلى الشيخ موفق للشكوى مني ومن مشرفنا الطوسي، وقد نجم عن مداولة الشيخ والأستاذ قراراً بوضعي في هذه الغرفة المنفردة. وقف الطوسي إلى جانبي بقوة، رادأ نفوري من زملائي إلى اجتهادي وحرصي على الوقت. أما أمر الخنجر الخطير الذي كان الشيخ موفق أمر بتخليصي إياه، فقد عزاه إلى حنيني المميز إلى أسرتي، ووجد من الخطأ أن يخلص صبي مثلي من تذكاراته البسيطة التي تعيضه عن أهله مثل المجلدات التي أهدتني إياها والدتي، وخنجر والدي... وطبعاً لم يكن يعرف بحجري النرد الذين أهدتني إياهما فاطمة الحبيبة...

أما قصة المجلدات، فتعود ليوم وصولي إلى المدرسة، إذ نجح والدي بعد جولة نموذجية من الاستعطاف والتذلل والتغابي بإقناع الشيخ موفق بأنه صفارٌ فقير جاهل، لكن ولده الذي لم يدرس على معلم قط، أبدى نبوغاً أدهش بعض المتعلمين في الريِّ، فنصحوه بإلحاقه بمدرسة الشيخ موفق التي تعتبر الأولى في البلاد سمعةً وتعليماً. مشّط الشيخ السبعيني لحيته البيضاء المنسدلة برقة وتأملني ثم تناول لوحاً خشبياً أسود وامتحنني ببعض مسائل الحساب التي

حللتها بسرعة فائقة. قرر أن يضمني إلى المدرسة مجاناً مؤكداً ما ذهب إليه متعلمو الري من كوني نابغة. لكن أبي أصر على تقديم بعض النقود على سبيل المساعدة. قبلها الشيخ موفق وطلب الحسن الطوسي. تحدثا بشأني قليلاً، ثم طلب من الطوسي أن يأخذني إلى ديوان المدرسة لتسجيلي وإيداع النقود لدى الخازن. وفيما أنا انهض تأرجحت حقيبة مجلدات الرسائل من كتفي فانتبه الشيخ الذكي واستوقفني سائلاً عما تكون... ارتبك والدي، كان في نظرة الشيخ ما يشي بالشك والتوجس، زاد من ذلك إصراره على معرفة ما أحمل. عندما قال له أبي إنها مجلدات اشترتها له أمه من السوق بما توفر لديها من نقود على سبيل التذكار، قال الشيخ مادّاً يده: "أرني...". دنوت منه وناولته الجعبة، فتحها واستل المجلد الأول. قرّب غلافه من عينيه وقال متنهداً: "ها... رسائل إخوان الصفا!... هذا مؤلف مريب!". سارع أبي متظاهراً بالخوف إلى التنصل بعبارات سريعة: "نحن لا نعرف ما هذا يا شيخنا الجليل، المرأة ذهبت إلى السوق فعثرت على من يبيع هذه الكتب الضخمة بسعر زهيد و...". "أصدقك... أصدقك يا بني" قاطعه الشيخ مطمئناً ثم قال وهو يعيدها إلى مكانها: "عنيت هذا تحديداً... هذا مؤلف غامض، وجدنا فيه الكثير مما لم نفهم مراميه ومغازيه، ولدينا اعتراضات جمّة على ما فهمناه منه... ومما يزيد الريبة فيه إغفال أسماء مؤلفيه، وبثّه في الوراقين بسعر بخس... ثمة شيء وراء الأكمة".

لوهلة ظننت إني سأفقد المجلدات الأربع، وبأن الشيخ موفق سيأمر بإحراقها، فعزمت على اختطافها من يده لمنعه من ذلك مهما كلفني الأمر، لكنني وجدت سبيلاً اقصر وأكثر أماناً، قلت بمسكنة علي الصباح وأسلوبه العظيم في الاستعطاف: "إنه هدية من أمي أيها الشيخ الجليل...". وتعمدت أن أغصّ في نهاية العبارة، تبسم الشيخ وهو يرمقني بعطفٍ، قال: "ومن قال إننا سنسلبك إياها... لكنني أنصحك بالاهتمام بما سنقدمه لك من معارف، نحن مدرسة معروفة ومسؤولة عمّا تقدمه، سنعلمك كل ما تصبو إليه، أما هذه المجلدات فلا مانع لدي من أن تطلع عليها، ففيها الكثير مما ينشّط الفكر ويشحذ الملاحظة".

سجلني الحسن الطوسي في الديوان، وعدنا إلى غرفة الشيخ موفق المفروشة ببسط متواضعة ونظيفة من الصوف، فتوجهت من فوري إلى صرة ثيابي وأخذتها متأهباً بين يدي أبي والشيخ كأني أعلمهما بأني مستعدٌ للانطلاق في رحلتي الدراسية في الحال. ضحك الشيخ وقال مداعباً: "يبدو أن مدرستنا قد أعجبت ولدك يا علي... كأنه يقول لك هيا اتركني هنا...".

وضحك أبي متودِّداً للشيخ، ثم أكد انه يترك ولده الوحيد بين يديه سعيداً مطمئناً. واستأذنه ليسمح له برؤية غرفتي ووداعي هناك. أذن الشيخ ورافقنا الطوسي حتى مدخل المهجع الخالي. أغلق أبي الباب وجلس على الحشية القطنية المطوية، وأجلسني على حشية مقابلة. قرفص بتواضع أمامي، بطريقة لا تليق من حيث المبدأ بمبشر يلقن المريد الجديد وصاياه الأخيرة. همس محذراً: "أريدك أن تتقي كل شر لا يفيد قضيتنا، يجب أن تتذكر أن يزدان قبل لنا أن نلبس الأجساد المادية... هذه الجثث التي لا تليق بنا نحن النورانيين الروحانيين، من أجل أن نحرز أفضل النتائج في معركتنا مع الظلام..أنت أيضاً يجب أن تقبل أي وضع يخدم قضيتنا، إياك والتفاخر بها أو إعلانها، آمن بما يؤمنون، ارفض ما يرفضون... واطعنهم كلما أتيح لك ذلك. هنا في الرسائل ستجد نصيحة واضحة حول كيفية التعامل مع معتقدات الآخرين، إن اقتضى الأمر ووجدت نفسك مضطراً إلى تبرير انخراطك في أكثر من معتقد ومذهب فتعلل بأنك لا تعادي علماً من العلوم أو تهجر كتاباً من الكتب، ولا تتعصب على مذهب من المذاهب، لأن رأيك ومذهبك يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم كلها. ولا تنشغل بذكر عيوب مذاهب الناس، ولكن انظر، هل لك مذهب بلا عيوب".

دسَّ كفّه في زيقه، وأستخرج من هناك خنجراً صغيراً علق بحبل إلى رقبته، استله من من غمده ليريني نصله النحاسي ناري اللون. قال:"هذا من النحاس الطالقوني، نحاس بلادك المقدسة، صنع بطريقة خاصة، وطرحت عليه أدوية، إن جرح به أي كائنٍ ظلماني، أضرَّ به مضرةً مفرطة. وإن أحمي وغمس في الماء

مات كل الذباب والكائنات الشريرة التي ترد ذلك الماء.. هذا للدفاع عن نفسك، وعن معتقدك". أعاد الخنجر إلى غمده وحمله من حبله وعلقه في عنقي. دسّه تحت ثوبي حتى لامس خصيتي. تراجع علي الصباح إلى الوراء وهمس: "ليشهد يزدان العظيم أني زودتك ما استطعت توفيره لك من القوة والأسلحة لتخوض معركته المقدسة بنفسك، وبذلك أكون قد أكملت واجبي نحوه فيما يخص ذريتي... والآن استودعك روح الرب يا بني".

ضمني وضممته بقوة. كنت ارغب بأن أستلقي في ذلك الحضن الذي لا أذكر ملمسه، وقتاً أطول. لكنه أبعدني فجأة وراح يبتعد مردداً تلك العبارة التي سمعتها منه لأول مرة، وها أنا الآن أكتشف بان كل رسالة ومقطع من رسائل إخوان الصفا تبدأ بها: "أيدك الله وإيانا بروحٍ منه...".

عند الغروب يسقط آخر شعاع له على الحافة الشرقية لنافذتي المتجهة نحو الجنوب، كنت أقبل مسقط الشعاع هناك فيما يبدو أنني انحني للنظر إلى الأسفل. أما عند الشروق فقد كان ثمة فتحة بالكاد ينفذ منها إصبع، وسعتها قليلاً ليسقط منها الشعاع على أرضية الغرفة، حيث أحتفظ بحجر أبيض متوسط الحجم، أقبله، من ثم أوقد النار في الموقد الصغير المخصص للتدفئة. يمنحوننا هنا كمية قليلة من الحطب معظمها سيء، ويصدر دخاناً رصاصي اللون، أقتصد في النيران كثيراً، واكتفي بنور الشمعة والسراج للعبادة الدائمة، ولا أدري إن كان ذلك صحيح دينياً، لكن هذا الوضع لن يدوم طويلاً، فمع قدوم الربيع والدفء وتوقف الإمدادات الخشبية، سأبدأ بالخروج في فسحتنا الأسبوعية إلى أطراف المدينة لجمع عيدان الحطب الملائمة.

عاد الأولاد وراحوا يقطعون الساحة عجلين إلى غرفهم، وهذا يطارد ذاك، والآخر يسارع إلى زميلٍ له ليتهامسا وهما يحيدان إلى إحدى الزوايا لتبادل حديث مطول تتخلله الابتسامات والضحكات التي تنفجر فجأة... وراء ماذا كانوا يسعون خارج أسوار هذه المدرسة في الفسحة الأسبوعية التي ينتظرونها بفارغ الصبر... ثم ينبثق السؤال فجأة من أعماق عقلي المستريحة تلك التي

أجهلها تماماً عن قصد، قائلاً: "ما العادة السرية؟!". أهزُّ كتفي بلا مبالاة وأهتم بما يهمني... ولا يهمني هؤلاء الأغنياء الأغبياء الذين أشعرني بذخهم وثرائهم أول الأمر بالخجل "فارغون وتافهون" بالغ ما بلغ ذويهم من مكانة وقوة، أنا ابن علي بن محمد الصباح، والدي من الأربعمائة، ومرشح ليصبح واحداً من الأربعين، تلك المكانة السامية التي بلغها جدي محمد الصباح ذات يوم... وأنا ... أنا الحسن بن علي بن محمد الصباح، سأبزُّ أبي وجدي مكانةً، سأبلغ مجلس الحكماء الأربعة وأتطلع بثقة إلى رتبة "موبذ موبذان" العظيمة.

❖❖❖

١٧

إن أفضل ما يقدمه صاحب دعوة لنفسه ولها، هو أن يبادر إلى أفعالٍ حقيقية، تتضمن معاني التضحية والتفاني في سبيلها، الذي هو سبيله. أما التبشير وحده، على أهميته، فلا يكرس رجلاً، مهما كانت أفكاره لامعة، وكلماته مضيئة. وأفضل الأفعال بالنسبة لدعوة هو الانطلاق بها مباشرة إلى هدفها، إلى السلطة، دون أدنى انقيادٍ إلى قضايا جانبية، تعود بمسارها مهما كان الانقياد طفيفاً، إلى نقطة الانطلاق.

كان هدفي التالي أن أدمِّر جمعيتنا السابقة، وأقتلع أصلب صخورها لأستخدمها في بناء جمعيتي، دعوتي، التي ستُعرف منذ ذلك الحين باسم "الدعوة الجديدة".

فبعد الذي سمعته من الشيرازي في القاهرة، لم يعد أبا الفضل، ممثل الإله يزدان على الأرض، ولم أعدّ أكنُّ تلك القداسة له كموبذ موبذان، الذي صاره بعد وفاة الشيرازي. وقررت أن أبدأ به، فأقوِّض سلطته وسلطة مجلس الحكماء، على نخبة أبناء فارس المنضوون تحت جناحهم. نفيت صحَّة الطريق التي وصل بها إلى منصبه، فممثل الإله لا يحلُّ في هذا المنصب بموافقة مجلس الحكماء الذين انتخبوا أبا الفضل. بل يعينه الإله ذاته، بإرادة ينفذها إلى الموبذ السابق قبيل وفاته. والشيرازي الذي توفي في مصر وكنت آخر من شاهده

وسمعه، أعلمني أن الربَّ اختارني لهذه المهمة، ونقل إليَّ الوصية، أي الأسرار والقدرات الخارقة التي يختصُ بها الموبذ. من ناحية أخرى، وبما أن جمعيتنا تتألف على شكل هرم من خمس طبقات من المستجيبين، تكشف لهم الأسرار تباعاً كلما ارتقوا درجة فوق قاعدته العريضة، ومن الشبان لا يعرفون من أمر الجمعية سوى أنها تنشد الخلاص من الترك والعرب العباسيين، وتتبع تبعية عمياء للإمام الفاطمي في مصر، الذي يمثله الحجة، أو حجة الإمام في فارس، فقد زعمت من أجل هؤلاء أن الإمام المستنصر، الذي لا يخفى أمر لقائي به، قد عينني حجته في فارس، خلفاً للشيرازي. بهاتين الدعوتين اللتين يدعمهما مكوثي الأسطوري في جبل الثعابين، وسمعتي وتاريخي والآمال التي تذكيها نبوءتي العتيدة بالقران الفلكي المنتظر في الشبان المتحرقين لعمل شيء... تقدمت إلى الدعاة الصغار ممن استجابوا للدعوة السابقة على يدي في يزد وما جاورها، ودعوتهم، مضرماً نار الـ"دعوة الجديدة".

كانوا يتوافدون جماعات، فأقوم بدراسة كلٍّ واحد منهم على حدة، وبدقة وحذر، وأدوِّن بالرموز المعلومات والملاحظات والانطباعات حوله، قبل أن أقبله ابناً لي، وأعلن ولادته الروحية بتلقينه العهد والميثاق. ثم اصرفه ليسعى إلى جلب آخرين، من مناطق أبعد وأبعد، مع التشدد في نهيهم عن الخوض في أي مواجهة أو نقاش حول مجلس الحكماء أو من يبدي الولاء له، "فنحن" منشغلون عن ذلك بالسعي لتحرير أمتنا من أسرها والنهوض بها في الموعد المحدد بالقران الفلكي المنتظر، الذي زعمت أيضاً أن الموبذ السابق أكده وأوصاني بالسير على هديه.

الحقيقة أنني كنت أخشى مجلس الحكماء، الذي قد يفعل أي شيء فيما لو اكتشف أمري من طريق مدعو يرفض ما جئت به. لكن أحداً من المستهدفين لم يفعل. كانوا شباناً يضجرهم بطء وكسل الجمعية السابقة التي تعمل وتؤسس لعالم فارسي، سيظهر في أجلٍ بعيد، في الوقت الذي يتحرقون فيه توقاً لعمل

شيء، والعيش في عالمٍ من صنعهم، سيئاً كان أم جميلاً.

لقد كانت أعداد الشبان الذين أقبلوا عليَّ بشغف كبيرة. وكان انطباعهم بعد مقابلتي هو: الانبهار. قابلتهم فرادى من وراء الستارة، التي ألهمني فكرتها الفاطميون، وتأكدت من الأثر الخارق الذي يخلفه غياب الزعيم جسداً، وحضوره روحاً بين أتباعه. وكان تقاطرهم إلى الجبل في قوافل خيطية، على الدرب الضيقة ، ينطوي على معجزة - صغيرة لكنها معجزة- معجزة إتباع الناس لي طواعية.

في ربيع سنة ١٠٨٢م، شعرت أن سلطتي التي أقمتها من أسفل، باتت تمتلك القوة الكافية لدفع مجلس الحكماء واقتلاعه. راسلت ابن عطاش وطلبت موعداً مع "الرجال الأربعة" في موعد حدَّدته بنفسي. وصلت قاشان سراً في ثلَّة من أخلص أتباعي، وغادرتها بعد ساعات، بعد أن أغمدت خنجري إلى مقبضه في قلب ذلك الكيان العجوز الشائخ.

كان اللقاء حامياً وعاصفاً جداً. بدأ بدهشة المجلس ، ثم صدمته، ثم الاستماتة في الدفاع عن النفس، ثم بذل المحاولات لإيجاد "حلٍّ وسط". ثم آل إلى ما تؤول إليه النيران والعواصف الفجائية: رماد الحقيقة، وسكينة الموت. دمرت المتعجرف أبا الفضل، وسيموت بعد أشهر من تسرب سلطته تسرب الماء من الكفِّ. وتوارى الرجلان اللذان آزراه وتضامنا مع أنفسهم ومعه. فيما اقتلعت أجود الصخور: عبد الملك بن عطاش. واحتملته معي.

لم يكن عبد الملك ابن عطاش "واحداً" من أتباعي كما أعلن. كان مأخوذاً بثقتي بنفسي، وضع نفسه في مرتبة أدنى مني وفق هذا المعيار. لكنني سأخاطبه حتى آخر يوم من حياته بـ"سيدي"، دون أن أترفع عن استخدامه في بعض المهمات الدعائية بوصفه الرجل الأوفر احتراماً وشعبية بين أتباع الجمعية. لم يكن له سوى مطلب واحد، هو العناية مستقبلاً بولده الأحمق أحمد، الذي كان يتدرَّب على يديه ليصبح طبيباً.

كانت الضربة الواسعة التالية هي اطلاع ليس أتباعي فقط، بل عموم أعضاء الجمعية،على وقائع اللقاء الفاصل في قاشان. ركبت مع ابن عطاش في ثلة من خيرة المستجيبين، وتجولنا سراً بين مراكزنا المنتشرة في جميع أنحاء فارس. وهنا كان أيضا نجاحي عظيماً، ومال الجزء الأعظم لي، كل الجيل الشاب، ونسبة كبيرة من المسنين.

عدت إلى مقري بعد أشهر من الحركة الدؤوبة، شرعت بالاستعداد لاستقبال الوفود المنظمة التي تمثل حلقات المستجيبين لاعتماد أسس تنظيمنا الجديد.

ثم عقدنا اجتماعنا الأول، الذي قدته من وراء الستارة الحريرية البيضاء. وفيه حددت أعضاء مجلس الحكماء الجديد الذي أجلت تشكيله إلى النهاية لأبقي على آمال عديد الرجال البارزين والطموحين الذين كانوا يتفانون في خدمتي وعيونهم مشدودة إلى تلك المناصب الشاغرة.

عينت حسين القويني الضامر ذي السحنة الكامدة والملامح الكئيبة، التي تخفي شخصية شديدة الإخلاص والحكمة، والنزعة القتالية، التي يتميز بها سكان واحات كهوستان في الجنوب الشرقي من بلادنا، حيث تقع بلدته "قوين" في منصب الهربد الأكبر. وعينت أحمد بن عبد الملك بن عطاش في منصب الرامكشر. وفي منصب الاصبهد عينت معلماً عاطلاً عن العمل من سوز، فائق الحيوية، اسمه أبو علي الدهدار. أما كيا بوزرك أوميد، المحارب الصامت، ذي القامة العنيفة الممتلئة قوة، والزعيم البارز في جبال الديلم، فعينته في أجلّ مناصب الجمعية: الموبذ موبذان!.

أثارت هذه القائمة ولاشك التساؤلات. إذ أنَّ جميع المنتقين من أعمار صغيرة لا تتجاوز الأربعين. ثم أنهم جميعاً في مراتب الدعوة الدنيا، وليس بينهم من بلغ مرتبة الأربعين. واحمد بن عبد الملك بن عطاش فوق هذا أحمق. الدهدار، لم يكن قد انضم إلى الدعوة سابقاً، بل ضممته إليها عندما التقيته

في خان حقير في الأهواز، حيث سمعته ينشد بجرأة كبيرة في حلقة من فقرائنا قصيدة مخيفة، كان يتم تداولها سراً بين متعلمينا، فيها تهجم ضمني على دين المسلمين يبلغ حد الإنكار. وإن كان الكثيرون ممن دارت في خلدهم هذه الأسئلة قد كتموها خشية أن تفسر تفسيراً سيئاً، أو لثقتهم المطلقة بي، إلا أن الجميع، بما فيهم المجلس المعيَّن، لم يتوانوا عن إظهار دهشتهم عندما عينت بوزرك أوميد في منصب الموبذ موبذان. كان السؤال من كلمة واحدة: "وأنتَ؟!". اعتصمت بالصمت وراء ملاءتي الحريرية. سكتوا، وعيونهم تلهج بالسؤال مجدداً: "إن لم تكن الموبذ فمن تكون؟!". لم أجب أيضاً. وطال الصمت والإصغاء، وطقطق الحبل المشدود بينهما، حتى قطعه شرف بصيحة زاعقة اقتلعها من أعماقه كما تقتلع الروح، وكان سيبدو مضحكاً لو فعلها في غير تلك اللحظة المهيبة... ارتعد بكامل كيانه من فرط الانفعال، وهتف مستنكراً إلى حدِّ البكاء: "هذا سيدنا!..سيدنا عليه ما يستحق!...سيدنا.. ألا تفهمون؟!". وهبَّ الجميع وقوفاً مضطربون يتمتمون بخوف وفزع وهم يمسحون بتلقائية على صدورهم: "عليه ما يستحق...عليه ما يستحق..."!.

وكنوع من التأكيد على ذلك الإيحاء، لم أشارك أو أتدخل في نقاشات المجلس الجديد وخطته التنظيمية التي تمت صياغتها بالتفصيل وإعلانها للمجتمعين. وأهم ما فيها طريقة جمع الأموال اللازمة لتحركنا. إذ قرروا أن تجمع الزكاة وخمس آل البيت من كافة المستجيبين. وأن يفرض مبلغ محدد على من يرغب بمقابلتي تحت اسم "نجوى"، يقدمها نظير تلقيه العلم والتوجيهات. وتقرر أن يصار إلى جمع كل هذه المبالغ لديّ لأتصرف بها على النحو المناسب. لكنني أحلتُ هذه المهمة إلى أبو علي الدهدار الذي سيكون أمين سر الدعوة وكاتبها وسيلازمني دائماً.

وفي نهاية اجتماعهم قدموا لي هدية ذات مغزى كبير. لقد عمروا لي منزلاً بأنفسهم، ساهم كل واحد منهم في جلب الصخور والماء له من أماكن بعيدة، ثم تعاونوا في عجن الوحل ورفع الجدران وسقفها. وعندما تأكدوا من اكتفاء المنزل

الصغير من الحاجيات واللوازم الضرورية، ودعوني فرداً فرداً، بتقبيل اليد من أسفل الستارة. وغادروا تحت جنح الظلام في مجموعات صغيرة.

وفي فجر الليل الذي اكتملت فيه هذه الخطوة الجبارة، أوقدت ناري المعطرة بشذى الأعشاب الزكية، وصليت للرب ما إن أشرق بهياً يتلألأ. ركعت حتى لامست جبهتي أول صخرة شعَّ عليها نوره، وتلوت صلاة الشكر "عسى أن يفرح يزدان ويحزن أهرمن... أتمنى للشمس الخالدة المجد والعظمة، القوة والقدرة، الشمس المنيرة، أفضل الخيرات..". ثم جلست أتأمله. لم أشعر أن هاجس الموت الذي لم يُخفق مرة واحدة في تدمير أفضل أوقاتي، ناءٍ وبعيد، وبأني ممتنع عليه، كما في ذلك اليوم.

ولعلني كنت أبرق وألمع، وحيداً فوق الجبل، تحت شمس أيلول الرائعة، مثل ياقوتة فارسية، تحتشد في خيالي وعودٌ لا انتكاس لها... أنا ابن أبي و... أمتي... محررها ... ومخلصها ...ونبيها ... وإلهها!.

١٨

الأشهر التي عشتها صديقاً لنظام الملك وعمر الخيام، أجمل أيام يفاعتي. كان نظام الملك قادراً بذكائه، وقدرته التنظيمية الخارقة، على توفير المزيد من الوقت والطاقة، لجعل حياتنا رائعة. وكانت عبقرية عمر لم تتحول بعد إلى ذلك الشيء الأسود الجارف، كانت تنزُّ منه نقيَّة فتخضل روحه الفتية، ويزدهر بالقرب منها ما لا يحصى من المتع الصغيرة الجميلة التي تغني حياتنا.

برفقتهما تخلصت من ذلك الشعور الضاغط المستفز الذي يبعثه تكريس نفسي للصراع. ثمة متع تجدد حيويتنا ولا تنتقص من إرادتنا وتصميمنا. ثم توارى الحزن... وتبكيت الضمير الغامض إزاء أهلي في الريِّ. صارت ذكراهم تثير غبطتي. ما سيكون ردُّ فعلهم عندما يعرفون مقدار نجاحي ها هنا، أي ملامح ستعتري وجه أبي رغماً عنه، حين يعرف بأنّي المجلي في المدرسة، وبأني أعيش صحبة هاتين القامتين الفارسيتين السامقتين؟. كيف ستتغير حياتهم، وتنقلب حين أتجلى وأكبر في قابل الأيام؟ كان ذلك النوع من الأفكار يبهجني ويثيرني، يفتح شهيتي للدرس، وأيضاً... للبحث عن بعض المتع الصغيرة.

في منزل آل الخيام الذي يعجُّ بالكائنات الطيبة القريبة إلى القلب، بدءاً من والدته الرائعة، وانتهاءً بظبية عمر" سارة "، تذوقت طعم الحياة العائلية السعيدة، ثم افتقدتها حتى آخر يوم في حياتي. وعندما كان اليأس يطبق عليَّ وأختنق بمغامراتي، وتحيق بي مكائد أعدائي وسيوفهم، كنت أنتحي بنفسي

جانباً لأسألها : "ما ضرَّ لو عشت الحياة كما يعيشها الآخرون، كآل الخيام مثلاً؟! ".

كان بيتهم واحداً من أجمل بيوت نيسابور، يعيش تحت سقفه علاوة على التاجر الشريف المحترم إبراهيم الخيام وزوجته، ولديه عمر وميمون الصغير، وجهينة شقيقة عمر التي تكبره بأربع سنوات، وتتأخر عنها سنتين زبيدة، خفيفة الظل والروح و...الأهواء...

شيئاً فشيئاً صار من عادتي أنْ أذهب ونظام الملك إلى السوق بعد انقضاء صلاة الجمعة، ثم نتوجَّه إلى منزل آل الخيام لنتغدى مع العائلة كلها، بما فيهم "سارة" التي تجثم قرب عمر ليطعمها الأرز والخضار.

ذات مساء، وفيما كنّا نغادر بيتهم جفل نظام وقفز عندما كان يدسُّ قدمه في نعله، ثم تدارك الأمر بسرعة وتظاهر بأنه قد توهم شيئاً. أراد والد عمر أنْ يستوضح أكثر، لكنّ نظام الذي احمرّ خجلاً، أسرع في الرحيل، وتلفت عمر نحو الداخل حيث سمع صوت سهسكة مكتوم. ما إنْ صرنا على الدريب الحجري حتى انتزع نظام خفَّه وأخرج قرنفلةً حمراءمدهوسة. لقد وضعها أحدهم هناك... قرنفلة في النعل! ما أسعدك يا نظام الملك!... ولم يستطع أنْ يخفي سعادته...

منذ أول يوم اجتمعنا بالعائلة كان واضحاً أنّ آل الخيام يرغبون بمصاهرة نظام، فله سمعة ممتازة، وأصلٌ عريق وحاشية من الوعود الزاهية. لكنّ نظام الملك الدقيق في كل تصرف يندُّ عنه، حافظ على سلوكٍ قوامه الحياء والاحترام الشديد في بيت المضيف.

جهينة أيضاً لم تتغير، وعندما غادرنا نظام الملك وصرت أذهب وحدي إلى منزلهم لم أرها بخلاف ما كانت إطلاقاً، تواظب على تطريز الحرير بأناةٍ وصمت وتراقب كالمختلسة، تتحرك وتدب فيها الحيوية فقط عندما يرتكب أحدهم خطأ يخلّ بنظام البيت أو ترتيبه الصارم. كان عمر الفوضوي العظيم، يستهلك جلّ طاقتها، فمن إهماله لمدرسته ومواعيدها، إلى إفراطه المبكر في

الشراب، إلى مغامراته النسائية المرعبة قياساً إلى سنه، إلى سوداويته واكتئابه الذين يحلان عليه فجأةً... كل هذه الأشياء الصغيرة والكبيرة كانت تتصدى لها بعزيمة لا تلين، وأحياناً تستبقها فتقوم بإجراء ما، والهدف دائماً، الحياة في اليوم التالي بالانتظام والحيوية ذاتهما.

كانت تعجبني، وكنت أراها أنسب امرأة لنظام الملك، الدقيق هو الآخر كهدهد. فحياته الشخصية، منزله، مستقبله، يحتاج إلى امرأة من هذا النوع. ولم أكن أعي تماماً معنى ذريعته عندما كنت أناقشه في كلٍّ مرة نأخذ فيها طريق المدرسة عائدين من منزل آل الخيام عندما يقول: "إنها رائعة حقاً، ومناسبة من كل النواحي التي ذكرت، لكنها لا تثيرني.إنها.. إنها... بريئة جداً". حقاً لقد كانت بريئة، حتى تلك القرنفلة الحمراء المدسوسة في الخفٍّ، لم تكن شيئاً يعكر البراءة، حتى أنها لم تكن عشقاً ولا ولهاً طاهراً، كانت قد وضعتها هناك زبيدة، ذات الأهواء، دون علم أحد، كما سأعرف لاحقاً.

في الصيف وبعيد رحيل التلاميذ، رتبت شؤوني للإبحار في الجزء الثاني من رسائل إخوان الصفا بعد أنْ حفظت عن ظهر غيب الجزء الأول. ويتزامن كل ذلك مع إنجاز عباداتي بشكلٍ دقيق وبحرية أكبر. كنت أوقد ناري كما أشاء وأنتقي لأجل صلاة عميقة أجود الحطب وأخفّه، وأركع لعين يزدان في الصباح والمساء بورع وبلا تحفظٍ أو حذر.

أمضيت احدى أماسي ذلك الصيف منكباً على الرسائل دون تركيز، عندما بلغني وقع خطا نظام عند مطلع الممر تتجه نحو غرفتي، تظاهرت بالاستغراق في القراءة والكتابة، نقر بلطف على الباب المفتوح لتيار الهواء سائلاً: "أكلت؟". قلت: "لا". دون أنْ أرفع وجهي. فقال: "اتبعني". واستدار عائداً إلى غرفته مخلفاً رائحة شواء شهي. لكنني لم أتبعه، ناداني عدة مرات ولم أجبه. كانت خطتي تقتضي أنْ يأتي بنفسه إلى غرفتي. فعل أخيراً، جاء ممتعضاً، قال ملوّحاً بكفيه: "كرما لله، دع رسائل أمك التي في الري وساعد أمك التي ابتليت بك ها هنا لتطعمك... تعال تعش أريد أنْ أنام". وضعت الريشة وتوجهت صوبه بفتور.

على المائدة أبديت عدم استحساني لنوعية الشواء، وشكوت سوء ترتيب المائدة... والخضار البائتة... وأطنبت في مدح ذوق ومهارة أمي التي في الريِّ... ثم عرّجت على الرسائل قائلاً إنها حتى من هذه الناحية تمنحني أكثر مما تمنحني إياه أمي التي في نيسابور المشغولة بـ"عشقها"!!.

كان نظام مرهقاً وغير راغب في المزاح، لكنه سأل إنْ كانت تلك الرسائل تنطوي حقاً على أي نوعٍ من العلم. استنفرت، ورفعت صوتي متهماً إياه بعدم النزاهة والافتقار إلى العدل. قلت:"أنت تحط من قدر شيء لم تقرأه، وهذا ظلم وتجنٍ".

سارع فوراً – كعادته – إلى تلافي خطأه بالإقرار والاعتذار. ثم سأل باهتمام واضح: "هل هي قيمة حقاً؟!". "طبعاً!!". قلت مغتاظاً، وتابعت بالمنوال الوحيد الذي يمكن لتلميذ أنْ يصبح فيه معلماً لأستاذه، أي الحدَّة والعصبيَّة:" بل أنني أعتقد أنّ فيها ما هو أهمَّ من العلم والحكمة والمعرفة.. إنها رسالة". "رسالة؟!". "ألم تسمع؟... ألم تتساءل؟! من هم إخوان الصفا؟ إلى من رسائلهم هذه موجهة؟... من يقرأ هذه الرسائل يدرك بدقَّة أنها ... أنها تنطوي على لغزٍ خطير".

احتشد في عينيه اندهاش وفضول هائل. قال:"لم يخطر لي أن أتساءل، ظننته عنواناً مثيراً وكفى... ما تظنُّ أنت بعد أنْ قرأت؟! ".

قلت أنِّي أظنُّ – مجرد ظنّ– أنّ الرسائل موجهة بطريقة ما إلى الأمة الفارسية. لم يستوقفه ذلك كثيراً كان همّه أنْ يعرف أكثر فحوى الرسائل أو الرسالة. قلت أني لم أكتشف بعد ما يودُون قوله بدقَّة، لكن ثمة إشارات لا تخفى على اللبيب تدلُ على أنَّهم يريدون قول شيء بطريقة الأحجيَّة. شيء لا يستطيعون قوله صراحةً. واستشهدت بمثال الإنسان الكامل الذي كشفه لي والدي: "العالم الخبير الفاضل الذكي المستبصر الصمداني الرباني الفارسي النسبة...". قال وقد ذهل: "أحقاً تقول الرسائل ذلك؟". "بالتأكيد". "أين؟... أرني ذلك الجزء". "بكل سرور..".

استعار الرسائل جزءاً جزءاً وقرأها على عجل، وافقني الرأي على أنها تكتنف لغزاً ما، لكنه لا يجده جديراً بإضاعة الكثير من الوقت. وازدرى في معرض حديثه نزعة الانحياز إلى شعبٍ أو قبيلة دون سبب آخر سوى القرابة الدموية. قال إنه يفضل صينياً حكيماً عالماً على أخٍ جاهل أو ابن عم سفيه.

أيقنت أنه ليس عضواً في جمعيتنا، واضطررت إذ ذاك إلى الإقرار بصحّة وجهة نظره، وتعللت بالوفاء لأمي وشحذ العقل كما قال الشيخ موفق، سبباً لانكبابي الدائم على هذه الرسائل. ثم أني عدت فتوقعت أنْ يكون عضواً في الجمعية، لكن انضباطه الصارم يفرض عليه هذا التغابي، وخشيت أنْ يخبر الحكماء بأني "أفشيت" السر، فيُعاقب أبي وأرمى خارج الجماعة. ومرت أيام كثيرة كنت مشتتاً وقلقاً خلالها. وصرت أكثر ملازمة لعمر الخيام في بيته. حتى حلّ يوم الجمعة ذاك.

كنت ونظام مدعوان للغداء في بيت آل الخيام، لكن على غير عادته كان نظام الملك بادي القلق. وفي حديثه مع إبراهيم الخيام اقتصر على قول نعم... ونعم. وأحياناً يكتفي بهزّ رأسه موافقاً... فجأة قرع باب الحديقة فاشرأب نظام برأسه، فيما سارع عمر لفتح الباب. عاد ليقول: "الشيخ يريدك يا أستاذ". نهض كما هو لبس نعله وغادر بسرعة ناسياً أنْ يلقي التحية. وعلقت زبيدة بالقول: "لقد كان ساهماً مذ دخل".

بعد ما يزيد على الساعة عاد أكثر شروداً وأقل اضطراباً. أخبرنا أنّ أبا علي بن شاذان متولي أمور الأمير جغرلبك في بلخ أرسل إلى الشيخ يطلب ترشيح شاب لشغل وظيفة مرموقة بشرط أنْ يكون متقناً للعربية، عالماً بالفقه والحديث. وأنّ الشيخ قد رشّحه لهذه الوظيفة.

وقع عليَّ الخبر وقوع الصاعقة. وبقيت واجماً زمناً غير محدد، لا أعرف ما يجب أنْ افعل ولا بم أفكر ولا كيف ينبغي أنْ يكون ردّ فعلي إزاء هذا الحدث. لقد هنأ الجميع نظاماً، وذهب إبراهيم الخيام أبعد فرسم نظرياً مستقبل نظام الملك على ضوء ما يتوقع لآل سلجوق في المستقبل القريب. فهو يرى أنّ مستقبل

المنطقة يصنع هناك في بلخ، حيث مكث جغرلبك ليفرخ الملوك، فيما يواصل "العقيم" اندفاعه المجنون في كل الاتجاهات، دافعاً حدود إمبراطورية المستقبل أبعد فأبعد. ورأى الخيام الأب، أنّ نشوء نظام الملك جنباً إلى جنب مع الجيل الأول من ملوك هذه الدولة الناشئة، يعد امتيازاً إضافياً لا يقدر بثمن.

كنت على حافة البكاء، عندما تطرق إبراهيم الخيام إلى جانب آخر بطريقة ملغزة قائلاً: "لا تنس!... قلائل هم القادرون على خدمة الدولة الناشئة ممن يرتضيهم آل سلجوق في بلاطهم". ملمحاً الى كون السلاجقة على المذهب السني مثل نظام وآل الخيام، ويناصبون آل بويه الشيعة العداء. عندما ذلك انسللت دون أنْ ألفت الأنظار، غادرتُ الحديقة كاللص، وعندما بلغت الطريق المعبد بالحجارة جريت بأقصى سرعتي، حتى أنّ دموعي كانت تتطاير إلى الخلف.

١٩

في سلطنة آل سلجوق يدور صراع خفي في القصر بين حزبين كبيرين حول الوريث المنتظر لملكشاه، تقود الأول أم أكبر أبنائه توركان ذات البرقع، التي يشاع أن ملكشاه يلجأ الى مقويات القلب قبل ولوج مضجعها، كي لا يقتله انتصابه. وكان أمر تسمية بكرها داوود الذي وعدت سابقاً بتولي تربيته، محسوماً، لولا أنه مات فجأة. ويظنُّ أن لزبيدة، ابنة عمه ووالدة بركيارق الذي يأتي في المرتبة التالية سناً، ضلع في ذلك. ورغم تمتع الأخيرة بدعم العائلة السلجوقية إلا أن فرصة ابنها في بلوغ ولاية العهد ضئيلة جداً، وذلك لعدم ميل ملكشاه لها، بل ونفوره منها. ويتداول الذين يتقرون مستقبل المملكة من هذا السبيل، شائعة تقول إن زبيدة لم تنل مضاجعة مرضية مذ مات عمها. لذا يعتقد أن ملكشاه سيولي عهده لابنه الثاني من توركان، المدعو أحمد وله من العمر الآن خمس سنوات.

وأحمد "طفلٌ خارق الجمال"، قالت فيروزه. و"كثير من الجمال يقتل صاحبه!" قلت معقباً، فشهقت ذعراً. كانت مغرمة به كأنه ابنها، وهي إحدى ثلاث وصيفات تثق بهن توركان، إلى درجة ترك الأمير بعهدتهن.

في غيابي ترقَّت فيروزه في جناح الحريم. كان لي ولاشك الدور الرئيسي في دخولها ذلك العالم. لكن أبو إبراهيم الأسدباذي هو من صقلها، وأنفذها كالإبرة

في وسادة الريش السلطانية. كان رجلاً لامعاً فائق الذكاء من أعضاء جمعيتنا. تقدم إلى نظام طالباً وظيفة في القصر عقب فراري إلى مصر وحصل عليها. ليتولى بعد ذلك مهمة إدارة عملية التلصص الحساسة جداً داخل مطبخ السلطنة. قابلته مع ابن عطاش إثناء جولتنا، ودان لي بالولاء وأخذت عليه العهد والميثاق. أمرته بمتابعة مهمته دون أن يثير انتباه المجلس الفارط، مع التقرب من زبيدة وابنها بركيارق.

أما فيروزه التي غداها رغد العيش أكثر حلاوة ونضجاً، فإن حبها لي لم تخمده سنوات البعد تلك، مع أنَّ حركاتها وطريقة تمعج شفتيها عندما تتحدث، تشي بأنها لم تعد أبداً تلك الطفلة البريئة. وقد أثارني ذلك قليلاً، لكنني سرعان ما أخرست جسدي، وتشبثت بالسمت المهيب الذي أطلُ منه على العالم، رافضاً رفع الستارة بيني وبينها لترى وجهي كما طلبت. أخذت عليها العهد، وأمرتها بملازمة فتاها أحمد، أو الملك احمد كما تحب أن تسميه. وأن تتحرى أخبار ابنة ملكشاه منتوركان، التي صارت زوجة الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله. فهناك أيضاً تستعر حمى التنافس من أجل الورثة الصغار، الصغار جداً، بين الزوجة الشابة "الخاتون"ابنة ملكشاه حامي الخليفة، وأم ولده ذي السنة الواحدة جعفر الملقب بأبي الفضل؛ وزوجته الأولى العربية، ولعلها كانت من الأسرة العباسية، والدة بكره، الملقب بالمستظهر بالله، الذي كان العالم الإسلامي يتهيأ لاستقبال نبأ تعيينه ولياً للعهد. لكن التركية ومنذ أول يوم لحبلها،غرقت في الجزء الذي يخصها من حلم أمها الكبير، توركان التي تعمل بهمَّة عالية، لتحشد حول شخصها الأنثوي الرقيق، ما لم يجتمع لامرأة يوماً من تلك الحاشية الرجولية المهيبة: أبوها الملك، والسلطان زوجها، والخليفة صهرها، والسلطان ابنها، والخليفة حفيدها.

أما في مصر، التي ما عدت أعرف عنها شيئاً، ولا أهتم كثيراً لأمرها مع أني عينت رجلاً من أتباعي في منصب داعي البلاغ، أي الذي يتولى المراسلات

بين الإمام في القاهرة وحجته في فارس. فلا أنا كنت أرغب بالتواصل ودفع ما يجتمع عندي من خمس آل البيت الذي يدفعه فقراؤنا لها، ولا هم لديهم ما يقدمونه لنا بعد أن استولى الجمالي على دولتهم. لكن على صعيد الورثة فأعتقد بحدسي أن الصراع يدور على النحو التالي: عين المستنصر في نص شرعي لا يجوز الرجوع عنه، ابنه نزار خليفة له في منصب الإمام، لكن بدر الجمالي الذي استغل ضياع المستنصر وتوحده حين جاء لنجدته سنة ١٠٧٤م، سارع آنذاك إلى تقديم ابنته عروساً للخليفة. وهذه سرعان ما حملت بولد أسموه أبو القاسم أحمد، وحين غادرت مصر كان عمره ست سنوات، لكن خاله الأفضل يصطنع له مواكباً مهيبة لا يتمتع بها الإمام ذاته، ويحرسه بنفسه في تنقله بين دار الحكمة والجامع الأزهر وقصر والده. وقد سمعت همساً أن للأفضل ابنة تعدُ لتكون أعطية الخال لابن أخته. أنا أعتقد أن لاعق منيه لا يقدس النص الشرعي الذي ختمه الإمام بختمه. ولا يجول ذلك في خاطر ابنه الأفضل الذي يعد نفسه بدوره لخلافة أبيه، لكن ليس مع إمام قال له "يا أرمني يا كلب"، فإمارة الجيوش وخلافها من المناصب ستكون أدعى للمتعة والديمومة مع ابن أختٍ وصهر يدين له بكل شيء.

هذا عنهم وعن أبنائهم ونسائهم، هؤلاء الملوك الطنانين مثل ذباب المزابل، وهو وضع يناسبني كثيراً، فليس أفضل من صغارهم ونسائهم يشغلهم عما أخطط وأعمل على تنفيذه سراً. ولكن ماذا عن أولادي ونسائي؟!. في الحقيقة اشتاق لهم، وأتلهف لمعرفة أخبارهم، لرؤية ذينك الشبلين الذين سيحملان اسمي ويفخران بما أنجزت وفعلت، ويخلفانني، ويخلقانني خلقاً جديداً في التواريخ... واشتاق لفاطمة...لولدها البكر الذي أسمته حسن، ولم أره قط. كم بلغ من العمر الآن؟ لقد قارب الثلاثين ولاشك... حسناً ...حان الآن وقت زيارتهم. وربما جلبتهم للعيش معي في جبل الثعابين. فحسين ومحمد تجاوزا السن الذي كان يجب أن يتلقيا فيه التعليم، ولكن لم يفت أوانه بعد. سوف أعوضهما بدروس مكثفة.

بلغت الري شتاء ١٠٨٣م، واختفيت في دار أحد أتباعي، ثم أرسلته مع الدهدار ليستطلع حال أهلي. كانوا في حالة حسنة، ويظنون أني لا زلت في مصر. وطبعاً لم أتوقع أن يبلغني الدهدار الأنباء السيئة، لكنني اطمأننت إلى عدم وجود من يراقب البيت. فنفذت إليه في السابع عشر من كانون الثاني وبقيت هناك خمسة وعشرون يوماً. كان حسين قد بلغ العاشرة من العمر، ذكياً وخجولاً لكنه بلا علم أو معرفة حتى بالكتابة والقراءة، ويعمل منذ سنة أجيراً لدى زوج فاطمة الذي تولى نفقة أسرتي في غيابي. أما محمد فكان متشرداً صغيراً، مؤذٍ وعدواني. يعود إلى البيت متأخراً جداً بالنسبة لطفل في التاسعة. ويبدو أنه انخرط في جماعة من العيارين الأرذال، كما تظنُ أمه التي كانت بلا حول ولا قوة، ، والتي أجهشت في البكاء حين رأتني، ثم لم تفعل شيئاً آخر سوى خدمتي بصمت حتى رحلت. أما أمي فقد ماتت بعد أن تخبطت في العمى لثلاث سنوات. أما دغدويه فقد صارت جدة وعجوزاً شائخة قبل الأوان. وأراني أستعجل أخبارهم لأصل إلى ذلك الخبر القاتل، القاصم للظهر.. لقد ماتت فاطمة... وكان آخر ما نطقت به وهي على فراش الموت: "ابلغوا حسن محبتي... قولوا له: كانت جاهلة وصغيرة!". واغرورقت عينا بكرها حسن بالدموع. قال أنها لم تفصح أكثر، وأسلمت الروح بعد ذلك باسمة. لكنه متأكد أنني أعرف ما ألمحت إليه. هززت رأسي والحريق يشب في صدري ويشمل كل كياني. كان لحسن شرود عينيها ذاته حين كانت طفلة.. حين نظرت إليَّ با نحراف بين البيوت الطينية وقالت وهي تمدُ كفَّها الصغيرة بالنردين: "أعدهما... لا تنس!". عانقته وبكينا شاخرين.

لكنني لم أفلح في اجتذاب أي من ولديَ. كان حسين قد صار مولعاً بالعزف على ناي قصب. ولما نهرته صار يهرب من البيت ليعزف في البرد وتحت المطر. أما محمد فلم يكن ليقبل مني أمراً واحداً أصدره إليه. وكان كلما أيقظته من النوم ظهراً ينظر إليَّ بعينين مستغربتين مشمئزتين ويسأل "من أنت؟!". في النهاية وجدتني احبسهما في غرفتي القديمة التي كان أبي يحبسني فيها، ولكن

لا ليدرسا كما كنت أفعل، بل لأضربهما بقسوة. فهما لم يراعيا القاعدة التي كررتها عليهما كثيراً قبل أن يقلما أظافرهم النامية القذرة. لم يدفنا الأظافر ورؤوسها المدببة متجه نحو الشمال في حفرة تحفر حولها ثلاث أخاديد بسكين وينذروها للطائر آشور- زاشتا، كي لا تصير رماحاً وسكاكين في أيدي الشياطين الأهرمنيين. حسين ألقاها حيث هو. ووجه محمد نهاياتها نحو الجنوب ليرى كيف تصبح رماحاً وسكاكين، ويشاهد الأبالسة الأهرمنيين، الذين أتحدث عنهم طوال الوقت، ولم يسمع بهم سابقاً.

لم أخدع نفسي فأرتجي منهما خيراً. بل أني صرت أرى في نظراتهما تهديداً مبطناً. وخشيت فعلاً أن يشيا بي لوالي الريّ فيضيع كل شيء. لكنني وجدت عزاءً لا حدود له بابن فاطمة حسن، الذي لقبته بأبي الفتوح تيمناً بصديقي عمر. وكان حسن قد تلقى تعليماً جيداً بحسب رغبة أمه وأبيه الذي كان محباً للعلم باذلاً المال في سبيله رغم عدم معرفته للقراءة والكتابة. وربما كان إحساسه بالخجل من رفضي له عندما كان شاباً قد ترك أثره عليه. فوجئت أيضاً أن أبا الفتوح أطلع على بعض أفكار جمعيتنا وقرأ رسائل أخوان الصفا ضمن هذا السياق لكنه لم ينتسب بعد. قررت أن آخذه معي واستأذنت والده الذي فرح كثيراً بمعاملتي له باحترام لأول مرة في حياتي. غادرت الريّ مع الدهدار وشرف وأبا الفتوح في ليلة حالكة الظلمة آخذين طريقنا إلى قم ثم إلى همدان ثم نهاوند ثم إلى سوز ثم إلى شيراز ومن ثم إلى يزد التي سنجتازها مباشرة إلى جبل الثعابين. وقد جلت على هذه الأماكن ليس فقط لأتابع شوؤن الدعوة فيها، بل لأتابع تجربة الزراعة السرية المتنامية لبذور الخشخاش في وديانها وهضابها التي وجدتها الأكثر شبها بأرض مصر، وقد نجحت في السنتين الماضيتين في جني محصول وافر منها. خاصة البذور التي أحتاج إليها لمكاثرة النبات، الذي لم يكن يستنبت قبل ذلك في فارس.

بلغنا جبل الثعابين في العاشر من حزيران سنة ١٠٨٣م، لنجد أن جيشاً سلجوقياً قد غادره للتو؛ اقتحموه على خيولٍ مدرعة بالجلود السميكة لتحاشي

لدغات الثعابين التي يقفز بعضها إلى الفارس ليعضه. وقد هدموا مسكني وبيت النيران الصغير. أدركت على الفور أنني إزاء وشاية من مجلس الحكماء المنهار. وأنني صرت مجدداً بلا مأوى.. بلا وطن يحتويني... بلا ملاذ يصونني. وهبَّ هواء ساخن من الجبل المنتهك، حاملاً هواجسي المخيفة، وذكرني بأن ذلك المتواري الغامض المرعب، مازال يتربَّص بي.

٢٠

حتى عودة التلاميذ إلى المدرسة، كنت سأفرغ من أشياء كثيرة لأمتلئ بالسأم. الأسابيع المؤسيَّة التي عشتها بعيد رحيل نظام الملك المفاجئ، أفضت إلى التسليم الحزين بالأمر الواقع، واستمرار الحياة بما تيسر، وعلى الخط الطويل الذي اجترحه لي أبي.

كان رسول ابن شاذان في غاية العجالة، أخذ نظام في اليوم التالي لمجيئه. كانت ليلة غريبة الحزن، داهمتني مشاعر الفقد بقوة. كنت أجلس في سريري لأعاين دموعي باستغراب وانفصال. لمَ كل هذه الدموع؟! من أين تأتي؟ من هذا الذي يحزن داخلي إلى هذا الحدّ، من أجل رحيل صديق. واحدة من تلك الأشياء التي تحدث داخلنا دون تفسير أو إرادة.

شوقي مبرحٌ لطلته، لحضوره، لرعايته. يبدو ذلك غريباً وشاذاً لمن عرفني بعد ذلك، لكنها الحقيقة على أية حال، حقيقة كنت أستبينها من خلال غشاوة دموعي كلّما تذكرت أصابعه الملكية، وإيماءاته العفوية، وسكناته الموحية العميقة، ورائحة عطره، وملامسته التي تشع فيَّ سروراً وخدراً...

لحق بي عندما لاحظوا غيابي، حاول وعمر أنْ يقنعاني بفتح الباب فلم يفلحا. في وقت متأخر صرف عمر قائلاً بصوت مسموع: "اذهب إلى بيتك وعد في الصباح... سأرى كيف أعتذر من الشيخ موفق".

في الفجر، كنت لم أنم بعد، أوقدت ناري، وما أنْ بزغت عين يزدان حتى

ركعت أقبل مسقطها وصليت مستشفعاً بدموع غزيرة: "يا ربي العظيم... بحق نورك الوضاء، إحفظْ الحسن الطوسي، واحمه بملائكتك الستة.. . إنه روح تفيض نوراً، ربِّ قيض له ما يهديه إليك... ربِّ اجمعني وإياه مرة أخرى" .

حين نفثت تلك الكلمات من ذلك الغور الذي يعذبني، واسترخى ما كان مشدوداً، شعرت بالانفراج الداخلي يسري إلى الخارج حتى كسا وجهي وعيني وجبهتي. عندما شعرت بأني"مشرق" توجهت صوب غرفته، كان نائماً ، تقدمت على رؤوس أصابعي وقبلّته على خده الأيسر، فاستفاق فزعاً، عندما عرفني راح يردّد بارتباك وهو يقعد في سريره: "حسن...!" حين اعتدل في فراشه ألقيت نفسي في حضنه وعاودتني نوبة البكاء مرة أخرى، تصاعدت حتى صارت نشيجاً متشنجاً. وراح يربِّت على ظهري بحنانٍ قائلاً: "اهدأ اهدأ... لن أرحل...أعدك بذلك" .

لكنه غادر، رحلت قافلته في المساء، بعيد وصول عمر الذي كان لا يزال ثملاً مع أنّ الوقت تجاوز ساعات الظهيرة. ويبدو أنه ابتز، بذريعة رحيل الأستاذ، كمية مضاعفة من الخمر من جهينة. جلس عمر يثرثر بأحاديث بعضها برأس وبعضها بلا رأس. فيما أنا ونظام نتبادل الصمت. سأل عمر نظام أخيراً فيما إذا كانت هذه الوظيفة واعدةً حقاً كما يعتقد والده. قال نظام: "لا أدري... في كل الأحوال أنا لن أذهب" .

رفعت وجهي إليه ببطء، وحدقت في عينيه، قلت بلهجة ذاك المراهق الممتلئ ثقةً، التي أتوجه إليه بها عندما نرجع من دار آل الخيام ليلاً فأعرج على وصف جهينة وما قالت وما فعلت، وكيف كانت ترمقه خلسةً وكيف أني أراهما زوجاً سعيداً، فيعيد نظام قراره الذي أعلنه سابقاً بلا توتر: "لن نتزوج... إنها لا تجذبني يا حسن" . فأقاطعه معتمداً على ما أظنه إشراقاً روحياً خالصاً: "بل ستفعل... ستزوجهههههها" . يتوقف مندهشاً، يسألني بقلق: "ماذا؟... ما أدراك؟... هل تعرف شيئاً لا أعرفه؟ هل قال لك أحدٌ ما شيئاً" . أرفع سبابتي عندئذٍ إلى صدغي وأقول بغرور: "هذا قال لي..." .

عندما قال "لن أذهب" همست مقرراً: "بل ستذهب... وستنجح نجاحاً باهراً..." . افترت شفتاه عن ابتسامة، قال: "ما أدراك...هذا؟" . ووضع سبابته على صدغي، فانفجرنا بالضحك سوية، ضربنا كفاً بكف، تطلع إلينا عمر باستغراب، حدس بأنّ تواطؤاً ما يجمعنا بمعزلٍ عنه، لكنه تظاهر بالبلاهة وهرش رأسه وهمس بصوت خافت: "يا إلهي!!.... يبدو أنني مازلت ثملاً..." .

في تلك اللحظة التي بدأت فيها الأمور بالتميع والانحلال، وراح نظام الملك بين الجد والهزل يتسرب من يدي، ، رغبت بالإمساك به بقوة، بالمعنيين الحرفي والمجازي. قلت فجأة: "أبا علي!....هل تعتقد أنك ستنجح في بلخ؟" . "أعتقد .... أعتقد ذلك يا حسن" . "وماذا عنا أنا وعمر؟ هل تعتقد أننا سننجح يوماً ما؟" . "قد أشكُّ في إمكانية نجاحي، لكنني لا أرتاب للحظة واحدة بشأنكما ...ستكونان من رجالات هذا العصر اللامعين" . "إذن!...تعالوا نتعاهد" . "علامَ؟" . "على أن يمدَّ من يحالفه النجاح قبل الآخرين يده إليهما ... ونجتمع مجدداً ونعمل متعاضدين" .

نظام الذي نظر إلى ما أقوله باحتراس، مالبث أن افتر ثغره عن ابتسامة الايجاب المعهودة، ومدَّ يده مغمض العينين تقريباً وقال:"أعاهدك" . "وماذا عنك يا عمر؟!" . "أنا نشوان.... والنشوان لا يسعه إلا أن يوافق الآخرين رغباتهم" . قلت وأنا أتعلق بكفٍّ نظام الملك حتى لأظنه شعر بالحرج: "لاتضيعا الوقت...هات يدك يا عمر ولنتعاهد" .

طبعاً، قيل الكثير حول هذا العهد وأسبابه ونتائجه، لكنني هنا أحدد بدقة، كان سببه توقي للمس بشرة نظام الملك، وربطه بي بحبل العهد . وسأستفيض في الحديث عن نتائجه لاحقاً .

أما اليوم فها أنا أقف وعمر بإذعان كئيب عند مشارف نيسابور الجنوبية، نرقب قافلة الخيول العربية والمنغولية الواطئة التي تتجه نحو بلخ. وأتوق في هذه اللحظة إلى ترنيم واحدةٍ من أغاني الهضبة الفارسية، لنظام المرتحل. تلك الآهات العميقة المتزامنة مع أنغام النايات الشجية بإيقاعاتها الذي يتخلله البكاء

الممدود، وهي تناجي كائنات فوق أرضية، تناشد النجوم البعيدة وروحانيها العظام، وتحنُّ إلى صحبتهم بفيضٍ روحي صادق، وإتقانٍ يليق بمقام إله.

حين كنت أودِّع نظام الملك أدركت بشفافية معنى أنْ يكون للإنسان طرفٌ مادي بشري، وآخر روحاني علوي. وفهمت على نحوٍ مجسد كيف أنْ لا معجزات للأنبياء الحقيقيين، معجزتهم- كما يقول ديننا- ... إتباع الناس لهم.

٢١

مات أبو الفضل، ولن يصبح فرفاشياً قط. كان حسوداً متكبراً، وشى بأبناء جنسه، أتباع يزدان الذي كان يدَّعي تمثيله على الأرض، وتقوضت بذلك سلطته، ونفوذ الدعوة القديمة، إلى الأبد. وغدت فارس مفتوحة لدعوتي الجديدة، الفوارة الملتهبةً، لكن ليس بلا ثمن. أنا لن أقيم بعد اليوم في وكري بجبل الثعابين، ولن أتحرك بحرية بين مراكز الدعوة. لقد أبلغوا نظام الملك بمعظم أخباري ونشاطاتي. ويقول الأسدباذي أن نظام خرج ليلتها كالمجنون واستنفر مماليكه الصغار الذين يعدون بالآلف، المتسمين بالنظامية، إشارة إلى ولائهم المطلق له، وأمرهم بإحضاري حياً أو ميتاً حتى لو كنت في جوف ثعبان. وعندما فشلوا في مهمتهم، أبلغهم أمره الدائم بتعقبي والقبض عليَّ واعداً بمكافأة كبرى. وأخبرني الأسدباذي أيضاً أن نظام ألف فصلاً إضافياً من كتابه الشهير "سياسة نامة"، يحذر فيه ملكشاه منا بقوله: "لم يكن هناك من هو أكثر خبثاً وفساداً من تلك الفئة من الناس، الذين يتآمرون خلف الجدران لإلحاق الضرر بهذا البلد، ويسعون لتدمير الإسلام. وهم بقدر استطاعتهم، لن يتركوا شيئاً إلا ويفعلوه، إتباعاً للرذيلة والشر والقتل والإلحاد". ويقول الأسدباذي الذي يعمل كاتباً في الديوان، أن ملكشاه أبدى اهتماماً استثنائياً بهذا الفصل، وهو يطلب العلماء والعارفين يومياً ليزيدوه معرفة بهذه الظاهرة المثيرة.

طيَّرت كل الحمامات الزاجلة التي كان يحملها شرف في قفص إلى نوابي في أرجاء البلاد، أمرتهم بأخذ الحيطة ومراعاة القاعدة المهمة في عملهم السري، وهي أن نبدو أقل قوة مما نحن عليه. وحثثتهم أيضاً على الإسراع في تبادل أقفاص الحمام الزاجل لربط مراكزنا بعضها ببعض، ويربطني بجميع اتباعي الذين يبلغ عددهم اليوم ثلاثمئة وعشرين رجلاً، بهذا الخيط السريع والمضمون.

لقد أخبرني الأسدباذي أن نظام الملك شرع في العمل سريعاً على إعادة العمل بديوان الخبر، وبثِّ العيون والمخبرين في كل مكان، وأمر بصيانة طرق البريد، وتزويد خاناتها بالخيول السريعة. لكن حماماتي تطير الآن بخفة ومرح فوق خيول نظام المجهدة، وفرسانها البدينين المتفصدين عرقاً، وتسبقهم ساخرة منهم، حاملة رسائلي الملغزة التي تحمل الأوامر إلى رجالي ليحذروا عيونه ومخبريه...الآن، أشعر بالتفوق على الهدهد، دجاجة الدولة، مضرب المثل في الذكاء والإبداع في ميدانه. ولعله أول انتصار حقيقي لي عليه.

كانت المهمة التالية هي البحث عن ملاذ جديد منيع مناعة حقيقية وصلبة، لا تلك القائمة على الأوهام والحيل. يصدُّ جيوش السلاجقة، ولا يطالني فيه نظام الملك، الذي لن يأمن قلبه المروع، قبل أن يرى رأسي وقد تجلطت واسودَّت الدماء عليه.

كانت هناك عدة مواقع لفتت نظري، وهي عموماً تقع على تلك الحواف الجبلية لبلادنا. فبلاد فارس مثل الصحن منبسط في الوسط، وذي حواف جبلية تتفاوت في ارتفاعها من منطقة إلى أخرى. وأول ما خطر لي منها كان كهوستان في جنوب شرق البلاد، منطقة الواحات المنعزلة القاحلة، التي تتناثر الجبال المنيعة بينها. والتي يقطنها الفرس البدو، النزقين العنيفين، الذين يحملون أشد مشاعر البغض والكره للأتراك والعرب. وشهدت بلادهم عدة ثورات أُخمدت بقسوة. ويعمل فيها نائبي النشيط حسين القويني، الذي استتبع

في غضون أشهر، عشرات المستجيبين الجدد من نخبة أبناء المنطقة.

عندما بلغت كهوستان ربيع سنة ١٠٨٤م، كانت تعج حينها بالجيوش السلجوقية التي استغلت فرصة تمرد إحدى القبائل لتعيث نهباً وسلباً في المنطقة بأسرها. وقد اقتنعت من معاينة أحوال السكان وتفحص مشاعرهم عن قرب، بأن هذه المنطقة قد تكون البؤرة الأشد سخونة واستعداداً للاشتعال في فارس. لكنني اقتنعت أيضاً أن تضاريسها وتكوينها القبلي المتنافر وتناثر سكانها في الواحات والجبال دون ترابط، يجعلها سهلة الاختراق بالنسبة لجيش كبير كجيش السلاجقة. قررت أن أنطلق من هذه النقطة فأبدأ بجمعهم حول الدعوة وتشكيل نواة صلبة من زعمائهم ومقدميهم تجذب إليها بقية السكان. ثم ننطلق لاحتلال القلاع العديدة المتناثرة على جبال تلك المنطقة ونعتصم بها. لكنني في اللحظة الأخيرة عدلت عن هذه الفكرة، كان في الأثير ما يدعوني إلى التريث، ومشيت وراء صوت حدسي. ووصلتني رسالة من الريّ تخبرني أنني رزقت بطفلة، فأرسلت آمر بتسميتها فاطمة.

قررت أن أواصل استكشاف البلاد. فأنا لم أزرها جميعاً، وربما وجدت في ثنايا أحد الجبال موقعاً أفضل. وأنطلقت في رحلة جديدة من الجنوب إلى الشمال دائراً على حافة الصحن الفارسي الواسع. وعندما صرت في جبال خراسان قليلة الارتفاع، بمواجهة نيسابور، انتابني الحنين إليها، ولعمر الخيام الذي أنجز التقويم الجديد الذي سمي بالجلالي، نسبة للسلطان ملكشاه الملقب بجلال الدين، وحدد الموعد الدقيق لعيد النيروز وهو يوم الحادي والعشرين من آذار. وضمّن ذلك مؤلفاً رائعاً أسماه "نيروز نامة" يتضمن كما طلب منه نظام الطقوس والمراسم المتبعة في عهد أسلافنا الساسانيين، للاحتفال بالأعياد الفارسية الأربعة، النيروز والمهرجان وعيد الخريف وعيد الحزن أو الشتاء. لكنني قمعت بسهولة ذلك الجنوح العاطفي المجاني إلى نيسابور، فمادامت غير مناسبة لأقيم فيها مركزي المنيع، ومادمتُ قد حددتُ مهمتي التي انطلق في

سبيلها، فما يدعوني للذهاب إليها وتعريض نفسي لخطر؟ اشتياقي لعمر؟! لقد علمتني تجربتي الطويلة أن الذين يتخذون خطوات عاطفية زائفة خارج سياق خطتهم، هم أناس ضعفاء، سيكون من المصادفات العجيبة لو ينجحون.

تأكد لي ذلك عندما غرَّبت من جرجان إلى طبرستان على الحزام الجبلي المحاذي لشواطئ بحر قزوين الجنوبية؛ لا شيء في حياتي، لا شخص ولا مكان، ترك أو يمكنه أن يترك أثراً بقوة ذلك الذي خلفته في جبال ألبورز الزرقاء الوضاءة، أول جبال انتصبت فوق الأرض، حين قابلتها. عندما تراءت لي قمة دامافند الشاهقة، شهقت مسحوراً. حقاً لقد وطأ جد البشرية كيومرث الأرض هنا، حقاً لقد نبت زارادشت العظيم في شجرة هاوما على هذه القمة.

صارت قدمي جناحين وأنا أدنو منها، فيما هي تتلألأ في الغرب فاتنة متباسمة. شعرت بالهيام نحو كل ذرة رمل فيها، وبعشق قديم لكل عشبة صغيرة تنبت في قبضة من التراب الهش المنسرب من صخرة نخرتها الأمطار والرياح على سفوحها ... لقد قطعت العالم الشرقي الساحر من مصر إلى طخارستان وبدخشان دون أن يلفتني مكان لا في البر ولا في البحر، ولا في الصحارى ولا في المدن، وكان جسدي كل مملكتي، وذاتي كل العالم، لنني وجدت أخيراً مكاناً يسكنني، يفتنني، ويأخذني خارج نفسي. وحين كنت أحلق فوق العالم، متنقلاً بين القمم العالية، ضبطت نفسي لأول مرة في حياتي، أبتسم بلا إرادة مني. توغلت غرباً، أعلى وأعمق في الفرح والبهجة، إلى حيث جبال هودغان المطلّة على جبال ألبورز عبر وادٍ عميق. وسحرني اسم أعلى قمة فيه: تخت سليمان. أكان سليمان ينام هنا؟ أم أنه ما يزال ينام هنا، بهيئة غيمة زرقاء؟!.

وفي قلب سفوح هودغان الشرقية، مقابل قمة دامافند في ألبورز، وأسفل تخت سليمان، قابلت من سينتهي عالمي عند عتباتها. جثوت على صخرة ورحت أصلي بالتزامن مع إيقاع عميق ونائي، عند أقصى جدر في الكون: دووووب دووووب...! يوقعها ملاك يعرف أنه ينظّم العالم... دووووب دووووووب...! أنحطُ

من سفوح ألبورز إليها، دووووب دووووب! يضرب قلب يزدان.. تلك هي من حافظت لأجلها على عذرية قلبي خمسين سنة... دووووب دووووب... آآآآه يا قدري.... دووووب دووووب..! تلك هي من ساقترن بها إلى الأبد... دووووووب دووووب...! عروسي تتنفس عبقاً سماوياً في ذلك السفح المضبضب الساحر..دووووب دووووب...!إنها قلعة آلموت يا صاح!.

لخمس سنوات ربضت عند قدميها عاشقاً متبتلاً، أرجو صعودها. أناجيها في الليل والنهار، آخذ قبضة من تراب قدميها، اسحقه بمحبة، أتنشق عطرها ذائباً، تتسامى روحي لتقتفي آثرها في المقام العالي. أبثها بعيني الولهانتين أشجاني ووعودي ومواثيقي التي تبلغ حد العبودية... انتهى العالم عند أعتابك، ضميني، احتويني، أغلقي عليَّ بابك، هناك أموت وادفن، ليبلى قلبي في ترابك.

مرة بعد مرة يبهرني الترتيب المحكم لقدري. لقد مررت قريباً جداً من هذه الجبال عندما انطلقت -أطلقتُ- في سن مبكرة على طريق مغامرتي الطويلة هذه. وحاذيتها في أسفاري التي لا تنتهي مراراً، وهي لا تبعد عن الريَّ إلاّ مسيرة يومين على البغال، ولكنني حدت دائماً عنها، لماذا؟. لأنني لو بلغتها قبل أن أبلغ هذا المبلغ من العذاب والخوف والمطاردة، ما كنت سألمس روحها العلوية، ولا كنت سأرى قدري على قمتها، بذلك الوضوح وتلك الدقة كما تبدى لي لحظة رأيت صخرتها في السفح، فتية، وصلبة، وسط عشرات الصخور الأخرى التي أذوتها السنون والسيول والأنواء... تنتظرني منذ آلاف السنين، كما تنتظرني جبال هودغان وجبال ألبورز التي تكتنفها وتحيط بها وتعزلها من الشرق والغرب، كما الأبراج العجيبة التي نحتتها الرياح لتصبح أبراج مراقبة يعجز امهر البنائين عن إشادتها، كما نهر آلموت الذي شق عبر مئات السنوات خندقاً عميقاً حولها وهو ينحدر سريعاً غزيراً من تخت سليمان العالي، إلى سهل أنداج رود غربها، الصغير الخصيب، والمغلق بجدران جبلية عالية، تجعله

أكثر دفئاً من صعيد مصر ذاتها، حتى أن اللوبياء التي تزرع فيه تنضج قبل نضج لوبياء مصر... لم أكن أتخيل للحظة أنني في هذا الطرف البارد من العالم، سأبذر القنب... لكني زرعته، وجنيت محصولاً لا مثيل لوفرته أو جودته.

صخرة ألموت تشبه جملاً رابضاً يطرخ عنقه ورأسه على الأرض. ولكن عندما تتغير إطلالة عينا الرب -الشمس والقمر- عليها، تتحول إلى كائن خرافي يتنفس، يتخذ آلاف الهيئات والأشكال العجيبة في تلاوينها ومظهرها، وتأخذ نفس رائيها الرعشة، وإحساساً مبهماً بالجلال المرعب، نحو هذا المخلوق السرمدي المهيب.

تسلقت مع الجنود والباعة عدة مرات عنق الجمل المسمى "جردينة"، ومشيت قبصاً على طبقة التراب الرقيقة التي تغطيها. ووقفت قريباً جداً من باب القلعة الذي لا يفصله عن حافة الصخرة سوى سبع خطوات، دون أن أقترب أكثر، ليس فقط لأن الحراس يمنعون ذلك، بل لأنني لم أفعل بعد ما يجعلني أهلاً لوطئها. لكنني مثل أي متيمٍ كنت أتقصى أخبارها، أسأل الذين شاهدوها عن صورتها من الداخل، عن حياتها اليومية، عن تلك الأشياء العامة، التي أنسل منها التفاصيل الحميمة.

يسور أعلى الصخرة التي ترتفع على نحو يكاد يكون شاقولياً حوالي أربعمائة ذراع، سور حجري متين. ينفتح على بوابة وحيدة تقع في الشرق عند نهاية الممر الوحيد الواصل إليها عبر العنق "الجردينة". وهو طريق ضيق منحوت في الصخر ومحكوم بالبرجين القائمين على جانبي البوابة، وتكفي دحرجة صخرة واحدة من هناك ليصبح الطريق الذي لا يتسع لمرور سوى رجل واحد، أو بغل واحد، مسدوداً تماماً. ولا يعود الوصول إلى القلعة ممكناً إلا عبر طريق لا يعرفه سوى قاطنوها، محفور على جدار صخري يطل على الوديان السحيقة، ويحتاج عبوره، عدا المهارة أو التهور الشديد، إلى الحبو على أربع في

عدة نقاط.

أما في الأعلى حيث تنبسط أرض الصخرة صاعدة بهدوء كلما اتجهنا غرباً، فثمة قلعة أولى تحرس البوابة والساحة الرئيسية ومستودعات المؤن والعلف وحظائر المواشي، وحيث صهاريج الماء المنحوتة في الصخر ومهاجع الجنود الجماعية. تليها القلعة الوسطى وهي مقر القادة ومساكن عائلاتهم. وأخيراً إلى الجنوب الغربي حيث تشمخ الصخرة مثل الأنف ويتضايق عرضها مثل خصر العذراء ليصبح أقل من عشرة أذرع ما يلبث أن يتسع على شكل دائري، تقع القلعة العليا، التي يعزلها عن الجزئين السفليين أكثر الجدران سمكاً، وتعلو أبنيتها لتطل على كامل مساحة ظهر الصخرة. وفيها مقرُ ومنزل حاكم القلعة، مهدي العلوي.

ومهدي، جندي كسول بلا أحلام، لا يملك ما يباهي به سوى ما يعتقده البلهاء فيه من شرف محتده. وجوده، على رأس الحامية المكونة من خمسين جندياً ديلمياً، وعشرون من الأتراك والعرب، إضافة إلى أربع قادة، لا مبرر له سوى الإعلان الرمزي عن خضوع المنطقة للسلطان السلجوقي. فهي ليست ثغراً يخشى نفاذ الأعداء منه، وليست سهلاً يزرع فتقطع، وليست طريقاً للقوافل أو البضائع فتحرس.

عندما علم بوزرك أوميد، الموبذ الذي لم يعامله أحد بهذه الصفة جدياً، بوصولي إلى سفوح هودغان، هبَّ للقائي في ثلة من أتباعي من قريته خوشيكشول التي تبعد فرسخاً واحداً عن القلعة. لم أخبره أنني اخترت صخرة آلموت لتكون آخر بقعة تضمني على الأرض. فقط أخبرته أني سأقيم في بلاد الديلم لأنظم الدعوة فيها .عرض عليّ الإقامة في قريته ضامناً لي بقاء أمري سرياً بفضل نفوذه وسلطته كواحد من الأعيان من جهة، وبسبب تعصب أبناء المنطقة لقاعدة حماية الضيف وإكرامه من جهة ثانية. لكنني اعتذرت، فآلموت لا تشاهد من قريته!. وطلبت أن يجد لي مأوىً مناسباً في سهل أنداج الصغير المغلق، الذي تطل عليه، وأستطيع أن أزرع فيه الخشخاش سراً.

في غضون أسبوع اشترى لي بستاناً صغيراً عند نقطة التقاء وادي أنداج بوادي آلموت، في قرية شاهراك، مسقط رأس آل بويه، والملجأ الحصين الذي لجأ إليه فيما مضى، مناوئي الأمويين من آل البيت العرب، لتكون مخبأً للأئمة الزيديين الأوائل، الذين حمل البويهيين لواءهم ونصروهم بأمر من مجلس الحكماء، عندما كانوا من أنصاره المتحمسين، لكن أحفادهم اليوم، في شاهراك، لا علاقة ولا صلة لهم بدعوتنا. وهم يعرضون بترفع النبلاء الآفل ملكهم، عن التورط فيما لم يعد لهم القدرة على تنكب تبعاته.

استدعيت أبا الفتح مع أسرتي من الري إلى بيتي الصغير في أنداج، واشتغلت كزارع أعشاب طبية في البستان الذي اشتراه بوزرك أوميد. وتحت هذا الصفة البسيطة والغريبة، بدأت التجوال في المناطق المحيطة بآلموت، من جرجان إلى جيلان إلى قزوين إلى داماغان، أجند الأتباع وأدير الدعوة بمئات الحمامات الزاجلة، التي تحط رفوفها وتطير يومياً من وإلى مختلف أنحاء فارس.

٢٢

تظلل أجود أشجار النخيل في العالم، قصر الخليفة العباسي على نهر الدجلة، ويقطنه الوريث الذي يحكم نظرياً ما يقارب ثلث العالم المعروف، منذ ثمانية عشر عاماً. يمضي القائم بأمر الله، جلَّ وقته وحيداً في بلاطه الفخم، بعد أن يأمر خدمه بإسدال الستائر الحريرية حتى يظلم المكان. يعتقد كثيرون بأن لآل العباس صلة خاصة مع الله، وأنه يرعاهم ويخصهم بحمايته، ودليلهم ليس فقط في استخلافه لهم على أمر العباد وتفضيله لهذا الفرع من الأسرة الهاشمية على ما عداه، بل يستندون على معجزة بقاء الخليفة العباسي في موقعه حتى وهو لا يملك أمراً ونهياً سوى على كاتب يدير أقطاعاته يدعى مبالغة بالوزير. ويظنُّ الكثيرون بأن الرجل ينزوي في تلك العتمة للتهجُّد وإقامة شعائر خاصة، وأنه يدعو الله فيستجيب. ولا أحد يعلم أنه ينزوي هناك لممارسة هوايته الأثيرة. فقد عشق منذ طفولته رائحة قدميه، تلك التي تفوح من بين أصابعه المتفسخة بعد تغليفها بجوارب سميكة كتيمة لعدة أيام.

إنها لحظة حرجة من لحظات التاريخ، تلك التي أقف فيها على باب البلاط بهيئتي اللامرئية. حاصرتْ جموع من العامة الهائجين قصر الخليفة، وهاهي تهتف بعنف تحت نافذة القائم بعبارة "يا حاكم يا منصور" شعار منافسه الطائفي الخليفة الفاطمي المستنصر بالله. لن أدخل على الخليفة، فرائحة

أصابعه، وروائح أخرى، ينفثها جوفه في لحظات الرعب، على أشدها الآن. سأنتظر مجيء وزيره أبي القاسم حسين بن مسلمة. وحتى ذلك الحين سأروي لكم كيف وصلت الأمور إلى هذه الذروة.

باختصار أوصل الأمور إلى هنا الوزير الذي انتظره الآن، كان قاضياً، وعربياً متشدداً، يحلم بعودة العرب إلى مكانتهم بين المسلمين، ويطمح إلى إعادة الخلافة العربية إلى غابر مجدها. كان يخطط لضرب البويهيين الفرس الذين يتسلطون على دار الخلافة ويحكمون باسمها، بالسلاجقة المتحمسين لنصرة الخليفة. كان ملوك البويهيين قد قبلوا أن يتلقبوا بالملوك، وهو منصب أدنى من الخلافة من الناحية النظرية لكن على أرض الواقع كانت السلطة الفعلية في أيديهم، هم وكبار قادة جيوشهم. وقد برز مؤخراً من هؤلاء القادة أبو الحارث البساسيري، الذي لم يتورع عن التلويح بإمكانية الاستعانة بالفاطميين الشيعة في حال استمر ابن مسلمة بمغازلة السلاجقة السنة، والاستقواء بهم.

بدا الصراع والحال هذه، كأنه بين البساسيري وابن مسلمة، وتوارى الخليفة والملك أبو النصر خسرو فيروز. فالعباسي كان أضعف من أن يخوض صراعاً، وأبو النصر كانت عقيدة آبائه وأجداده المضمرة قد هزمته مسبقاً. فالحكماء الذين تنبأوا بقيام دولة بني بويه، كانوا قد حددوا اعتماداً على إشارات النجوم زمن صعودها وزمن أفولها بدقّة، والزمن الأخير هو زمننا هذا. وقد قرر الحكماء الأربعة أن يكون موت الدولة المحتوم، بأقل جلبة وأدنى خسائر ممكنة.

كان هذا المنطق غريباً وغير مفهوم للبساسيري، الذي وإن كان على مذهب الزيدين، إلا أنه لم يكن عضواً في جمعيتنا السرية، لأنه ببساطة ليس بفارسي الأصل، بل مجرد مملوك تركي ارتقى بهمته وخصاله الحربية لمرتبة الإمارة.

كان من عادة البويهيين أن يتلقب واحدهم بلقب تشريفي لدى تقلده هذا المنصب، كمعز أو بهاء أو جلال الدولة، وعندما توفي الملك البويهي أبو كاليجار

وتولى إمرة الأمراء الملك أبو النصر خسرو، وتلقب بوحي من مهمته التي نذر نفسه لها بـ"الملك الرحيم". لكن الخليفة بمشورة من وزيره رفض اللقب، فهو واحدة من أخص صفات الله. وكان من الطبيعي أن يتصدى لابن مسلمة خصمه اللدود البساسيري، الذي توجَّه إلى علماء الكرخ الشيعة واستخرج منهم فتوى تجيز اللقب، وسعى لاستخراج فتوى مشابهه من علماء سوق القلائين السنة، لكن هؤلاء رفضوا. واصطدم الجمعان. ونشبت فتنة كبرى. وسارت جموع الكرخيون ومعظمهم من الفرس، إلى قصر الخليفة مطالبة بإقرار الملك على لقبه، مهددين صراحة بإظهار الولاء لخصمه الفاطمي.

كان القائم يتكأكأ جزعاً في كرسيه، يفكر في المأزق الذي حشره فيه ابن المسلمة، لائماً نفسه لتسليم قياده لهذا المغامر. حين اقتحم الأخير البلاط هائجاً غاضباً، لبس الخليفة نعله على عجل ومسح أصابعه يده التي كان بعضها مغموساً في دبق أصابع قدميه، بديباج العرش المصنوع من الدمقس وخشب الطيب.

تطلع الخليفة إلى وزيره مضطرباً وقال: "ما هذا يا أبا القاسم؟ ماذا يحدث؟". "فعلها البساسيري الكلب!". قال الوزير وهو يلقي بنفسه على مقعده إلى يمين عرش الخليفة، ثم كشر تكشيرة صغيرة متقززة ونظر الى الخليفة الذي تململ مرتبكاً. قال بقرف: "ما هذه الرائحة؟ يا رجل ما هذا... بلاط خليفة أم بيت خراء؟". وقام وهو يهوي لنفسه صارخاً:"أيها الخادم! افتح النوافذ".

فتح الخليفة فمه قليلاً وأغلقه، وهو ينظر إلى الوزير الغاضب. ثم ألقى أمراً حاداً إلى الخادم: "أيها الخادم...أشعل بخوراً...!".

علا صوت الهاتفين بالتهديدات عند انفتاح النوافذ، وتظاهر الخليفة بمتابعة حركة الخادم كيلا ينظر إلى وجه الوزير. وعندما خيَّل له أن الجو تغير التفت إلى ابن المسلمة الذي شرع فوراً وهو يهوي لنفسه بيده، بإملاء الأوامر مستثمرا حال الخليفة المدان بسلوكه المشين. قال: "أرسلت إلى أبو النصر ليمثل

بين يديك حالاً، أخبرته أنك ستغادر بغداد إن لم يضع حداً لهذا الكلب. .. حاول أن تلمح له بأنك قد تتوجه إلى السلجوقي".

هزَّ الخليفة رأسه بإذعان، وران صمت قصير لم يلبث أن قطعه أبو النصر بمقدمه .انحنى وقبَّل الأرض بين يدي الخليفة كالمعتاد وقال شبه معتذرٍ: "آسف لما يفعله هؤلاء الغوغاء يا مولاي، جنودي يعملون الآن على تفريقهم". "هذا ليس مجرد إزعاج أيها الملك، إنها فتنة". قال الوزير باحتداد، وتبادل نظرة عدائية مع الملك الذي لم يجلس بعد. قال الأخير: "لا تبالغ يا أبا القاسم، يحدث هذا الخلاف بين الكرخيين والقلائين منذ أسست بغداد".

تدخل الخليفة، وقال بنبرة هادئة لا تتناسب واضطرابه قبيل مقدم الملك، مفصحاً عن قدرة كبيرة على التمثيل: "كان يحدث خلاف أيها الملك، لكن لا تهرق الدماء، هذا لم يحدث قط عندما كان العباسيون يحكمون بغداد".

سارع أبو النصر لمواساة الخليفة الذي وصلت براعته في التمثيل حد استيلاد دمعتين. قال: "لا زال بني العباس يحكمون بغداد يا مولاي... لازلتَ أمير المؤمنين وخليفة رسول الله". "بل لا سلطة لي حتى في حريمي هذا أيها الملك". قال الخليفة بألم صادق وهو يشير بإصبعه نحو اليمين، وصمت الملك خجلاً. وأوَّج الممثل البارع انفعاله ليقول غاصاً بدموعه: "يريد رجالك... يريد البساسيري... أن يسلم بغداد للفاطمي؟ حسناً، ليفعل ذلك دون سفك دماء". أراد الملك أن يقول شيئاً فتجاهله الخليفة حين أمر: "ليجهزوا مراكبي يا أبا القاسم، إننا مغادرو دار السلام". نظر الوزير إلى الخليفة مذهولاً من براعته، كأنه ينظر إلى رجل لا يعرفه، وهمَّ بالمغادرة، لكن ابو النصر اعترض طريقه مستمهلاً ليقول: "مولاي...لا عشت إن فارقتم بغداد، وأقسم أن لا علم لي ولا رضا بما يفعله الغوغاء، وأني خارج إليهم بسيفي وعسكري لأردعهم".

تعالوا نذهب قليلاً إلى السلجوقي...طغرلبك. رغم كل شيء أحبُّ هذا البدوي الأحمق الذي صار ملكاً. كان الطفل ذي الستين عاماً يشقُ طريقه بين

مكائد السلاطين وأحابيل السياسة بسيفه الأثلم متى استطاع ذلك، ولكن متى ارتج عليه الأمر، امتطى حصانه وفرَّ إلى صحرائه. هاهو وقد استولى على أصفهان من البويهين واتخذها عاصمة لملكه، يخرب قطعة من سورها. وهاهو وزيره الشاب عميد الملك الكندري يقترب حاملاً قراطيس المستحقات المتأخرة أملاً أن يحصل على ختم السلطان عليها. لكن طغرلبك ما أن يلمح الكندري قادماً على هذه الهيئة الكريهة، حتى يكفهر ويتمتم بالسباب الفاحش، ثم يبدأ بالصراخ والزمجرة مصدراً تعليمات غير واضحة للجنود مصطنعاً السخط. الوزير الشاب يدرك مأزق سيده ويعلم بسر رغبته بإزالة قطعة السور تلك. دنا وقد طوى قراطيس المستحقات كأنه يخفيها، تبسم قائلاً: "عرفنا يا سيدي أن الملوك إذا ملكوا بلداً حصنوها، ما رأى مولاي كي يهدم سور عاصمته؟". لم يلتفت طغرلبك وصرخ دون مبرر يأمر جندياً بإبعاد حجرٍ كبير. ثم قال:" يحتاج إلى السور من وهنت قوته، أما من كان حصنه سلاحه ورجاله فلا يحتاجه".

هزَّ الوزير رأسه متملقاً وقال: "لا أستغرب يا مولاي...يقول العامة إن البيض لم يلدن رجلاً كطغرلبك...". للحال ابتعد طغرلبك مغمغماً شاتماً، لقد وقع الوزير في خطأ فادح حين ذكر الولادة. انسحب وقد تيقن أن محاولته اليوم فشلت ولا شك. ضرب القراطيس على فخذه متأففاً ويتساءل: "ترى لولا هذا الحذر وهذا الشك أكان هذا الرجل سيصير إلى ما صار إليه؟!... بالقدر نفسه من السرعة الذي يقدم فيه طغرلبك على المغامرة، يهرب... وبالقدر ذاته من الاستسهال الذي يقدم فيه على استلاب أموال الآخرين، يحرص على كل درهمٍ لديه...إنهما سلاحيه...الحذر والشك". وفكَّر الوزير لحظتها بتلك اللدغة التي هزَّت ثقة طغرلبك بذكائه وعززت خوفه من دهاء الآخرين وخبثهم، لدغة الحيَّة الصغيرة الناعمة البيضاء، من آل بويه.

كان طغرلبك قد ملك الريَّ حديثاً، واستقرَّ بها مؤقتاً، وفي تلك الأيام توضحت معالم دولته الناهضة واستشعر خصومه، خاصة الديلمين، خطورتها.

وعندما بدأ الخليفة العباسي يكاتبه سراً، راح السلطان البويهي يفكر بخطة تؤخر لحظة الحقيقة بعض الوقت. لهذا استدعى ابنته الوحيدة، ابنته الصغيرة الجميلة التي لم تبلغ الخامسة عشرة بعد، حكا لها عن أمجاد أجدادها وبطولاتهم جيلاً بعد جيل، ثم أخبرها بحزن، أن قوتهم خانتهم من جهة ومن جهة أخرى ظهر لهم هذا العدو الغاشم الذي لا يهتم سوى لشيئين: إسقاط دولة الديلمية، والنساء، الصغيرات منهن خاصة. الديلمية قالت بذكائها الفطري: "زوجني إياه وسأقتله....أم تراه لا يقبل الزواج مني؟!".

كان طغرلبك حينها في الريّ، ينطلق في سماء ربيعية شاكما مهراً عربياً، يروضه بقوة سنواته الخمسين وبخبرته الطويلة على ظهور الخيول، في هذه الأثناء ظهر وزيره الجويني، وهو رجل في الخمسين أيضاً عيَّنه السلطان وزيراً له بعد ضغوطٍ كبيرة من رجاله الذين طالبوه بإنشاء ديوان واتخاذ وزير شأن كل السلاطين في العالم ليتباهوا به كما زعموا، لكن هذه لم تكن سوى ذريعة من أولئك البدو الماكرين ليعين من يستطيعون تحصيل عطاءاتهم ورواتبهم منه بعد أن أعياهم تملص وتهرب طغرلبك. بعد مساومة عويصة عين طغرلبك الرجل الذي قيل له أنه خبير في شؤون الديوان مقابل عطاء جندي!. لكن الغزَّ لم يستفيدوا شيئاً من الديوان الذي ظل خاوياً، ولا من البلاط الذي لم يطأه السلطان إلا يوم أفتتحه ووجده خانقاً مريعاً، وسأل فيما إذا كان يمكنه أن يتخذ خيمة بلاطاً.

وقف الجويني عند طرف المرج ملوحاً برقاعه للسلطان الذي مرق كالسهم ثلاث مرات ولم يعره انتباهاً، وضع الوزير كفيه على فمه مثل البوق وصرخ عندما اقترب منه للمرة الرابعة: "يا مولاي رسول من السلطان أبي كاليجار... يعرض الصلح وأن يزوجك من ابنته".

عند سماعه ذلك، أرخى السلطان عنان المهر ووثب عنه برشاقة. اقترب من الوزير وهو يهزُّ رأسه إعجاباً: "رائعة هذه الخيول العربية.لا أدري كيف كنا نهزم الرجال ونحن على تلك الخيول المنغولية الواطئة".

ثم وهو يمسح عرق وجهه: "ماذا يقول ذلك البويهي؟". "يريد الصلح، وتزويجك ابنته". "أليس في وسعنا أن نقبل العرض الثاني فقط؟". ثم قهقه: "لقد عرف ذلك البويهي مقتلي...أنت لا تعرف أيها الجويني كم أنا مغرم بهؤلاء العجم المرفهين المهفهفين". وداعب وجه الجويني الذي تراجع بحذر دافعاً كفَّ السلطان الشبق، قال: "أنت موافق يا مولاي؟". "يا أحمق! أيرفض عاقل عرضاً بالزواج من ابنة شاه العجم؟ أكتب له ليوافني بها حالاً". "مع عقود الصلح؟". "مع هذه أيضاً". "لكن ثمة شيء آخر يامولاي". "ما هو؟". "إنه يطلب بالمقابل ابنة شقيقكم السلطان جغرلبك لابنه"...."جويني!". صرخ طغرلبك فارتجفت أعشاب المرج، وتمتم الوزير خائفاً: "مولاي لم أكن لأجرؤ على عرض ذلك لو لم يكن رغبة الخليفة ذاته".

رفع طغرلبك يده عن مقبض سيفه وزمَّ عينيه الوحشيتين متسائلاً: "الخليفة يطلب ذلك؟". "أجل يا مولاي...ولا تنس أن الرجل ما يزال في قبضتهم وهو..." .هشّ السلطان بيده، فصمت الوزير. قال بصوت خفيض متوعداً: "حسنٌ يا خليفة!...أكتب له بالموافقة".

ثم أشار إلى جندي فأتاه بالمهر، التفت إلى الجويني وقال:"ليرسل لي البويهي ابنته أولاً".

وذهب في المرج خبباً، ثم عاد إلى حيث الوزير وقال مبتسماً: "جويني!... لتكن عقود الصلح ثخينة وخشنة... سأمسح طيزي بها". وانطلق كالسهم في المرج.

بعد أسابيع ثلاثة كان يخترق شقَّ ابنة الشاه، الصغير المعطر، بشبق وحشي. في اليوم الثالث كان يتدحرج خارج مخدعها متقطع الأمعاء فقد سقته سمَّ الملوك. امتطى حصانه السريع وأوغل في الصحراء. لكن هروبه إلى هناك لن ينقذه من لدغة الحية البويهية الصغيرة، كما كان يحدث بعد كل جريمة يقترفها. سينقذه طبيب من همذان لديه ترياق لسم الملوك ذاك. جلبه الوزير الذي كبر مائة عام أثناء مرض سيده. وحين تعافى هذا قال لوزيره: "أنقذت

حياتي... أطلب وتمنَّ". فطلب الوزير الذي كان ما يزال يعاني الإسهال الحاد إقالته، وتوسل إلى السلطان حتى أعفاه دون أن يدفع له أيَّ من مستحقاته السابقةً. ثم طلب إلى معاونيه المقربين، وقد عرف أهمية الوزير، أن يبحثوا عن وزير جديد ... وزير حقيقي لا يصاب بالسلح كلما صرخ في وجهه.

٢٣

كان نظام الملك يصغي إلى ليل فارس الساكن المظلم، بغريزية قط منتصب الأذنين، متسقطاً هسيس خطوتي التالية. وعبَّر عن قلقه سهواً أكثر من مرة للأسدباذي، حين استفسر بلهفة عن البريد، وتذمَّر لاعناً مخبريه الخاملين الأغبياء.

كانت سنوات استرخاء. بدا أن لا خطر يتهدد السلطنة السلجوقية في فارس وخارجها سوى خطرنا الذي يذكي المخاوف منه نظام الملك دون أن يتمكن من إقامة دليل واحد عليه، حتى فتر اهتمام السلطان بنا تدريجياً، ولم يكن نظام، ذلك الأخرق الذي يجتر حديثاً مهملاً، فصمت بدوره دون أن يغفل. إلى أن اقترف رجالنا في ساڤا تلك الغلطة الفظيعة.

ففد أقمت على رأس دعوتنا في تلك البلدة القريبة من قم، نجاراً يدعى طاهر، كان والده من رجال الدعوة العريقين، وبلغ مرتبة الأربعين فيما مضى، لكنه رفض الانضمام إلى الدعوة الجديدة التي انضم إليها الابن بحماس. فجأة أطبقت الشرطة على اجتماع لرجالنا في منزله، عندما دعاهم للتشاور في أمر شاب دعوه فرفض الدعوة. كان نشاطه وطقوسه الغريبة وكثرة أسفاره وتذمره العلني من الأوضاع القائمة، قد لفت نظر قائد الشرطة منذ مدة، وقد ظن أنه بهذه المداهمة الفجائية سيضبط ما يدين الشاب. لكن لحسن الحظ لم يجد شيئاً

من ذلك، وظهر الأمر برمته على أنه مجرد حفلة سمر لأصدقاء شبان. خاصة بعد تدخل والد طاهر الذي كان يشغل منصب إمام أحد مسجدي البلدة. لكن الخطر، كما خيل للمجموعة، كان لا يزال قائماً في شخص الشاب الضعيف الذي لم يستجيب للدعوة. ودون مشاورتي قاموا في الليلة ذاتها بخنقه، لكنه كان قد أفضى بمخاوفه لأحد أصدقائه، وهذا أخبر ذويه أن جماعة على رأسها طاهر قد دعته إلى عبادة رجل يدعى حسن الصباح فرفض فهددوه بالقتل. طبعاً قبضت الشرطة على طاهر فوراً، وفي هذه الأثناء فرَّ الآخرون إلى جبال ألبورز. صمد طاهر صموداً أسطورياً للتعذيب، ورفض الإدلاء بأي معلومات عني أو عن المكان الذي أختبئ فيه، ومات، وسحلت جثته، بأمر من نظام الملك شخصياً، في طرقات البلدة، وأشيع خبره وخبر الفرقة المطاردة في البلاد. وبدأت الاستعدادات الحثيثة في البلاط لدفع السلطان الذي عاوده اهتمامه، إلى اتخاذ قرار حازم.

قررت من مخبأي النائي أن أقلب رقعة الشطرنج الملكية في الشرق كله بحركة جد صغيرة. كان الأسدباذي يزودني قلقاً بالأخبار تباعاً، وكنا حتى تلك اللحظة نجهل إن كان طاهر قد قدم معلومات هامة للشرطة أم لا. ربطت كمية قليلة من السم الملكي الأبيض بساق حمامة، وربطت على الساق الأخرى رسالة قصيرة ملغزة تقول: "للملك أحمد". وطيرتها الى فيروزه.

وكما يصفرُ برعم ويسقط قبل تفتحه، ذبل الملك أحمد، ثم رحل بهدوء، عن إحدى عشرة سنة. وسقط أبيه في هاوية السوداوية، ساحباً معه كل ما يحيط به.

في هذه الأثناء خطر لي أيضاً أن استدرج نظاماً إلى فخ بسيط مستثمراً تشوفه ولهفته لاتخاذ خطوة ما، يسبر من خلالها المدى الذي وصل إليه عملي. وقد أرسل لي نائبي في سمرقند يخبرني بحدوث شقاق كبير بين أهالي المدينة، خاصة رجال الدين، وبين حاكمها الخان أحمد بن خضر، ابن شقيق توركان خاتون، وكان صبياً يافعاً كثير المظالم عظيم الغرور. أرسلت في الحال جماعة من بخارى ظهروا في الأسواق بصورة خاطفة وأظهروا أنهم كانوا لدى الخان في زيارة

سرية، وأنهم دعوه إلى دين جديد فاستجاب، ثم اختفوا. ثم ذهب أحد رجالي إلى مفتي سمرقند أبو طاهر بن علك، وأخبره بما سمع. وأضاف إليه أنه لا يستبعد أن يكون الرجال الذي ظهروا في سمرقند من أتباع حسن الصباح، الذي يجدُ نظام الملك في طلبه. تلقف المفتي هذه المعلومة وارتحل في الحال إلى أصفهان، ليرتب مع نظام الملك الشكاية كما ينبغي أن تعرض، ثم قابل السلطان وأفهمه بطريقة ذكية أن الخان أحمد قد صار من أتباع حسن الصباح، الذي لن تلبث دولته أن تظهر هناك. لم يجد ملكشاه صعوبة في فرض قراره بالتوجه إلى سمرقند على توركان، التي لم تكن تحب ابن أخيها ذاك لجمال أمه الشديد، لكنها أصرت على أخذ العهد من السلطان بالحفاظ على حياة الخان وعلى هيبة أسرتها. جُمعت الجيوش وجرَّها السلطان وأتابكه شرقاً، واقتحما المملكة الصغيرة الوادعة، وأُسر خانها الذي تبين من أقواله ومن شهادات الشهود أنه لم يسمع حتى برجل اسمه حسن الصباح. أُرسل الخان مكرماً إلى أصفهان وعاد السلطان في جريدة من جيشه منفصلاً عن نظام، الذي أسقط في يده، وظهر لأول مرة طوال خدمته لآل سلجوق، كذاباً ومفترياً.

في هذه الآونة كنت أعمل بدأب وصبر على تحويل رجال الحامية الديالمة إلى دعوتي، لكن ذلك لم يكن كافياً، كان قادتهم جميعاً من الأتراك، وكانوا ينعزلون عنهم في القلعة الوسطى ويسيطرون من خلالها على القسم السفلي الذي يتواجد فيه الجنود والخدم. وذات ليلة نمي إلى الحاكم مهدي أن ثمة ما يحوكه الديالمة في الخفاء، فأمر بإخراجهم من القلعة وأغلق الباب، وكتب إلى أصفهان يطلب جنوداً أتراكاً أو عرباً دون تفاصيل أخرى. ولحسن الحظ لم يبلغ ذلك نظام الملك الذي ما كان سيفوت مثل هذه الإشارة الكبرى، فالأسدباذي حوَّل الرقعة إلى قائد عسكري لا يفقه شيئاً يتعدى الرمح والترس، رماها باحتقار، ولعن زميله الخامل المجنون مهدي.

أمضيت ما يقارب الثلاثة أشهر في إصلاح خطأ الديالمة. وأصعدت نساءهم

وأطفالهم إلى الجردينة يستعطفون مهدي ويتذللون إليه ليعيد صعاليهم إلى أعمالهم بعد أن أقسموا جميعاً أنهم لا يضمرون سوءاً له أو للسلطان. واضطره إهمال أصفهان لمراسلاته وعدم تزويده بجنود بدلاء، لإعادة المطرودين، فالشتاء على الأبواب، والقلعة تحتاج إلى تحضير طويل، وعمل مضني استعداداً له.

وفي ليلة الثلاثاء، الثالث من شهر أيلول الذي أحب، من سنة ١٠٩٠م، عبرت بهدوء مع أربعة من جنود القلعة، المخاضة الواقعة عند التقاء نهر آلموت مع نهر طالقان ليشكلا معاً نهر شاه رود. كانت المياه تداعب بطن البغل الذي أمتطيه فيما يغزُ الديالمة الصلبين سيقانهم الرفيعة الطويلة في الماء ويجتازونها بسكون تام حتى بلغنا الجردينة. صعدناها مشياً على الأقدام، ثم قبعنا على مبعدة خطوات ننتظر طلوع الصباح. في تلك الأثناء كان قادة دعوتي وما يزيد على ثلاثمائة محارب من الشبان المتحمسين، يكمنون في بساتين شاهراك بانتظار إشارتي.

بعيد شروق الشمس التي صليت لها على صخرة من صخور الجردينة، أعطى قائد تركي صغير الأمر لحارس البوابة الأولى ليفتحها للجنود الذين كانوا خارج القلعة. قدمت نفسي للحارس الذي غمزني ورفع عقيرته وهو يهم بإغلاق البوابة بعنف قائلاً: "هذه قلعة يا مولانا وليست تكية دراويش". وعندما ضمن انتباه قائده غمزني مرة أخرى، فقلت بصوت مسموع: "ما أردت سوى مأوى صغير بالمال الذي أحمل". تقدم القائد بسرعة، ونظر إلى ثيابي البالية بفضول وجشع، ثم قال:"أي مالٍ أيها الدرويش؟". قلت: "يا بني.. أنا متنسك يتصدق الناس عليَّ ببعض النقود التي لا أحتاجها.. وأريد أن اعتكف في هذه القلعة حتى يمرَّ هذا الشتاء فأمضي... فهل لديكم مكان لزاهد مسكين؟". تفحصني ثم قال:"أرني النقود". أخرجت كيساً صغيراً فيه ما يقارب المائة دينار، أخذت قبضة منها وناولتها إياها، ثم سألته متساذجاً: "حقيقية أليس كذلك؟...خذها فإنا لا أحتاجها". تطلع إلى النقود بنهم ثم دسَّها في حزامه قائلاً: "انتظر.. سأخبر سيدي الحاكم". لكنه ما لبث أن نكص على عقبيه وقال منبهاً: "لا تعطي أحداً شيئاً من النقود، سأرتب أمرك".

ذهب وعاد سريعاً، أدخلني من البوابة الصغيرة وقادني عبر الساحة الكبرى إلى القلعة الوسطى، وكان واضحاً أننا سنستمر بالصعود إلى حيث مقرّ الحاكم مهدي. كان القائد الشاب يسدي نصائحه بخصوص النقود، فيما أنا هائم بشرود صوفي حقيقي، أطوف بناظري على الأحجار والصخور والأتربة التي انتظرتني وانتظرتها طويلاً. وعند باب القلعة العليا قال لي بوقاحة شديدة: "ما بك، ألم تفهم؟! يمكنني الآن أن أعيدك من حيث أتيت". ومد كفّه. فوضعت فيها عدة دنانير.

كان مهدي الذي حدث أخيراً في قلعته المملة ما يثير تفكيره الراكد، ما يزال في ثوب نومه الحريري. كان بديناً بدانة الكسالى. سألني عن الطريقة التي اتبع. فقلت اتبع طريق محبة الله. ثم سألني عن "الخوارق" التي استطيع أن أحدثها كصوفي. فقلت أني لا آتي الخوارق. فقال متعجباً: "لماذا يمنحك الناس المال إذن؟!". قلت قد يجري الله بركاته على من يشاء". فهزّ رأسه وقال متعالماً على تابعه لتركي: "أولياء الله الحقيقيون لا يتبجحون بكراماتهم..رضوان الله عليهم". ابتسم التركي ببلاهة وقال ناظراً إلى حزامي: "مولانا يريد مأوى طوال الشتاء، وهو مستعد لدفع ما يترتب عليه من ثمن الطعام والحراسة". سأل مهدي: "لم اخترت هذه القلعة؟". قلت: "لانعزالها وارتفاعها ... ولأنك يا سيدي من العترة الشريفة، أخلاف سيدي رسول الله، وفي كل ذاك تقرب من السر الأعظم". "وما تريد؟ أتريد غرفة مستقلة أم تمكث في مهاجع الجنود". أخرجت كيس النقود وقدمته له، فتعفف عن أخذه لبرهة قبل أن يشير بعينيه لأعطيه للقائد الشاب. أخرجت من مخلاتي جلد الثور الكبير ونشرته قائلاً: "أريد يا سيدي، أن تمنحني مقدار هذا من خلاء الأرض. فأنا لم اعتد على المكوث بين الجدران، بل أتنقل بين الشمس والفيء، تحت سماء الله بحسب الإلهام والإشراق". "ولكن الطقس هنا بارد جداً في الشتاء يا مولانا". قال مهدي مشفقاً. فقلت: "قد يخطر للعاشق أن يحرق نفسه في برد من يهوى". نقّل ناظره بيني وبين تابعه ثم قال: "ليكن لمولانا ما يشاء من أرض القلعة السفلى، وحيثما وضع جلد الثور هذا يمنع اقتراب الجنود

أو البهائم".

أمضيت أسبوعاً آخر أتنقل متلثماً، تحت أنظار أتباعي من الجنود، من أسفل البرج إلى قطعة من السور إلى حافة صهريج ماء، متفحصاً عن كثب تفاصيل المكان الذي حلمت برحمه الآمن سنوات عمري كلها. متلذذاً بملمسه، متنعماً بدفئه، متخيلاً ما سأشيد هنا وما سأبني هناك، في هذه المساحة الصغيرة المرفوعة عالياً، والتي سأرفعها أعلى وأعلى، لأجعلها دولة، دولة صغيرة وصلبة كالمسمار، تذكر في كتب التواريخ جنباً إلى جنب مع الدول الكبرى شاسعة الأطراف.

بهدوء استخرجت من كيسي في الموعد الذي حددته لنفسي سلفاً مسحوق المريّص المغمس وأعطيته لطاهي القادة الأربعة فدسّه لذاك الذي ابتز خمسة عشر ديناراً مني. ظل الشاب متألماً ملتاعاً لثلاث ليال قبل أن ينصحه أحد جنوده باستشارتي مدعياً أنني شفيته من صداع يلازمه منذ سنوات بالتعزيم على رأسه. طلبني إلى غرفته وأبان لي شكواه، قلت باسماً "لا بد أنك أكلت ما لا يجوز أكله". راح يعدد الأصناف البسيطة من الطعام التي تناولها. قلت بتشديد وأنا أخرج الترياق المناسب: "لابد أنك أكلت ما لا يؤكل". أطعمته الدواء ثم رحت أمسح على بطنه المدة التي توقعت أن يسري خلالها الدواء المهدئ في جسده، وعندما رفعت يدي تمسك بها وقد شعر بتأثير مريح، متوسلاً ألا أتركه. قلت وأنا أنهض غير عابئ بتوسلاته: "ستشفى... بل لقد شفيت". ظل واجماً ينظر إليّ برجاء وحيرة.

عند العصر دنا مني بوجه أصفر، غمزته قائلاً: "لقد شفيت، فما جاء بك؟". مدّ يده بالدنانير وقال:"هذه.." . ثم جثا يريد تقبيل يدي مستعفياً. رفضت، وأعدت الدنانير إليه. فسألني أن أكلفه بخدمة. قلت بتردد : "أريد لو أمكث قريباً من حفيد رسول الله". قال أن دخول القلعة العليا صعب، لأن عائلة الحاكم تقطنها، وعرض أن أقطن القلعة الوسطى التي يفصلها عن تلك أضخم أسوار القلعة. قلت "لا اطمع بأكثر من ذاك".

وهكذا انتقلت إلى القلعة الوسطى. بقيت فيها لأسبوع متفحصاً هذا الجزء

أيضاً. وقررت أن أجعله بدوري مقراً لكبار قادتي ولفرقتي الدعاة والفدائيين، اللتين سترتبطان بي مباشرة. ثم جاءني أحد الحراس بمخلاة جلدية مغلقة فتحتها في الليل، ودفعت الثعبان الكبير منزوع الأنياب الذي حوته، أسفل باب سور القلعة العليا.

في الصباح تعالى صراخ امرأة استغاثت بصوت عربي. هبَّ الحراس ومعهم القادة الأربعة لنجدة الحاكم ودخلوا من الباب الكبير وأغلقوه وراءهم. سمعتهم يحذرون بعضهم البعض بأصوات عالية، وقرقعت العصي والأحجار. خشيت أن يتمكنوا من قتل الثعبان، ورحت أطرق الباب الكبير الثخين. فتح الباب أحد الجنود، عرضت مساعدتي، وأسرع الشاب يخبر الحاكم فأمر بادخالي دون أن يتساءل عن كيفية وصولي إلى هذه النقطة من القلعة.

كان الثعبان يرقد في مخزن الحطب، طلبت إبعاد النساء ونزعت ثيابي وتقدمت منه مردداً بعض العبارات الغريبة بصوت عال. ثم استخرجت الثعبان وسألته عما يفعل في هذا المكان، ووبخته لوقاحته ودخوله حضرة حفيد رسولنا دون استئذان. أدنيت فمه من أذني مستمعاً إلى إجابته المزعومة، ثم التفت إلى الحراس ومهدي وسألتهم إن كانوا قد رأوا زوجته التي عضته بالأمس وهربت. نفوا وبدا الذعر على وجه الحاكم. قلت للثعبان أن هذه الحضرة الشريفة مخصصة لراحة حفيد سيدنا وليست مكاناً لحل خلافات ثعبان وزوجته. وأمرته بالرحيل واعداً إياه بإلحاق زوجته به ما أن تظهر. واقتربت من نافذة تطل على الوادي من الغرب وتحمل نسيماً...آه من نسيم آلموت حين يهب من الغرب حاملاً شذى صباح الوادي والنهر المنساب مثل خيط الحياة من تخت سليمان، ليتلظى وسط واديه، في هالة من الضباب والرذاذ الناعم، الذي يطفر من تياره، وهو يتلوى ويلطش نفسه كالمجنون بالصخور الملساء الصلبة على الجانبين... أفلتتُ الثعبان ليهوي إلى قعر الوادي، ووقفت وقد استلبني ذاك السحر أمام النافذة، ينتصب خلفي مهدي وقادته وحراسه بصمت وخوف. قلت لنفسي سأقف هنا طويلاً، فيما بعد. أعلنت أني سأنام هذه الليلة في هذا الجزء من القلعة لالتقاط

الأفعى الفاجرة التي تجرأت على دخوله، فوافق مهدي حالاً، وأفسح لي مجلساً في صدر مقره، لكنني رفضت وطلبت إحضار جلد الثور، فجيء به، نشرته تحت السور الجنوبي وغرقت في الصلاة لأحجار وتراب هذا الجزء، الأعلى والأعز والأجمل، ليس في القلعة وحدها، بل في الأرض كلها.

غفوت عند ذلك السور حتى العصر، أيقظني النسيم البارد. تناولت طعاماً دسماً مما يقدم للحاكم بشهية عظيمة، ثم غفوت مجدداً. لم أكن أطيق انتظار الليل بعينين مفتوحتين. وعندما لم استطع أن أنام لفرط انفعالي مضغت قبضة من جذور اللفاح المسحوق وغفوت بسرور.

عند منتصف الليل فتحت باب السور الداخلي للقلعة العليا الذي لا يفتح إلا من الداخل، وأرسلت الحارس ليفتح باب القلعة الوسطى الذي لا يفتح إلا من الداخل أيضاً، وعبر رجالي الذين كانوا قد اعتقلوا القائد المكلف بحراسة الباب الخارجي ليلتها، وفتحوه ليدلف منه ثلاثمائة من أتباعي بسلاحهم، حيث انطلق بوزرك مباشرة إلى داخل القلعة الوسطى واعتقل القادة وحراسهم الأتراك والعرب، وأوثقوهم بالحبال، فيما اندفعت مجموعة جسورة من المقاتلين الدهستانيين، بقيادة حسين القويني، إلى القلعة العليا، واعتقلوا مهدي في فراشه.

في الصباح لم يستوعب مهدي ما جرى، سألني حين رآني أجلس على عرشه الذي بسطتُ عليه جلد الثور: "ما تفعل هنا؟!". قلتُ: "اشتريت مكاناً بقدر جلد ثور!".

٢٤

سأتخرج بعد أربع سنوات من الدراسة لدى الشيخ موفق بشهادة تخولني العمل كاتباً في ديوان أمير أو وال. فكيف انقضت هذه السنوات؟ الحقيقة أنها انقضت كما يمرُ الوقت على المنهمك في عمله، لم أشعر بمرورها. قراءة وقراءة وقراءة. أتحول تدريجياً إلى ذاك النوع من الدارسين المدمنين الذين صادفتهم في المدرسة وقد بلغوا من العمر عتياً، أنفقوه في تعلم كل شيء دون أن يتعلموا شيئاً عن كيفية الاستفادة مما تعلموا. جهلوا أنفسهم، ففقدوا روح المبادرة، وصاروا يحتاجون إلى من يتخذ القرارات نيابة عنهم. سعيدين بوهن القراءة وبكونهم خزانات معرفة مستعدة للاستزادة والتفريغ دون أي مصلحة أو توجه شخصي. ينكبون على الكتب إلى ما لانهاية ويرفضون أي عمل، يتعتعون ويفأفؤون كلما عرض عليهم، يفهم منه فقط أن صاحبه لا يصلح لشيء، فيرفضهم طالب العمل قبل أن يتمكنوا من تلفيق ذريعة. كنت كلما رأيت واحداً منهم أو شعرت بأنني أسير على خطاهم أسارع إلى اتخاذ مبادرة من أي نوع، حتى لو كانت بحجم قتل ذبابة.

انتهيت من رسائل أخوان الصفا، قراءة وحفظاً ودراسة. ولم استطع استخلاص الرسالة الأخيرة. مع أن أفكاراً عامة تكونت لدي حول واجبنا وطبيعة رسالتنا كشعب – الفرس – وقررت أن أدونها لأقدمها لأبي عندما

ألتقيه هذا الصيف.

لم يغب أبي كما كل أهلي عن خاطري طوال السنوات الماضية، التي لم يصلني منهم خلالها لا خبر ولا رسالة ولا ثوب ولا صرَّة طعام. لا يتوقف الزمن، لكن أهلي توقفوا؛ أمي ودغدوية باكيتين في غرفة المعيشة، وفاطمة عند مخرج حارتنا تناولني النردين وتطلب مني ألا أتأخر، وأبي في المهجع المشترك يقلدني خنجره ويلقنني وصاياه الأخيرة.

بعد رحيل نظام الملك توطدت علاقتي بعمر، نفترق لساعات معدودة في اليوم وحسب. دخلت حياته التي تتوس بين طرفين حديين، الشغف المجنون بالحياة ومتعها ولذائذها، والهجوع الكئيب الصامت صمت الأموات. كانت طريقته في الدراسة أيضاً متأثرة بهذين الحدين، فهو إما يختصر واجباته بعبقريته النادرة ليتفرغ للهو إن كان مزاجه مواتياً، أو ينغمس في التفاصيل ويغوص فيها عميقاً، وفي كلا الحالتين كنت عاجزاً عن مجاراته. كانت أسوأ اللحظات تلك التي يلقي نفسه أثناءها على السرير ويحملق في أخشاب السقف بتركيز مؤلم. كانت أحاديثه أشبه بنار باردة، استمتع بها وهي تخمدني. أرى أنه لو أراد، لو استمر، لطوحني ذرات رماد في عاصفة أفكاره العدمية... لكنه لا يفعل، ذات لحظة يتوقف، يزدرد تشاؤمه، تشي تعابير وجهه بكلمته الأخيرة "ولكن ما جدوى ذلك؟!" ترتد خواطره إلى داخله وتحرقه، يسودُ وجهه اللطيف تدريجياً، ويفقد إحساسه بالواقع. يقول لي: "لو أخبرتك بما أفكر به الآن لدفعتك إلى حافة الجنون!". ومابين حالتيه، البهجة المفرطة والكآبة الساحقة، ثمة برزخ من خمر وشعر، يعبر عليه جسر الأيام. لم يكن احدٌ يعلم في ذلك الزمن برباعياته، غلبت عليه شهرته كسكير. كان لدى أهله مخزون وافر من الخمر في غرفة موصدة مظلمة لا يدخلها سوى والدته وشقيقته الكبرى جهينة.

مناقشتي له في المبدأ، الحلال والحرام، قوبلت بسخريةٍ شديدة، مع أني استخدمت في دفوعي مقاطع محكمة من رسائل أخوان الصفا، مثل أن العقل

خليفة اللّه والخمر خليفة الشيطان فكيف يسلط هذا على ذاك... يواجهني عمر إذ ذاك مبتسماً بأفكاره عن الفناء والزوال، أقول له "مادام الربُ موجود فثمة خلود". "ومن قال أن الربَّ موجود؟!". "الجميع... كل شيء... لو لم يكن موجوداً لما وجدنا". "وما رأيك لو أثبتُ لك أننا غير موجودين أصلاً؟".

ويغرق في ابتسامة سوداء حتى أظن للحظة أني سأرى دخاناً يتصاعد من عينيه الشهلاوين اللتين بلا دين. لكنه كان يسجل في لحظات نشوته خواطره هذه بلا خوف. لا أنسى قط صورته وهو يتناول الريشة والقرطاس، يسند خده الوضاء بلسانه الزهري ويبدأ بكتابة رباعية:

أحس في نفسي دبيب الفناء ولم أصب في العيش إلا الشقاء

يا حسرتا إن حان حيني ولم يتح لفكري حلَّ لغز القضاء

كان التواصل مع الآخرين أحد سبل تسكين هواجسه، كان لطيفاً مع الجميع ويحرص على بقائهم حوله. كان يخاف الوحدة. ولهذا طلب المرأة التي تستطيع أن تقترب منه إلى حد الدخول فيه والتماهي معه.

أما المرأة التي خرج منها عمر، فلم تكن تتدخل في شأنه، حتى أنها لم تكن تتألم لآلامه الغامضة كما تفعل جهينة وزبيدة. كانت تكتفي بالتغاضي عن كل ممارساته الممنوعة والجلوس بالقرب منه باسمة صامتة. كانت تبتسم لي ما أن أهمُ بالكلام، وتشيع فيَّ حالةً من النشوة والثقة، إنها راضية، بل معجبة بكل ما أقوله قبل أن أنطقه. لكنها كانت أيضاً كائناً غامضاً، وكان يثيرني لو أعرف عنها المزيد.

لو... ها أنا استطيع، هيا بنا. ليعذرني صديقي عمر لأنني سأدخل خلسة إلى مضجع أمه. ذلك أن الناس من حقها أن تعرف عن كثب، الرحم الذي انحدر منه هذا العظيم.

ها نحن نجلس ذات أمسية من أماسي حزيران سنة ١٠٥٠م في حديقة بيتهم، نأكل فاكهة متنوعة بعد أن تناولنا عشاءاً دسماً. ها هو إبراهيم الخيام الذي قضى سحابة النهار في متجره الكبير يبيع الأقمشة ويتاجر بالجلود

وصوف الغنم يعتذر مني بأسلوب تاجر لبق، وينسحب إلى غرفته. وما أن يجتاز القنطرة المؤدية إلى الداخل حتى ينزع عمامته القرمزية. تميل الوالدة على زبيدة التي صارت قيمة البيت منذ أن غادرته جهينة قبل شهرين إلى بيت زوجها في الحي المجاور. تردُ عليها زبيدة همساً وتهزُ الأم رأسها مطمئنة وهي تنظر إليَّ. مثل كل مرَّة تقول قبل أن تنسحب بأنني يجب أن أنام عندهم، وأن ذهابي في منتصف الليل "عيب"، فهم أهلي. أقول سأبقى هذه المرة. هاهي تغادر، وها أنا أخرج من جسدي واتبعها.

تظنون أني أتحدث عن كهلة بدينة. لا يا أعزائي، والدة عمر شابة في نحو الخامسة والثلاثين. حين نضت ثوبها الحريري وتلألأ جسدها الثلجي بعد أن لها قوام سمكة بلا عظام. صدرها وبطنها وردفيها وفخذيها وربلتي ساقيها، كلها ممتلئة وذات خطوط منحنية ناعمة، من النوع الذي يفضله السلاطين وسادة العالم. بل أن العتمة العطرية ما بين ثدييها العاجيين أو الأخرى التي ما بين لوحي كتفيها، وحدها تخولها لشغل منصب عشيقة ملك بامتياز.

يناسبها هذا الوصف، عشيقة! خلقت لتكون عشيقة. وحده وجهها يشي بمشاعر أمومة، ما تحت ذلك يشي بالعهر، بالشبق، بكل ماله علاقة بلذة الحياة الدنيا في أكثر صوره إبانة. عندما تمددت على السرير، قالت لإبراهيم الخيام الذي كان قد خلع ثيابه ووقف مع شيئه ينتظران: "تعال". عندما دنا وراح يتحرك ويداعب من ذاكرته، عندما أمرته بلا خجل أن يتأنى عند نقاط ضعفها، عندما بدأت تتهيأ لدخول الجنة بآهات تذيب الشمعة المطفأة، عند ذلك وحسب أدركت سرَّ صمت هذه المرأة التي تتلوى الآن تحت شفاه إبراهيم مثل عاصفة في سرير... فهي من تلك السلالة النادرة التي تعلن شغفها بأعلى صوت وأشد صراخ، من خلال صمتها.

انقلبت على بطنها فتبدى ظاهر الفردوس، من قال أن المرأة الحقيقية مثل الرغيف، تؤكل من الوجهين؟! ليس أنا. المهم: عمل إبراهيم على المنقلب الآخر

بالورع والتقى ذاتهما الذين عمل بهما على الوجه الأول، ماتحاً الحقوين وقبضتي الحب الحريريتين أعلى الحوض اهتماماً خاصاً. لقد حولت العشيقة السلطانية زوجها إلى خادم نزوات، تدخله خلوتها كما تدخل سلطانة، شابة وأرملة، جندياً من جيشها إلى مخدعها كل ليلة ليداعب براعمها، فتنسى رعبها وخوفها من المعركة التي ستنشب غداً. كم كان إبراهيم الخيام سعيداً وهو يستخلص آلته ويهب لمناولتها كأساً من الشراب حين فتحت عينيها بتثاقل وقالت "اسقني". كم هو عبد. تشرب السيدة كثيراً أثناء الجنس، ولا تسمح لإبراهيم بفعل ذلك إلا عندما تغفو بلذّة. يجلس عندئذٍ على طرف السرير متفرساً في الجسد المثير إلى حد الإخافة، يحدق في بُحيرتها الراكدة سحيقة الأعماق. يشرب ويشرب حتى يدوخ ثم يسقط حيث هو. لا يجرؤ بتاتاً على الاندساس تحت إبطيها اللذان يتوق إليهما. جرب هذا يوماً فنال رفسة أسقطته عن السرير.

توفيت السيدة باكراً جداً بمرض غامض، ولم يلبث عبد شهواتها أن تبعها. اعتقد أنه لو حدث العكس لكانت فضيحة في نيسابور. فالأرملة الشابة كانت ستتكشف حين ذاك عن أنثى باسلة، لا يقف شيء في طريق نزوتها. طبعاً توفيا بعد سنوات من هذه اللحظة ولم أعلم بذلك في حينه لأني كنت أذرع الهضبة الفارسية الحبيبة في أسفار ومهمات لا تنتهي.

لنعد إلى الحديقة، ها هو عمر المنحدر من ذلك الصلب، وهاهي زبيدة وقد بقينا نحن الثلاثة فقط بعد انسحاب شقيقه الصغير لينام. يلتفت عمر بين الفينة والأخرى إلى الجهة اليسرى من الحديقة وينظر إلى زبيدة الماكرة التي تتظاهر بعدم القدرة على النوم بسبب الحر. كان عمر ينتظر انطفاء الفانوس في الطابق العلوي للبيت المجاور حيث تقطن أول امرأة قطنت جسده "سارة"، صديقة أخته الكبرى جهينة ومجايلتها. تعلم الأسرة كلها بعلاقة سارة وعمر التي نشأت منذ زمن بعيد، ويحرصون على بقاءها طي الكتمان، وعندما يتم تناولها في الأحاديث يتم ذلك على أنه مزحة أو دعابة. زبيدة المتيقظة، تنظر إلى عمر

المتحرق المتوتر وتغمزني بمكر مشيرة إلى مأزقه. سارة التي تراقب من وراء ستار لن تطفئ الفانوس قبل ذهاب زبيدة. هذه تبتسم خلسة. أخيراً سحبني عمر من يدي: "تعال إلى السطح سأريك نزول عطارد في برج السرطان... أنتِ اذهبي إلى النوم لا يجوز أن تبقي في البستان وحدك".

صعدنا إلى السطح وحملت زبيدة الفانوس وغادرت الحديقة، ثم انطفأ الضوء في نافذة زبيدة فهبطنا مسرعين. عملت من كفيَّ زورقاً صعد عليه عمر وتسلق الجدار الذي يفصل حديقتهم عن حديقة ذوي سارة، وهبط بهدوء إلى الجهة الأخرى. جلست تحت شجرة الرمان أمسد زغب رقبة ظبية عمر سارة. للحظة فكرت بأن سارة التي في الجهة الأخرى لا تقل جمالاً ونعومة عن هذه السارة. ترى ما يفعلان الآن؟ وضغطت على لحم سارة الضئيل الدافئ. تذكرت ما يحكى عن إتيان بعض الشبان للحيوان... لم أتذكره بذلك التقزز الذي يخطر لي فيه نهاراً. تنصَّتت جيداً، سمعت هسيساً لذيذاً في الطرف الآخر. تراه يصدر عن احتكاكهما؟ حركت غصناً فتوقف الهسيس. إنه صوت عملهما إذن... مسَّدت زغب سارة ونظرت إليها بشهوة حقيقية... ليس الأمر مقززاً إلى تلك الدرجة!. في هذه اللحظات بالذات سمعت صوتاً يسري في الصمت المتوتر، صرير نافذة تفتح في الأعلى، في أعلى بيت الخيام حيث غرف نومهم. لا أدري نافذة من كانت لكنها قد تكون نافذة الأب، لم يسبق له أن خرج بعد دخوله إلى هناك. ماذا لو كانت زبيدة؟ انكمشت في عتمة شجرة الرمان محتمياً بسارة. الظلمة الشفيفة تلف المكان لكن إن ركز المرء نظره يرى بشكل جيد. أخاف من زبيدة. إنها لا تخجل. ولن تتوانى عن التلميح وربما التصريح بأنني أساعد عمر في فحشه. لا أدري كيف سينظر إلي الآخرون عندها. هذه المتهورة ترى أن إفشاءها سراً كهذا ليس شيئاً مهماً، ولكنها لا تعلم مثلاً أن إبراهيم وزوجته سيتساءلان: "وما يمنع شخصاً هذه أخلاقه من إساءة الأدب مع ابنتنا؟" سأكون موضع اتهام سري وربما أراقب جيداً، ربما يأمر ابنه عمر:"لا تدعه إلى البيت مرة أخرى". وهي قد تؤكد كل شكوكهم. فهي تتباهي بمغازلة الشبان لها في

الحي عندما تخرج، وتذكر بدقة كيف نظر إليها بائع الأقمشة في السوق، والجواهرجي المسن الذي دبت فيه الحياة وقال "ما شاء الله" حين أعطته يدها ليجرب السوار!.

سمعت صوت حركة أخرى صادر عن مدخل البيت، ثم برز من العتمة خيال أسود، تقدم نحوي حتى صار على بعد خطوتين، وفي ضوء القمر عرفت أنها زبيدة. كانت قد ارتدت ثوبها الحريري الأسود الموشى بخيط ذهبي ناعم، واتزرت بحزام جلدي عريض أسود أيضاً. تطلعتْ في المكان متفحصة. قلت: "عمر...". فهمستْ: "اخفض صوتك". خفضته. همستُ: "عمر... صعد إلى السطح ليرصد كوكباً". "حقاً!". تساءلت مذبلة جفنيها ومهدلة شفتها السفلى بدلع مثير. تابعت وهي تشخص بوجهها جانباً كظبية متوجسة: "ظننته سقط على سارة في الحديقة الأخرى!"... الشيء الوحيد الذي كان يتحرك في هو شيء مستتر لحسن الحظ. كنت أتعرق بشدة. كنت أمسك عنق سارة الظبية ساكناً كحجر. مدَّت يدها إلى يدي كما تمدُ لالتقاط عصفور فهربت بها في الوقت المناسب إلى ما وراء ظهري. كي لا تحبط زبيدة الأمر تظاهرت بأنها تريد مداعبة الظبية. جثت قربها وحصرتني في مكان ضيق بين السور وشجيرة الرمان. همست: "جميلة سارة!". قلت: "أجل". "ألا تريد أن يكون لك مثلها؟". قلت بحذر: "بلى". وأردت أن أستدرك فأقول "لا" لكنها عاجلتني بقولها: "يا لعين يا ماكر... لطالما قلت أنك تدعي هذا الخجل لتصل بسهولة إلى مآربك... يالك من داهية". "أنا؟" نبرتُ مستنكراً فردت هامسة: "طبعاً أنت... وهل يوجد أحدٌ سوانا هنا؟ أم أنك تظن أنني لم ألاحظ نظراتك النارية هنا وهنا" وأشارت بيدها إلى صدرها وبطنها إشارات عامة. "أنا؟ متى؟" سألت بانفعال بدا تماماً أنه انفعال خائف. "ما أن ينشغل أهلي. نظراتك حارقة مذيبة... آه إنها تقتلني". أهو فخ؟! زبيدة تقول أكثر من هذا عن الذين "يحرقونها" بنظراتهم في السوق. وتتأوه مثل هذه الآه بلا خجل، وهي تصف حلاوة تلك النظرات. هل تنصب لي شركاً؟ وأنا هل أريدها أم لا؟ أنا؟... أنا أتحرق.. لكن.. لكنني خائف. قلت بحدة

الخائف الذي لابد له من أن يخوِّف الآخر لينجو: "أنت مخطئة... أنت شقيقة صديقي وأخي ولا يمكنني أن أفكر بك بتلك الطريقة". "وما شأن صداقتك بالعشق؟". قالتها باستغراب حقيقي. لم أجد ما أقوله فرددت بما أعرفه سابقاً: "أنت أكبر مني سناً". قالت كأن طاقة أمل فتحت: "وسارة أكبر من عمر بخمس سنوات". "عمر لن يتزوج سارة. إنه يلهو معها وحسب". "ونحن سنلهو. أم أنك لا تجيد اللهو؟". قالت ذلك ودنت مني تريد التقاط أصابعي. تراجعت حتى استندت إلى الحائط. قلت: "لا... لا أريد". "لماذا؟.. ألست جميلة؟". "أنت جميلة ولكن...". "ولكن ماذا؟". دنت أكثر وتأكدت أنها أطول مني. تراجعت بنصفي الأسفل إلى الوراء كي لا تلمسه. تذكرت رسائل أخوان الصفا الراسخة في أعماق ذاكرتي، قلت: "هذا حرام... الرب أمرنا إن نحن رأينا صنعة محكمة أو شخصاً جميلاً أن نتفكر في صانعه وباريه وأن نقتدي به...". ضغطت يدها على فمي بعصبية وقالت: "حسن لا تكن أحمقاً، لقد أحببتك وأريد أن أمنحك وأمنح نفسي بعض السعادة". ورفعت يدها لتقول: "لدينا فرصة نادرة لنعش لحظات رائعة فلا تهدرها". واقتربت بوجهها من وجهي، شعرت بنفسها اللذيذ وبرائحة شفتيها الطريتين قريباً جداً من شفتي وهي تهمس: "ها... ماقولك؟". ثم مغمضة العينين: "قبلني...". تململت، رفعتُ يدي إلى مستوى كتفيها. ورفعت يديها لتتلقاهما كأنها في حلم. باغتها ودفعتها. لم أكن أقصد أن أدفعها بتلك القوة، لكنني كنت متوتراً جداً. وقعت الفتاة على مقعدها وبرز ساقيها في الهواء من خلال الحرير الأسود. خفتُ. على ضوء القمر رأيت نظرة ليوة حاقدة متوحشة تقول بتوعد: "يا كلب". كما فعلت سابقاً سلكت طريق التخويف لطرد مخاوفي. قلت بثبات وأنا أشير إلى الأعلى: "هيا اصعدي إلى غرفتك وإياك أن تحاولي فعل شيء كهذا مرة أخرى وإلا فإني سأخبر والدك وعمر". بصقت في وجهي وهمت بضربي فاتخذتُ وضع المتأهب لهجوم مضاد. خفضت يدها وقالت من بين أسنانها بحقد لا يوصف: "كلب.. حقير". ثم هرولت إلى الأعلى. كنت في السابعة عشرة عندما حدث ذلك، ولا أزال نادماً لأنني فوت تلك

"الفرصة النادرة". نادم إلى درجة أني أنصح كل يافع وشاب بألا يفوت فرصة كهذه إن عرضت له، لأن الحياة ستعاقبه بقسوة. طبعاً أنا لا أقصد الشيء المخيف الذي حدث تلك الليلة بعد ساعات من موقفي مع زبيدة. ليست تلك القسوة الكونية. أقصد بدقة قسوة البشر حين يتحول تعاطفهم وربما محبتهم إلى عداوة وكره... ولأي سبب؟ ما كانت تبتغي مني زبيدة أكثر من تلك الحركات التشنجية التي تشبه الجماع؟ أهذا شيء خطير إلى الحد الذي يستوجب إهانتها؟! لا أعتقد. بل أجزم بأن تزاوجاً بين خنفسين منتني الرائحة في مفازة شاسعة نجم عنه خنفسٌ صغير منتن، أكثر خطورة مما دعتني إليه ليلتها. وليلتها لم أنمْ. عباراتها: "نستمتع، نلهو، فرصة نادرة" كانت تؤجج خيالي مرة بعد أخرى. مارست العادة التي علمني إياها شقيقها عدة مرات. وعندما وقفت أخيراً عند النافذة أحاول أن أفكر بهذا التطور الغريب، شعرت بأن ما رداً رفعني إلى الأعلى ثم أفلتني. ووقعت ثم استندت إلى جدار النافذة فسحبني بقوة هائلة إلى الخلف ثم دفعني إلى الأمام فارتطمت بالنافذة. حملني بعد ذلك بيدٍ خفية ورماني على الطاولة فشعرت بانغراز زاويتها في ظهري، ثم لطمني بالجدار المقابل. ثم كأنه حمل خزانة الطعام الصغيرة وهوى بها فوق رأسي. ثم كان الصمت والظلام المطبق. كنت في الزاوية غير مصدق. شعرت بألم إصابات لم تبرد بعد، وأحسست بحرارة نزفٍ ما تتحرك على خدي الأيمن. فجأة خرج الخادم إلى باحة المدرسة وراح يصرخ بهستيرية: "اهربوا... زلزال!".

٢٥

ما أن تسامع أتباعي في كل أنحاء فارس بخبر استيلائي على آلموت حتى حزموا أمتعتهم يريدون إلقاء أنفسهم عليها، فطيرت عشرات الحمامات الزاجلة لأبقيهم حيث هم. لأني أردت للقلعة أن تكون وحسب عاصمة لدعوتنا، التي ينبغي أن يحضر أتباعها في كل مكان، على أن يلجأ إليها من يكتشف أمره أو يداهمه الخطر.

أما نظام الملك فقد وقع عليه الخبر كالصاعقة. ذبلت نفسه، ولاذ بصمته وكآبته. وأما السلطان فقد استدعى قادة جنده وأمرهم باستعادة القلعة بأي ثمن دون أن يستشير أتابكه، الذي بدا عليه أنه على قناعة بأن انتزاع كوكباً من مداره أسهل من انتزاعي من موطئ قدمي ذاك. قادة الجند وصفوا وجودنا في القلعة بالثألولة التي لا يخشى جانبها، لكنها مزعجة ولا بد من استئصالها، لكن التحضير الجيد يقتضي وقتاً رؤوا ألا ضرر من منحه للأمير أرسلان طاش، الخبير بحروب الجبال، الذي أسند إليه قياد المهمة. وهذا طلب ما لا يقل عن السنة لتدريب مقاتليه، وإعداد الأسلحة الضرورية لهذه المهمة الخاصة.

وبينما طلبت من الأسدباذي أن يتابع الاستعدادات عن كثب وأن يخبرني بها أولاً بأول، شرعت بإعادة خلق القلعة.

كان لسطحها العلوي رسم فتاة ترتدي فستاناً واسعاً من الأسفل، ولها صدر

صغير جميل يعلوه رأس أشم شامخ. على الأرض، من الخصر حتى الجردينة أمرت أن تبنى مستودعات القمح والشعير والأعلاف، والإسطبلات وزرائب الأغنام والماعز، وأن تحفر الخزانات في الصخر لتخزين الماء الذي يتساقط شتاء، وأن يشاد صفين متقابلين من الحوانيت لتصبح سوقاً للصنائع فيما بعد. ثم مساكن لعامة الجنود وعائلات القادة. وعلى الصدر أمرت بإشادة مبنيين تتوسطهما ساحة تدريب، جعلت الأول مدرسة لتدريب فرقة الدعاة الذين سينتشرون في مختلف الأقاليم ويرتبطون بالقلعة بنظام يتعلمونه أثناء الدراسة؛ وجعلت من الآخر مقراً للفرقة التي سيبث اسمها الرعب في الشرق والغرب: "الفداوية".

وعلى الرأس في الأعلى أقمت مقريً الذي يكشف القلعة كلها من ناحية الشرق، ويطلُ على وادي آلموت وأنداج من جهة الغرب، وفي زاويته الجنوبية الغربية التي فرشتها بالتراب الجيد المجلوب من شاهراك، زرعت أول شتلة كرمة في أعلى القلعة، بالإضافة إلى شجيرات الورد والصفصاف وأنواع مختلفة من الزهور.

قصرت الإقامة في الجزء السفلي على ما استطيع تسميتهم بعامة دعوتنا، وهم الرجال والنساء الذين توقفوا عند حد الاعتقاد بأننا نتبع الدعوة الفاطمية في مصر، وهم خليط من الصناع ومربي المواشي والبنائين الجيدين وأصحاب الحرف المختلفة التي لا تكتفي القلعة إلا بهم. أما الجزء الأوسط فقد خصصته للقادة ولطلاب المدرستين اللتين أرسلت إلى نوابي في كل مكان أطلبهم. طلبت تحديداً فتياناً دون العشرين، مشهود لهم بالحماس للدعوة لألحق الأذكياء البارعين منهم بمدرسة الدعاة، والشجعان ذوي الشكيمة بمدرسة الفداوية.

التحق بعد شهر واحد سبعة وعشرون طالباً بمدرسة الدعاة وثمانية عشر بمدرسة الفداوية. وضعت على رأس المدرسة الأولى صديقي القديم عميرة وأعطيته مخطط المدرسة لينفذه مع الحرفيين والطلاب الملتحقين، فيما تركت أمر تكوين وتدريب الفداوية لرئيسها حسين القصراني الذي كان مقاتلاً شاباً

تلقى أفضل التدريبات في جيش السلطان السلجوقي.

بعد شهرين من تكليفي له تجولت مع عميرة سراً في المدرسة الصغيرة التي كانت تحفة جميلة متقنة في ذلك المكان الذي كان بالأمس بقعة موحشة جرداء. فقد شيدوا قبة كبيرة في أعلاها صورة للأفلاك وكيفية دورانها وأبراج طلوعها، والكواكب وحركاتها. وصوروا في صحن المدرسة صورة الأرض وأقسام الأقاليم وخطط الجبال والبحار والبراري والأنهار، وبينوا حدود البلدان والمدن والمسالك إلى الممالك. وكتبوا في صدر المجلس علم الطب والطبائع وصور النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها وبيان خاصياتها ومنافعها ومضارها. وكتبوا في الجانب الآخر علم الصنائع والحرف وبينوا كيفية الحرث والنسل وصور المدن والأسواق وأحكام البيع والشراء والربح والتجارات. وكتبوا في الجانب الآخر علم الدين والملل والشرائع والسنن وبينوا الحلال والحرام والحدود والأحكام. وكتبوا في الجانب الآخر علم السياسة وتدبير المملكة وبيان كيفية جباية الخراج والكتابة والدواوين وبينوا أرزاق الجنود وحفظ الرعية والثغور بالجيوش والأعوان. وكل هذا في سبيل تأهيل دعاة يستطيعون أن يتغلغلوا بين كافة فئات المجتمع ويتعاطوا مختلف الأعمال ويتدرجوا في المهن والمناصب، ويخدموا من هناك دعوتهم السرية.

أما مدرسة الفداوية فقد كانت مكاناً عسكرياً حقيقياً، يحيا فيه الشبان الذين أعدت انتقاءهم بناءً على المعطيات الدقيقة التي جمعتها عنهم بنفسي. وأعطيت القصراني إشارة البدء لانطلاق التدريب وعندما سألني أي نوع من التدريب يريدني أن أعلمهم، أجبته باختصار أني أريد تربية قاسية، وتدريباً شاقاً يعتمد على الحرمان والتقشف، وفكرة أن كل واحد منهم سيعمل منفرداً.

كان البناءون قد زادوا حصانة السور الذي يفصل القسم العلوي حيث أقطن، وجعلوا في أعلاه ممشى يمكنني الوصول إليه من درج حجري داخلي. وأمرت ببناء ما يشبه غرفة صغيرة للمراقبة فوقه، أرى منها بدقة متناهية ما يحدث داخل المدرستين متى رغبت. وفي هذه الغرفة سأجلس لساعات طويلة أدون سراً

الملاحظات والانطباعات عن الطلاب، خاصة الفداوية.

ألحقت ولدي بتينك المدرستين. حسين الذي كان فتى عاقلاً، لكنه لا يكن لي أيما أعجاب صار في مدرسة الدعاة، وألحقت محمد الذي لم يتوان عن إبداء هزءه مني، بمدرسة الفداوية. كانت أعمارهما على التوالي ستة عشر وخمسة عشر عاماً. وكان عمر الطفلة فاطمة قد بلغ الأربع سنوات، ولم تكن تشبه فاطمة شقيقتي بشيء. أما زوجتي فقد ظهرت كعجوز بائسة مع أنها لم تكن قد تجاوزت السابعة والثلاثين من العمر، وقد مارست الجنس معها في القسم العلوي مرتين. ولولا التهيج الناجم من انقطاعي الطويل عن النساء وعن انتصاراتي المثيرة، لما استطعت أن أكمل أي من الجماعين، الذين ولعجبي الشديد، أثمرا حملاً آخر.

عندما أرسل لي الدهدار من قاشان يخبرني أنه قد اشترى الفتيات كما أمرته، طلبت من زوجتي أن تتوجه إلى بيت صغير في الجزء السفلي من القلعة، لتحيا مع ابنتي فاطمة كما يحيا بقية أتباعي. لم تعترض، كل ما فعلته أنها أطمأنت على حسن ترتيب غرفتي، ونظافة ثيابي قبل أن تغادر. لكنني توجَّست خوفاً من محمد الذي يغادر مدرسته عند غروب كل يوم، ويقرع الباب الثخين الذي يفصل الجزء العلوي عن باحة المدرسة، طالباً من شرف أن يفتح له الباب ليطمئن على والدته وشقيقته. بالفعل جاء في موعده بعد يوم تدريب شاق على فنون تسلق وهبوط الجبال من المنافذ الوعرة، وكاد كلُ من في الساحة يسمع سبابه وهو يعبرها إلى القلعة السفلى ضارباً عرض الحائط بتعليمات القصراني الذي يمنع خروج الفداوية أو اختلاطهم بالآخرين، بما في ذلك طلاب مدرسة الدعاة الذين كانوا يجتمعون معهم في دروس العقيدة فقط.

كانت الفتيات اللواتي أمرت الدهدار بشرائهن ثلاثة؛ تركية طويلة وممتلئة ومرصوصة وبيضاء، مثل قالب شهد ممشوق، اسمها بروانة، أي الفراشة، وأرمنية يشاهد الدم وهو يتدفق تحت بشرتها الشفافة، اسمها جالا، أي قطرة الندى، وعربية سمراء ناعمة التقاطيع رقيقة الحاشية، ليس فيها شي غليظ أو

كبير، سوى عينين سوداوين مثل عيني غزالة مذعورة اسمها زهرة، ولم تكن تعرف الفارسية ولم تتلق تدريباً كافياً مثل رفيقتيها اللتين كانتا، خاصة التركية بروانة، ذات خبرة لا بأس بها في القصور والمخادع، تنقلت بين يدي عدد من التجار والأمراء قبل أن نحصل عليها لقاء ثلاثمائة دينار.

حتى ذلك الوقت لم أكن قد ظهرت لأتباعي ولم يكن قد شاهد وجهي في القلعة مذ استولينا عليها سوى خادمي شرف والدهدار وأبو الفتوح. كنت أخاطب الجميع بما فيهم بوزرك والقويني من وراء الحجاب الذي يفصل غرفتي الداخلية عن الغرفة الخارجية المفروشة بالبسط، والتي يجلس فيها زواري لتلقي التعليمات. حتى عندما تجولت مع عميرة والقصراني في المدرستين، كنت أسدل على وجهي نقاباً رقيقاً أبيض.

الأمر عينه انسحب على الفتيات اللواتي اقتادهن أبا الفتوح والدهدار وشرف إلى القسم المطل على الوادي حيث الحديقة ومسكنهن الذي سيشار إليه من الآن فصاعداً ببيت الفتيات. وهو عبارة عن غرفتين مفتوحتين على الحديقة ملحق بهما حمام ومرحاض صغيران، يقع في مستوى أدنى من غرفتي الخاصة التي فتحت فيها كوة صغيرة سريَّة تطلُ على الحديقة والغرفتين للمراقبة.

أفهموا الفتيات اللواتي حشرن برعب في زاوية الحديقة وقد أذهلهن الجو الغريب الذي لا ينتمي إلى عالم القصور وحريمه المرفَّه، بأن مهمتهن ليست التسرية عن سيد أو أمير، بل تنفيذ أوامر شخص يكاد يكون الرب ذاته يدعى "سيدنا ... عليه ما يستحق!". أشاروا محذرين إلى الغرفتين الشاهقتين المصمتتين المطلتين على الوادي السحيق وقالوا: "الصوت العالي ممنوع. الضحك والميوعة ممنوعة. كل شيء بأمر، من التحرك خارج الغرفتين إلى التدرب على الرقص والغناء".

بالفتيات الثلاث استكملت بناء حلمي، وأعطيت الإشارة لتدب الحياة في شرايين دولتي غير المنظورة بوتائر متسارعة. كنت أجلس عند كل عصر لأراقب من مرصدي على السور الداخلي شبان الفداوية وهم يقومون بتدريباتهم على

المبارزة والرماية، وطلاب مدرسة الدعاة يستظهرون مع أساتذتهم دروسهم بحيوية ونشاط، ثم أرفع ناظري أعلى قليلاً، إلى الشرق لأرى الجزء السفلي يضج بالحياة وتتصاعد خيوط الدخان من بين البيوت والزرائب فوق أكوام القش والتبن المرفوعة على الأسطح كي لا تجرفها السيول، وصهاريج الماء المنحوتة في الصخر وهي تتلألأ صافية نقية. ثم إلى الشرق قليلاً حيث الجردينة التي يصعد عبرها الجنود والعمال المكلفون بشق القنوات من الأعلى، حيث بعض الينابيع، إلى داخل القلعة والى الخندق الذي أمرت بنحته حولها. والى الغرب من مرصدي كانت الحمامات الزاجلات تحطُ طوال النهار، فيسارع شرف إلى إلقاء الشبكة الصغيرة فوقهن ويفك الرسائل ويأتيني بها، فأجيب على بعضها مباشرة وأتريث بالرد على بعضها الآخر. وفيما وراء الحيطان السميكة في الحديقة التي تطل على الوادي كانت الفتيات الثلاث يصنعن عالماً أشبه بعش سحري لأنثى طائر رائقة وذواقة ومتشهية، تقودهن الخبيرة بروانة التي فرضت شخصيتها القوية على زميلتيها، وعلى شرف الذي بات أقرب إلى خادم لديها، من ذاك الرجل الذي قيل لها أنها ستتلقى الأوامر منه.

بحلول الربيع، كانت طاقة شرف على تحمل حلاوة الفراشة قد نفذت. وجاءني متوسلاً أن أسمح له بالزواج. أرسلته سراً مع الدهدار إلى يزد حيث عقد قرانه على ابنة سيده السابق الصغرى، وجاء بها إلى القلعة. سمحت لهما بالاقامة معاً في القسم العلوي، في غرفته الصغيرة، لتقوم على خدمة شؤوني الخاصة البسيطة، من طعام ونظافة وملابس وغيرها، دون أن تطأ القسم الذي أقطنه أو تراني، وكنت أراقبها وهي تخرج بسرعة خاطفة وعينيها لا تريان سوى موطيء قدميها، خشية أن تراني أو ألمحها ... كانت خائفة مني وخجلة... وكان اسمها بثينة.

❖❖❖

٢٦

لم يضرب الزلزال الريَّ. بيتنا لم يتأثر، آل الخيام وبيتهم لم يصابوا بأذى أيضاً. نظام أرسل من بلَّخ حلوى وقال أنه بخير. الزلزال أصاب جزءاً من خوزستان وخراسان وإيذج، وكان على أشده في بيهق، حيث انتهت أسفار أبي، عندما سقطت عارضة على أم رأسه، وفارق الحياة بعد ثلاثة أيام.

عدت إلى الريَّ بعد أن يئست من معرفة شيء عن أهلي. كلف الشيخ موفق عدداً من المسافرين بالسؤال عنهم لكن أحداً لم يأت بجواب شاف. أخيراً أعطاني نقوداً وقال "اذهب وأطمئن بنفسك". أعتقد أنه عرف من طريق أحد تلامذته في الري شيئاً.

مهما يكن، أعتقد الآن أن رحلتي مع الشيخ موفق قد انتهت. لابد للبيت من رجل. وجوهر، خطيب فاطمة، لا بد أن يختفي من حياتنا. لا أدري كيف قبل أبي باقتران فاطمة التي غدت طفلة فاتنة الجمال، بهذا العتَّال المغرور. ولا كيف وافقت هي.

لم يخطر لي يوماً أنني قد أتغير بهذه السرعة من شخص وهب حياته لأمته، إلى شخص يقصر نفسه على رعاية أم وأخت طفلة. لم أفكر حينها بكيف ستكون حياتي بعد ذلك: أتزوج، أزوج فاطمة من شخص مناسب، يأتي الأولاد، وفي منتصف العمر أنقل كما فعل أبي أحلامي عن كاهلي لأضعها على

كاهل أولادي، وهؤلاء قد لا يكونون جديرين بحملها ... تموت أمي، أشيخ، أموت... لم أفكر بأن الحياة ستسير على هذا النحو البائس. كان تفكيري محصوراً بالعمل الذي يجب أن أحصل عليه، والنقود التي سأعطيها لوالدتي قبل نفاد مدخراتنا الضئيلة، والمبلغ المتواضع الذي جلب لا أدري من أين، مع خبر موت أبي.

أخبرت أمي بأني سأبحث عن عمل بما حصلته من علم، وأني لن أنتظر إجازة الشيخ موفق، فاعترضت بشدة. قالت أنها طالما حلمت بعودتي مجازاً لأتولى منصباً مرموقاً. قالت أن احتياجاتها يسيرة وهي لا تشكل عبئاً، وابنتيها لن تنسياها. فزوج دغدويه في حالة حسنة وفاطمة ستتزوج وتعيش لدى زوج. صرخت: "تتزوج هذا المنفوخ الأرعن... لو أن تعليمي سيجعلني وزيراً فلن أقبل بهذه المهزلة". تطلعت إليَّ فاغرة الفم: "ماهي المهزلة؟!". "هذا الرجل لا يستحقها ولا يستحق مصاهرتنا". تطلعت نحوي باستغراق. قالت: "يا بني أنت تبالغ... نحن نأمل بأن تغدو شيئاً مهماً لتنتشلنا من هذا الحضيض... من تظننا؟! أتظن أن أباك كان أمير العسكر أم قاضي القضاة؟". "بل كان فوقهم جميعاً... أنت لا تفهمين". صدمتْ. قالت: "بل أفهم".

جمعت وجهها إلى ركبتيها وراحت تهزُّ رأسها إلى الأمام والخلف. بكت ثم قالت بغمٍّ: "... أورثك علته". دنوت منها واحتضنتها، لطالما حلمت بمعانقتها كما يفعل عمر مع أمه. فوجئت بها تدفعني بنفور. ما بهم؟... أهؤلاء هم أهلي الذين حلمت لخمس سنوات بلحظة الارتماء في أحضانهم. أفهم أن دغدويه المشغولة بأبنائها الثلاثة أمٌ ترى العالم من خلالهم. لكن أمي؟! إنها تعامل زوج دغدويه وخطيب فاطمة أفضل مما تعاملني. لِمَ؟ ألأنهما يحملان إليها بعض الطعام وتفكر بأنهما سيعيلانها بعد رحيل أبي؟ وفاطمة تلك التي تقف لساعات عند الباب تتبادل معه الهمسات والضحكات ولم يمض شهر على رحيل أبي ما تجد في ذلك البغو؟ ما كان يحدث بينهما؟ تذكرت غياب أبي المتواصل وفناء الدجاج الخالي وراء بيتنا .. لا أنسى كيف أجابت فاطمة التي لا تكفُّ عن

التحديق في خاتم خطبتها، عندما سألتها: "ألا زلت تحبين اللعب بالنرد؟... لازلت أحتفظ بالحجرين". "أي حجرين؟!". وعجزت عن تذكر القصة.

أخبرتني دغدوية بأن أحداً لم يحزن كما حزنت فاطمة على فقد أبيها، وأنهم خافوا في الأيام الأولى أن تفقد عقلها. لقد عاملها والدنا بخلاف ما كان يعاملنا. كانت تنتظره بفارغ الصبر ليأت لها بالهدايا والحلويات. أخبرتني بإلماح شديد أن فاطمة قد تكون فقدت جزءاً من عقلها السابق بسبب ما حدث للوالد. أما خطيبها فقد أختاره الأب عن قناعة وقد ثبت حُسن اختياره خلال محنة فاطمة، فلولا وقوفه إلى جانبها ما خرجت من أزمتها، وهذا سر امتنان أمنا له. "لقد كان شهماً حين لم يعامل فاطمة كمجنونة". قالت هذا بمحبة وتفهم وأضافت: "تعلق أبي بفاطمة حين مرضت عند ذهابك إلى نيسابور، وكانت تطالب بك طوال الوقت في حُماها. خطيبها قال لها يوماً ما أفعل كي تحبيني كما تحبيه؟!". لكنني سأنسى كل هذا عندما سأشاهده في الصباح التالي وهو يعرج إلى بيتنا ليتناول شربة ماء - ماهذا الخيال القاصر؟ ثم يغمزها ببعض الهمسات وتكركر هي بضحكات مكتومة.

فكرت فيما أنا في الفراش بنظام الملك الذي لا أعرف أحداً يعينني على إيجاد عمل لدى السلاجقة سواه. لم يخيِّب هذا الشاب ظن الآخرين ولمع بسرعة في الديوان البلخي، جنباً إلى جنب مع بزوغ نجم أول سلطان حقيقي من هذه الأسرة، الشاب أيضاً ألب أرسلان بن جغرلبك. عين الحسن الطوسي مع بعض التحفظ وزيراً للأمير الشاب الذي سيرث السلطنة من عمه العقيم طغرلبك. ويومها كتب لأستاذنا الموفق يطلب تلقيبه بلقب مناسب، فاختار له لقب نظام الملك.

لبست أفضل ثيابي وتوجهت إلى ديوان نائب والي الريّ. سألته إن كان بإمكاني أن أرسل كتاباً عبرهم إلى نظام الملك وزير الأمير ألب أرسلان. وعرَّفت بنفسي كصديق شخصي للوزير وزميل دراسة. بالطبع دهش النائب لصغر سني نسبة إلى سمعة الوزير الصاعد واستفسر بدقة عن معنى هذه الزمالة فحكيت

له مطولاً عن حياة نظام ومعرفتي به متعمداً إعطاء معلومات تفصيلية تؤكد صداقتنا. أخبرته في النهاية عن ظرفي الذي اضطرني لترك الدراسة والبحث عن عمل. عاملني الرجل باحترام شديد وبنوع من التودّد تحسباً لما قد تتمخض عنه الأيام المقبلة. نصحني بمتابعة دراستي "فحينها سيكون بمستطاع الوزير تعيينك في منصب كبير"، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، أسرَّ لي بأن طغرلبك غاضب من نظام الملك الذي قاد مع ألب غارة على مدينة فسا، وغنموا ألف ألف دينار، أخفوها ولم يذكروا شيئاً عنها خشية أن يعلم بأمرها طغرلبك فيرسل طالباً حصة منها. وقد بلغ السلطان أن نظام الملك هو من أشار على الأمير بهذا الرأي. ولهذا عليَّ أن أتريث قبل طلب توصية منه للتعين في الري. وعرض مساعدته الشخصية للعمل في الديوان مقابل عطاءٍ يبلغ أربع دنانير في الشهر فوافقت فوراً واتفقنا على أن التحق بعملي صباح اليوم التالي.

في طريق عودتي عرجت على سوق العتالين ثم اتخذت سبيل البيت تملؤني النشوة. أخبرت والدتي فيما أنا أتقدم إلى مائدة الغداء بجوع حقيقي بالخبر السار عن العمل. برمت شفتيها بانزعاج لكنها آثرت تأجيل بحث هذا القرار إلى ما بعد الغداء، فيما بدا على فاطمة الانتباه والاحتراس مثل ظبية سمعت صوت وقوع قشة. لم أمهلها كثيراً قلت: "أمي... لا تحاولي ثنيي عن قراري. ما نفع اجتهادي والمنصب والشهرة إن كنت سأكل أمرك إلى زوج دغدويه... أو أن ذلك الحمال سيصبح صهري".

انقبضت فاطمة. وتوجست أمي شراً، قالت مستطلعة: "لا تقل هذا عن خطيب أختك...". "لم يعد كذلك... فسخت الخطبة".

ما أشنع ردٌ فعل فاطمة. حقاً أصيبت في عقلها. سقطت منهارة ثم استيقظت كالنمرة التي قتل جراؤها. بادلتها الشتائم بالشتائم واتهمتها بوجود "شيء" بينها وبين ذلك العرص. لا أدري لم جرح قولي كرامة أمي تحديداً. هاجت وماجت وأغلظت لي القول وتمنت لو أني لم أعد من نيسابور، نادبة حظها العاثر وحياتها التعسة منذ أن تزوجت أبي. وعندما أمرتها بعدم ذكر

"المكرم" شتمتني وإياه. وتشجعت فاطمة وقالت أن لا حق لي بفسخ الخطبة بعدما أبرمها ولي أمرها. توقعت أن يكون ذلك القذر قد شعر بنواياي وأخبرها بهذه المعلومة الشرعية، انتفضت مستفزاً وصفعتها. كنت سأخرج إلى بيت دغدويه وحسب عندما سمعتها تصرخ خلفي: "سأتزوجه رغماً عن أنفك...". عندما التفت كانت أمي تمسح خيطاً من الدم سال من أنف فاطمة. كانت تقول لها: "طبعاً ستتزوجين منه. ومن هذا ليمنع ويسمح... فليذهب فليذهب... في طرق الأفاقين وليتركنا وشأننا...".

وجدتني أتوجه إلى غرفتي، حشوت الرسائل بسرعة وعصبية في حقيبتها الكتانية العتيقة وصررت ثيابي ودواتي وأسرعت خارجاً. كانتا قد التفتا على بعضهما البعض مثل حيتين في السبات. وكانت أمي تندب بإذعان حزين: "قدرنا.. هذا قدرنا الأسود".

❖❖❖

٢٧

بحلول صيف سنة ١٠٩١م كانت الحياة تدبُّ في جسد دولتي غير المنظورة بحرارة روح مراهق تتفتح للتو على الحياة، ويريد أن يستحوذ عليها كلها. قاومت بصلابة كي لا يدفعني ذلك إلى مطب التهور مرة أخرى، وتشبثت بالتريث والتروي قدر المستطاع.

كان الطلاب في المدرستين قد أنهوا تدريباتهم ودروسهم، وانتهيت من عملية صياغتهم على النحو الذي أردته للجيل الجديد من المستجيبين. كنت أريد أن أشيع بينهم بالإيحاء فكرة أني شيء شبيه بالإله أو قريب جداً منه، انهل إرادتي وقوتي ومعرفتي منه مباشرة، تمهيداً للإعلان عن حلول روح الحي الناطق فيَّ.

كانت الأسئلة توجَّه إلى بوزرك من الطلاب بوصفه موبذ موبذان لـ"يسألني"... بوصفي ماذا؟!... لم يكن أحد ليفصح، كانت "سيدنا عليه ما يستحق" عبارة تلفظ بجلال. وإذا ما أضفت إلى ذلك ما كانوا يشاهدونه في مناماتهم حولي، أصير متأكداً أني استقر في أذهانهم الطريَّة على النحو الذي أريد.

قررت لهم جميعاً رسالة حول الوحي، كتبت مضمونها بنفسي، ودفعته لعميرة ليشرحه لهم على حصص أسبوعية. قلت فيها أن المرء إذا تلقى كل أنواع المعارف بعقل صاف وروح متنزهة عن كل سوء، يصير قادراً على تلقي الوحي ذاته

باعتباره أعلى مراتب المعرفة، واستشهدت بقول من رسائل الإخوان: "الوحي إنباء عن أمور غائبة عن الحواس، يقدح في نفس الإنسان من غير قصد منه ولا تكلف". واتبعت ذلك بإخبار بعض الطلبة عبر عميرة والقصراني عن أشياء مستقبلية ستقع لهم، بعضها توقعتها من خلال تأويلي للمنامات التي يرونها ويسجلها عميرة والقصراني بدقة عقب صلاة فجر كل يوم. بعضها أخبار تخصُ حياة وذويهم في الخارج، تلقيتها سراً من نوابي من طريق الطائر. من ذلك مثلاً خبر مقتل شقيق أحد الطلاب الدعاة الذي أرسلته في يوم القتل ذاته إلى ذويه، بعد أن أخبره عميرة بتفاصيل الحادثة كما رآها "سيدنا .. عليه ما يستحق". وبعد أسبوع من السفر المتواصل تأكد الشاب من دقّة الوقائع، فطمأن أسرته إلى أن شقيقه في الجنة كما أخبره سيدنا ... وعاد فرحاً مسروراً كأنه آب من عرسٍ لا مأتم... هذا إضافة إلى حوادث أخرى بعضها وقع عرضاً، وبعضها افتعلته بنفسي، مثل ذاك المرض الذي بعثته في جسد والدة طالب في مدرسة الفداوية، لمحت في عينيه أمارات الفضول والتشكك والتفكير، حول ما يسمعه حول شخصي الغامض، ثم أرسلت إليه الترياق الموافق، ومنحته مهلة أسبوعين ليعود والدته ويداويها. ومنذ أن رجع من تلك الرحلة لم يرفع ناظريه متحرياً البناء الغربي المصمت الذي أعيش فيه، كما كان يفعل سابقاً بجسارة.

وجدت في نهاية ذلك الصيف أن إعداد الفتيان قد اكتمل، وأن الظروف في كل مكان مواتية للقيام بنقلة أخرى تديم الحركة وتجنبنا الوقوع في السكون، أو انتظار مبادرة الآخرين. لكنني لم استطيع تحديد ذلك الشيء، حتى جاءني بنفسه على جناح الطائر.

كتب لي نائبي في كهوستان رسالة عاجلة، يبين فيها أن أحداثاً خطيرة تعصف بالإقليم، بعدما اختطف القائد التركي كلسارغ شقيقة المنوَّر السيمجوري، زعيم أكبر القبائل الكهوستانية، وتزوجها قسراً داخل إحدى القلاع. وأن مناوشات تدور في مختلف المدن والقرى بين الأهالي والسلاجقة في الواحات الصحراوية

المنعزلة.

دون إبطاء طلبت حسين القويني المتحمس لعمل شيء في بلاده، وناقشت معه خطة سريعة للالتحاق بشعبه الناقم وتأجيج ثورته الوليدة، وتحويله بشكل نهائي إلى دعوتنا وتثبت قدماً أخرى لدولتنا هناك.

منحته الدفعة الأولى من فرقتي الفداوية والدعاة، وكافة المقاتلين الكهوستانيين، إضافة إلى خمسين متطوعاً من مختلف أنحاء فارس، وانطلق بهم إلى الجنوب الشرقي.

قبيل مغادرة المجموعة في أول مهمة كبرى خارج آلموت ظهرت لـ"شعبي" للمرة الأولى، لألقي عليهم الـ"وصية الإلهية". وهي الرسالة التي ينبغي على كل فرد منهم أن يكتبها أو يحفظها عن ظهر غيب، لتقود مسيرته الروحية والحياتية. وقد قام طلاب المدرستين ومعلميهما على الأخص، بنسخ تلك الرسالة والتعامل معها بذات القداسة التي للكتب المنزلة.

صعدت إلى ظهر السور الذي يفصل مسكني عن الجزء الأوسط، حيث تجمهر ما لا يقل عن خمسمائة شخص، هم مجموع سكان القلعة. وقفت خلف ستارة حريرية بيضاء كبيرة، نشرها في الهواء على منصبين من الأعمدة أبو الفتوح والدهدار وشرف. تطلعت في الوجوه الساكنة الشاحبة شحوب الموتي طويلاً، قبل أن أقول: "أيدنا الرب وإياكم بروح منه" فخرَّ للحال سبعة من طلاب مدرسة الدعاة وعدد غير محدد من النساء مغشياً عليهم. أحسست للحال بالقوة والتعاظم، قلت وأنا أشعر أني أكبر وأضخم من جبال ألبورز: "إني ملق إليكم... قولاً خطيراً..". وتصادت عبارتي بين الأودية والجبال، وترددت في الجهات الأربع، بلحن وإيقاع لم أسمع دهري أعذب منه، ورحت أتوقف بين الكلمة والأخرى مستمتعاً بالصدى...

كنت قد أعددت خطبة مضبوطة جداً، ليتمكن من استعمالها وفهمها كلا نوعي شعبي، ذلك الذي يعتقد أننا أصحاب الفرقة الفاطمية الناجية من فرق

الإسلام، وتلك الأخرى الأقل عدداً التي كُشف لها سر معتقدنا وديننا الفريد. كتبتُ كلماتها بتأن وصبر، متوقفاً عند كل كلمة وعبارة، فمع ثقتي بأني قادر على التأثير على أي مستمع فرد، وتحويل اتجاه تفكيره مهما يكن صعب المراس، كنت أحمل قناعة تكاد تكون يقيناً أيضاً، بأني لا أمتلك موهبة الوقوف أمام الجموع، وجرأة مخاطبتها والتأثير فيها. لكنني وجدت نفسي أنفلت شيئاً فشيئاً خارج خطبتي المكتوبة، وانطلق بعبارات غير مترابطة وغير منظمة، لكنها ولدهشتي كانت تنفذ من فمي إلى سويداء قلب كل واحد من ذلك الجمع المختلط، موقعة فيه أعداداً متزايدة من المتهاوين في نوبات وجدٍ وخشوع، كما تتساقط طيور أسيرة ترمى بنبال شديدة البري.

كنت على الأنف الشامخ للقلعة، أمام ستارة بيضاء تتلامع متموجة بالريح، بثوبي الأبيض المحزوم بالكوستي العريض. لا أحد ورائي سوى الفتيات الثلاث المتواريات في الحديقة، وكل شعبي بين يدي، أمام الستارة المتموجة التي تركزت عليها عيون بعضهم، وطأطأ البعض الآخر رؤوسهم خشية أن تقع أعينهم على ما لا يستطيع تحمل رؤيته. أشرعت كفي في الهواء عالياً، لنفسي، ورحت أتلو بصوت واثق وقوي، كل العبارات الغامضة الغائمة، من رسائل إخوان الصفا، التي فتنتني في غضاضتي وشبابي: "اعلموا... أيدنا الرب وإياكم بروح منه، أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من قوم علماء حكماء فضلاء، يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد، ودين واحد، ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً أن لا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضاً، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم، فيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرين...واعلموا... أن ساعة القران العظيم الذي تدلُ عليها دلائل بينة، وعلامات واضحة... تدنو... وسيتجدد الملك في المملكة، وتنتقل الدولة مجدداً إلى أمتنا". زعق شرف، الذي تورّدت بشرة وجهه بعد الزواج، وهو يكاد يسقط مغشياً عليه كالعادة: "يا صادق الوعد... يا سيدنا!". رنت صرخته في الوادي مثل نذير

إسرافيل، يعلن يوم الدينونة. وتابعت: "بادروا وارحلوا من دار الفناء إلى دار البقاء، قبل أن يبادر بكم إلى هناك مكرهين مجبورين غير مستعدين، نادمين خاسرين". وصرخ أحدهم "لبيك سيدنا ..!" وتعالت من خلفه الهتافات المتشنجة: "لبيك.. لبيك". تابعت بهدوء:"اعلموا أن أجسادكم كدار سكنتها أنفسكم، فلا تجعلوا كل همكم وأكثر عنايتكم بتزويق هذه الدار، فإنكم تعلمون أن كل مسكن يخرب، واجعلوا بعض أوقاتكم للنظر في أمر أنفسكم أو طلب معرفة جوهرها ومبدئها ومعادها، فإنها جوهرة خالدة أبدية الوجود، ولكن تنتقل من حال إلى حال، من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا ومن الدنيا إلى البرزخ ومن البرزخ إلى الجنة أو النار". وهتف الدهدار: "قد علمنا يا صادق الوعد". وأتممتُ:"واعلموا أن الجنة هي عالم الأرواح، وكله صورة روحانية لا هيولى جرمانية، بل حياة محضة وراحة ولذة وسرور وغبطة، لا يعرض لها الكون والفساد ولا التغير والبلى ولا لأهلها الذين قال فيهم سبحانه: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾... ولا تكونوا من أبناء الدنيا التي يتمنى الكفار الخلود فيها كما يقول تعالى: ﴿يودُ أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾... كونوا من أبناء الآخرة، أولياء الله الذين مدحهم بقوله توبيخاً لمن زعم منهم القرب منه جل جلاله: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون عباده فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾". وصرخ الشاب الفداوي سلمان، الخجول الصامت عادة: "موِّتني يا سيدنا ... خذني الآن....!". أذهلني طلبه وأخافني في الوقت عينه، وانتزعني للحظة من حالة الغشوة اللذيذة التي تخدرني، لكنني تجاهلته ورحت اشرح بهدوء: "أعلموا يا أخوتي... أيدكم الرب وإيانا بروح منه، بأن الإنسان جملة مجموعة من جسد جسماني ونفس روحانية، متباينان في الصفات متضادان في الأحوال ومشتركان في الأفعال العارضة والصفات الزائلة. وصار الإنسان من أجل جسده مريداً للبقاء في الدنيا، متمنياً الخلود فيها، ومن أجل نفسه صار طالباً للدار الآخرة... لا تكن أخلاقكم

أخلاق بني الدنيا التي ركزتها فيهم الطبيعة من غير كسب منهم ولا اختيار ولا فكرة ولا روية ولا اجتهاد ولا كلفة، يسعون فيها ويعملون مثل البهائم تطلب منافع الأجساد ودفع المضرة عنها كما قال تعالى:﴿يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾... ولتكن أخلاقكم أخلاق بني الآخرة التي اكتسبوها باجتهادهم، إما بالعقل والفكر والرؤية، وإما بإتباع أوامر الناموس وتأديبه كما ذكر تعالى: ﴿وما تقدموا من خير لأنفسكم تجدوه عند الله﴾.. واعلموا أن علامة الحق الوحدة، وعلامة الباطل الكثرة. وان الوحدة مع التعليم من معلم واحد، والباطل مع الكثرة الناشئة من الرأي المتعدد... أوصيكم بطاعة معلميكم...الطاعة الطاعة... إنها اسم الرب الأعظم الذي به قامت السموات والأرض بالعدل...". قاطعني صراخ موحد: "لبيك..لبيك...". كان اكتشافي للخطيب المؤثر الذي بداخلي يذهلني، وكنت أتحول بتناغم لا أدري من أين حلّ عليَّ بين مواضيعي التي لم أتحضر لها قط، بل كانت تنساب بسلاسة ويسر من مكان ناء، تابعت بهدوء: "ما أنتم إلا ذلك الفوج الذي بُعث في الفرس وأشار إليهم تعالى بقوله: ﴿ويوم نبعث من كل أمة فوجا﴾. ثم صمتُ. كأنما هطلت تلك الغيمة ماءها واستنفذت، أو كأنما اكتمل المراد على ما أُريد له منذ الأزل، ولم يبق في سمائي سوى بضع عبارات من الأفستا وآية من القرآن، قلت: "لن يهلك الصالح، وكذلك روحه وجسده، سيجددون العالم الذي لن يصير فيه الإنسان عجوزاً أو يموت، لن يفنى أحد، ولكن ثمة ما يصعد إلى النور، إلى الأعلى، ثمة ما يهبط إلى الأسفل إلى المغاور والحفر العميقة". ثم تلوت الآية بخشوع عميق وزهد: ﴿أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ ..

وفيما كنت أهبط السلم بتؤدة، هبت نسمة خفيفة فحملت الستارة الحريرية البيضاء عالياً... لم يكن ثمة أحد وراءها.

❖❖❖

٢٨

غادرت الجمّال ساخطاً، وتوجهت إلى الحانوت الذي يبيع أدوات السفر، اشتريت ببعض ما لدي من نقود قربة ماء صغيرة وقليلاً من التمر والجوز، وأخذت طريق الصحراء تحت أنظار الرجل الذي كان يتابع حركتي المتوترة في باحة القوافل باندهاش متلفتاً حوله كأنه يقول "الحقوا هذا الفتى.. سيؤذي نفسه!". وملأني ذلك تصميماً على تنفيذ ما في راسي.

التقطت أول الطريق و... يا نيسابور... كما في الماضي، مشياً على الأقدام. لكن وحيداً هذه المرة. كانت الشمس التي صارت فوق رأسي تماماً، شاحبة قليلاً فقد بدأت تباشير الخريف، وهاهي فراشة صفراء وسوداء تعرض لي، هذا فأل حسن. المهمة اليوم أسهل بكثير مما كانت عليه عندما قطعت هذا الطريق مع أبي مشياً قبل أربع سنوات...أين أنت يا أبتاه؟ أفي السموات، مع الروحانيين العظام؟ أتراني؟ أترى ما فعلته مدللتك فاطمة؟! لست أستغرب ما فعلته البلهاء أمي، كنت تقول عنها "امرأة"، وكنت تعاملها بما تستحق، لكن كيف كنت تعامل فاطمة بأفضل منها؟!. تريد أن تتزوج ولما يمض شهران على وفاتك. تخاف أن يطير العتال من بين يديها. يقلن هاته النسوة أن لا أحد يرغب بمصاهرتنا، لأننا لا شيء. وأنه لولا جمال فاطمة وطفولتها لما قرع العتال بابنا قط. تخيَّل: جمالها ... جسدها ... ولاشيء سوى ذلك يا رفيق الأربعمائة. وربما

صرت من الأربعين... تخيل... أين أنت الآن؟! أريدك أن ترافقني، لقد ألقيت نفسي وحيداً في هذه المفازة لألتقيك. فرحت حقاً عندما قال لي الجمّال بأن القافلة انطلقت في الفجر ولن تنطلق أخرى حتى فجر غد. سأسير بين القافلتين وعليك أن تتابعني من فلكك الذي تسبح فيه. سترشدني إلى الآبار التي تعرفها جيداً، وسنصلي سوية. ستقودني إلى النبع الذي يترقرق سعيداً بفرادته في قلب ذاك الوادي، النبع الذي شهد ولادتي، يوم أرتديت حزام الكوستي.

لساعات لم أرفع ناظري عن التراب الأصفر الطحيني للطريق الصحراوي. عندما فعلت وألتفت إلى الغرب، ووجدت أن الريَّ صارت غير منظورة، داخلني مزيج من مشاعر الارتياح والرهبة، فقد قطعت مسافة جيدة، لكن منظر الخلاء المدور الذي صرت إليه خوفني. نكست رأسي مصمماً على ألا أتطلع نحو "الخارج" مرة أخرى، وتسليت بمراقبة ظلي. لاحظت في صورتي الظلية كأني أعرج، وكنت أثبت ذراعي الأيسر أثناء المشي. راقبت هذا مفاجئاً نفسي عدة مرات. تذكرت ببعض الضبابية إن أبي كان له كتف أيسر مائل قليلاً إلى الأسفل وذراع أيسر مثبت بانحناء خفيف عند المرفق. أنا أبن أبي، قلت لنفسي، دون أن يكون لهذا أثر محدد.

عندما بدأ لون التراب يتحول إلى ورسي عميق، أدركت أن الشمس بدأت بالأفول. رفعت وجهي استطلع المكان الذي بلغته بخطواتي السريعة، فاجتاح الرعب قلبي، حتى أني عدت بسرعة إلى تنكيس رأسي. كان الظلام يزحف بسرعة من الشرق ويطوق البقعة الموحشة من الخلاء التي بلغتها. خلاء خلاء...خلاء وظلام قادم على امتداد النظر، وحش خرافي فاغر فوقي فمه المخيف حتى أن الاستسلام لأنيابه أهون بما لا يقاس من رؤيته وسماع زئيره المتحشرج. متجاهلاً إياه، متأكداً بأنه سينقض عليَّ ما أن أكترث له، رحت أتجول في المكان جامعاً الحطب والقش. بعد أن أديت واجب الصلاة ليزدان الغارب.انتبهت إلى كون الحطب الذي جمعته غير كافٍ، فأسرعت أجمع كل ما يقع منه تحت يدي متذكراً أثناء ذلك القليل الذي تعلمته عن السفر في الصحراء

من رحلتي إلى ومن نيسابور، تذكرت بسرعة أن لاشيء يخيف حقاً في الصحراء، فلا كائن بري يقترب من الإنسان، لأنها جميعاً جبلت على الرهبة منه، والذئب مثلاً شقت عيناه بشكل طولاني ويرى كل ما ينتصب على قدمين كأن طوله من السماء إلى الأرض، هكذا قال أبي. وعندما يكون نائماً يمكن للنار أن تحميه وترهب المخلوقات الأخرى. وحدها الهوام التي بلا تمييز قد تتعثر بالإنسان أثناء دبيبها الأعمى على الأرض، وهذه يمكن اتقاؤها باختيار بقعة كلسية للنوم... لكن أهم القواعد كانت في نظري هي: لف رأسك بعمامتك ونم! فلا نوم أهنأ من نوم الصحراء، ولا طريقة للتعامل مع وحشتها أفضل من الغياب. قررت هذا واخترت بقعة نظيفة وأوقدت ناري مقتصداً في الحطب.

ساورني بعض الندم لتسرعي في اتخاذ هذه الخطوة، وحقدت مجدداً على أمي التي دفعتني إلى هذا المأزق. لكنني طمأنت نفسي عندما وضعت خطة دقيقة لتلافي هذه الحماقة. ففجر غد ستنطلق قافلة جديدة من الريّ، سأنتظرها وأنخرط فيها. بعد ذلك تذكرت الخان القائم في منتصف المسافة بين الري ونيسابور حيث يباع كل شيء للقوافل بالسعر الذي يباع فيه في المدن، باستثناء نوع من الجبس الأحمر يزرع بعلاً في وادٍ قريب من الخان، له مذاق سكري يتحدث عنه كل من قطع الطريق بين الريّ ونيسابور. لم يكن لدي الكثير من المال لكن يمكنني أن أتلذذ مرة أخرى بطعمه الرائع. كنت أفكر بالجبس عندما استولت عليّ الشهوة، شبق مجنون جاش داخلي وأضطرم فجأةً، ثم اندفع يقودني كالأعمى إلى سرّة العالم، إلى زبيدة! زبيدة بالمعنى الحيواني، أقول ذلك وأؤكد أنه كان يمكنني الاستعاضة عنها بأي شيء من جنسهاالأنثوي، كنت مستعداً للجري وراء نعامة أو غزالة مثل "سارة" حتى أقبض عليها وأمزقها بعضوي الذي انتصب انتصاباً مدهشاً. توارى الخوف فجأةً، وقامت محله شجاعة لا تضاهى، كنت مستعداً لحظتها لمواجهة ضبعة واغتصابها. استلقيت على الأرض وقد سلبتني الشهوة عقلي وجرفت مخاوفي، واستمنيت متأوهاً

بأعلى صوتي كما تمنيت دائماً. وجرؤت على نطق اسم زبيدة ومناداتها بألفاظ غاية في الفحش والبذاءة، وتخيلتها بالمقابل تتأوه بصدق حيوانة ملتذة، وتقبلني بامتنان لا يقلّ حيوانية عما أكنه. ومنحني كل ذلك لذّة لم أعشها يوماً.

عندما فرغت كانت عينا أبي ترقبانني من نجمتين متقاربتين تبصان بحزن. انقلبت إلى جانبي الأيسر خجلاً وتكورت على نفسي وقد تشنجت إلى حد مؤلم أصابع قدمي وعرقوبي. بقيت على هذه الحالة إلى وقت لا اعلم طوله، وطافت في مخيلتي صور عديدة ليس بينها وجه أبي، تذكرت كفّيه بدقة، تراءى لي ظاهر كفّه الأيمن الأسمر الذي أنهكه الطَرق في دكان التصفير، ومغارز الشعر العميقة السوداء مثل سموم الأبر الصغيرة. ومرَّ طائر من ذوقي وتفضل بالنعيب كي لا يخيفني مروره الصامت، ولم يلبث أن سقط إلى الجنوب مني مؤكداً لي أنه محض طائر نهاري ساذج، وليس من طيور الليل الشيطانية. استقبلت الشمال بوجهي، لم أتململ أو أتحرك، كنت على يقين أن النوم إن لم يأت وأنا في تلك الحالة من التشتت والطمأنينة المخاتلة، فإنه لن يأتي أبداً. كانت وجهتي نحو الشمال مناسبة، فالريح كانت لحظتها شمالية، والشر أيضاً يأتي من الشمال وفق ما تروي الحكايات، وليس أفضل من استقبال جهة الخطر. وهبَّت واحدة من نسائم أوائل أيلول الباردة، كانسةً وجه الأرض، وتغلغلت فيما بين جسدي ومرقدي، وغلفتني بدغدغة لذيذة. أغمضت عيني، ولا أدري متى ولا كيف غفوت.

حين قفز عليَّ أول شيطان وأيقظني، كنت قد نسيت أين أنا وما أفعل هنا. بعد برهة تذكرت كل شيء وتصورت الموقف، فأطلقت صرخة مذعورة من أعمق أعماق رئتي. لكن الشياطين ليست المخلوقات البرية التي ترعبها صرخة بشري، بل لعل ذلك يزيدها انتشاء ورغبة في الشر.

كانت أعدادهم هائلة، وأحجامهم متباينة، لكنهم جميعاً ذوي لون أصفر شاحب، يتقافزون بسرعة وخفّةٍ عن يميني ويساري. كلهم يأتون من الشمال

بسرعة فائقة ساحبين الريح بذيولهم. يقبلون، يطأون الأرض أو لا يطأونها. يقفز بعضهم على أربع كالخيول، وبعضهم ينط على قفاه، ثم يقفزون وينطلقون نحو الجنوب بعد أن يصفر واحدهم قربي صفرة ساخرة تصم الأذن، ثم يتلوهم آخرون وهكذا...

ثم ظهر شيطانٌ كبير ذو آذان طويلة موبرة وفم واسع عليه شعر كأشواك القنفذ وهاجمني. طار نحوي وهو يزعق بجنون... بدا عازماً على فعل شيء ما بي. بسرعة هائلة التقطت حقيبة الرسائل التي كنت أتوسدها وجريت بعيداً عن مساره. ولأنه كان مسرعاً لم يستطع تغيير اتجاهه، فقد ضربني بطرف ذيله ذا الشعرالأبري. واحسست لأول مرة بملمس الشيطان المُقشعر المخيف. جريت شرقاً وكنت أودُ لو أجري غرباً نحو الري، لكن الشياطين كانت تنبجس من كل ناحية من الظلام، ودرت والتففت عدة مرات حتى ضيعت الاتجاهات. ناديت توسلت. ناشدت يزدان ليسحقهم. رأيته بهيئة الشيخ موفق يمسِّد لحيته نحو الأسفل بلا مبالاة. استغثت بأبي وعجزت عن تخيله. ناديت الله، رب المسلمين. في النهاية كنت مستعداً للتوسل لأهرمن ربُ الشياطين ليأمرهم بالكف عن مهاجمتي. كنت سأقول له ذلك عندما باغتني أحد الشياطين وقد شلَّ التعب قدرتي على المناورة، وهو يزمجر"دعوه لي..!"...وهووووب ضربني بكامل جسده. وانغرزت أشواكه الحادة في عيني. وخمشت مخالبه المعقوفة وجهي من الأمام إلى الخلف، ووبره الشوكي تغلغل في كفي اللتين اتقيته بهما. ثم طار مفسحا جسدي لشيطانٍ آخر جاء مجلجاً مهمدراً وهو يصيح "دوري!"، لكنني راوغت ونجحت في تفاديه ثم ظهر مهاجم من الأمام، رميته بحقيبة الكتب فاخترقته وحاد عني قليلاً ورحت أجري مرة أخرى باحثاً دون أن أعرف أي جدوى لذلك عن طريق نيسابور، لماذا؟ أنا متأكد أن لا أحد يسلكه الآن، فما الفائدة من اللجوء إليه؟ أكنت أظن أن الشياطين ستتراجع فيما إذا لذت بأثر بشري؟ برائحة بشري؟! على كل حال لم أعثر على الطريق وربما عثرت عليه مراراً ولم أميزه، لم أجده حقيقة إلا عندما لاح الفجر وبعد أن هدأ جنون الشياطين ثم اختفت. عند ذلك

ألقيت بنفسي منهاراً دامي الوجه والجسد على الدقيق الأصفر، وذهبت إلى نوم أشبه بغيبوبة وفي أذني طنين خافت مُطرش.

عندما فتحت جفني قليلاً جداً وميزت جمالاً ورجالاً يحيطون بي، أدركت أن قافلة وصلت أخيراً. كانت الشمس شديدة السطوع فأغمضت عيني ورحت أتتبع ما يحدث بأذني. ثمة رجل عرفني، عندما تحدث عرفت أنه الجمَّال الذي سألته عن القافلة في الريّ. قال: "والله توقعت أن يحدث له هذا... من يستهن بالصحراء تقتله أو تجننه". غسلوا وجهي وسكبوا في فمي ماءاً من قربة حاولت ألا أبلعه مع أن حلقي كان في غاية الجفاف متظاهراً بالغياب عن الوعي. فتحوا بصعوبة كفي الأيمن ليستخرجوا كيس فلوسي الصغير، وهو كل ما بقي من متاع. لأعرف لماذا ولا متى قبضت عليه، ولا لم كانت كفي متشنجة عليه إلى ذلك الحد، في حين لم أستعمل خنجر أبي ولم أتذكره.

حملوني إلى ظهر ناقة. أرخيت مفاصلي فبدوت كالميت. وفيما هم يتقدمون نحو الشرق راحوا يتداولون عدة فرضيات لما يمكن أن يكون قد حدث لي، رجحوا احتمال أن أكون قد تعرضت لهجوم الجن، بعد أن استبعدوا فرضية الوحوش والكواسر، لكن أحدهم أشار إلى أن الجنَّ لا تخمش ولا تخدش، ورأى أنني ربما تعرضت لهجوم ضبع نثر عليَّ بوله المخدر وتبعته لكنني وقعت لسبب أو آخر فنزفت وتخلصت من سحر البول... رددوا "يجوز!" ثم توالت الحكايات تروي عجيب القصص وغريبها. وعدت إلى النوم مجدداً متدلياً على ظهر الناقة، ثم استيقظت عندما كانوا ينزلونني ويمددوني على الأرض. كانت الشمس على وشك المغيب. وقد التقت القافلة المشرِّقة بالأخرى المغرِّبة إلى الري. ومن عادة القوافل الذاهبة والآيبة أن تعسكر قرب بعضهما البعض لمزيد من الأمان. بعد أن تناولوا العشاء قرر شابان ثرثاران أن يذهبا إلى المعسكر الآخر ليرووا قصة الفتى الذي وجدوه على الطريق بحجة السؤال عما إذا كان ثمة طبيب يستطيع مساعدته. عادا قبيل صلاة العشاء وقد نجحا باجتذاب بعض رجال القافلة الأخرى للفرجة على اللقية الغريبة. دنا مني رجل عرفت من

نبرة صوته أنه مسن، طلب شمعة قريبا من وجهي كثيراً ونفذ شعاعها إلى بؤبؤي عيني المغمضتين بإحكام، فجأة شعرت بكفه تجوس على وجهي ثم راح يقلقل شيئاً مغروزاً في بشرتي وانتزعه، آلمني قليلاً لكنني أصغيت إليه وهو يقول متنهداً: "هاه هه...كما توقعت...". جلس ليروي ما توقعه!.

ببساطة لقد تعرضت، وفق ما أكد الرجل وكما تيقنت بعد أن راجعت الأحداث بيني وبين نفسي، إلى غارة للنباتات الشوكية، تلك التي تنمو على شكل كرة وتجف نهاية الصيف ثم تنبتُ عن جذرها لتتدحرج وتتطاير مع رياح الخريف. وقد آويت ولا شك إلى مكان تكثر فيه تلك الأشواك، ومع الخوف والوحشة "يتوهم المرء أشياء كثيرة"، قال المسن.

حسناً كان يفترض أن يعيدني ذلك إلى رشدي ويحسن من حالي. وهذا ما حدث أولاً. استجبت لهم عندما ايقظوني برش الماء على وجهي. ونعمت برعايتهم وادعيت بأني كنت استعجل الوصول إلى نيسابور لأنجز دراستي وأن والدي توفي ووو.. قلت كل ما من شأنه أن يثير التعاطف ويحميني من سخرية القوم ولومهم. قررت ألا أفكر فيما حصل مرة أخرى مكتفياً بتفسير المسن، ثم غفوت، ثم أفقت متألماً. بدأت أحشائي توجعني. وشيئاً فشيئاً فقدت فرضية المسن قدرتها على إقناعي مجدداً، ورحت أرى أفواه الشياطين وعيونهم الكريهة في كل شق وثقب. وبلغ الأمر مداه ليلة وصلنا خان الجبس. في النهار أقبلت بنهم على لبه السكري اللذيذ، تلقيت عدة دعوات لبيتها جميعاً. في الليل أفقت مذعوراً ومتألماً ورحت أبكي. لقد رأيت أحد الشياطين يدخل معدتي حاملاً خنجراً وراح يمزقها. كنت قبيل ذلك أسائل نفسي، كيف يقتل الألم؟ ومع أني قتلت الكثير من الذباب والكائنات الأخرى، إلا أني لم أتوصل إلى إجابة. كان الكائن يتلوى قليلاً ثم يموت. الآن بت أعرف كيف يحدث ذلك. الألم يجعلنا نطلب الموت، نتوسل الخلاص بأي ثمن.

❖❖❖

٢٩

جاءتني الأخبار من الجزء السفلي، لقد رزقت ببنت اسمتها أمها، متأثرة بوضعنا الجديد، شاهة. طلبت رؤية المولودة، وجاءت زوجتي متزيتة ومعها فاطمة الصغيرة. لم تحرك فيَّ المولودة التي كانت مثل شقيقتها بلا جمال أي مشاعر، أما فاطمة فقد كانت خائفة، واستحثتها والدتها لتكلمني فلم تفلح. قالت لها: "أخبري سيدنا كم أنت مشتاقة إلى حسين ومحمد". فلم تخبرني، واختفت وراء ثوب والدتها الأسود الواسع. لم نتبادل أي حديث. انتظرت مني مبادرة فلم أقم بشيء، سألتني عن أخبار حسين ومحمد فأجبت بأنهما بخير. كنت متأكداً أنها تعرف كل شيء عنهما من أبو الفتوح وغيره. فأخبار انتصار حسين القويني الذي يرافقانه في كهوستان واستيلائه على المدن الرئيسية هناك من شوشان إلى قوين إلى طبس وتون وسواها، ملأت فارس ولا تزال القلعة تحتفل بها. بخجل سألتني عندما بدأت ازفر بملل إن كنت أريد منها شيئاً فقلت "لا". نظرت بدون مشاعر واضحة إلى الجزء الغربي المغلق حيث الفتيات الثلاث، تنهدت ثم استأذنت وخرجت تتعلق فاطمة بثوبها، وتتعثر به، مفزوعة وسعيدة بانتهاء الزيارة.

أسرعت إلى برج الحمام الكبير الذي لا تنقطع الحمامات عن الانحطاط نحوه، باحثاً عن رسائل جديدة. كان جيش ارسلان طاش قد أكمل استعداداته

منذ مدة، لكن الهجوم على قلعتنا تم تأجيله بسبب الأخبار المرعبة عن تمددنا في الشرق، وإنشاء دولة أخرى من القلاع هناك. وتقرر أن تجرد حملتين واحدة تذهب إلى الشرق لتقضي على دولتنا في كهوستان والأخرى تتجه شمالاً لتنتزع آلموت، واستبق ملكشاه أي محاولة من أتابكه للشماتة، فبادر إلى مهاجمته بعنف مستغلاً واقعة أحدثها حفيد نظام الملك الصغير، عثمان بن جمال الملك الذي اغتاله السلطان بدم جعفرك، وولاه جده على سبيل التعويض ولاية مرو رغم حداثة سنه، وقد أساء الشاب إلى قودن، قائد الشرطة التركي هناك وسجنه وأهانه، وكان قودن من القادة القدامى لجيش السلاجقة ومن ذوي الأفضال الكثيرة على السلطنة، فقصد السلطان مستغيثاً متظلماً.

أرسل السلطان إلى نظام الملك الذي اعتزل مجلس ملكشاه تقريباً في تلك الآونة واعتكف في ديوانه، مع تاج الدولة ومجد الملك البلاساني وعدد آخر من رجالات الدولة رسالة يقول فيها: "انك قد استوليت على ملكي وقسمت ممالكي على أولادك وأصهارك ومماليكك، كأنك شريك في الملك، أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك؟". فردَّ عليه برسالة شفهية يقول فيها: "كأنك عرفت اليوم فقط أني مساهمك في الدولة مقاسمك في الملك!...فأعلم أن دواتي مقرونة بتاجك، متى رفعتها رفع، ومتى سلبتها سلب". ولا أظن نظاماً قد قصد من وراء عبارته الواثقة الجريئة تلك سواي. ولعله أدرك بحدسه الثاقب أني سأبدأ به، ثم أثني بالسلجوقي الذي لا تحتسب قوته بمعزل عن مشورة نظام وتخطيطه. لكن رجال الدولة لم ينقلوا للسلطان هذا القول، ولو أنه دري به من طريق آخر. وسعوا لإصلاح مابين الرجلين مدعين أن نظام أظهر التنصل من فعل حفيده وتعاونوا على الأمير قودن فأرضوه وأقنعوه بالعفو عن عثمان، وسوي الأمر ظاهرياً لكن نظام غرق في الكآبة أكثر وأكثر.

لكنه، وفي إطار لعبة القط والفأر التي يلعبها مع أتابكه، أعاد السلطان علاقته الحميمة به متذرعاً هذه المرة بشأن عائلي. فقد ظهر ما يدل على أن

الخليفة العباسي المقتدي بالله سيسمي ولده المستظهر بالله ولياً لعهده، وصارحه السلطان برغبته في تعيين حفيده جعفر في هذا المنصب لما في ذلك من الشرف الذي سعت إليه أسرته منذ عهد طغرلبك. أبدى نظام تفهماً وتعاطفاً مع السلطان، بل وأعطى إشارات إلى أن ذاك كان أحد أهدافه غير المعلنة عندما سعى في زواج الخليفة من ابنة السلطان. استعادا الوئام وقررا أن يسافرا إلى بغداد لفرض هذا القرار على الخليفة، ولكن بعد أن يتأكدا من أنني حبست في قمقمي وارتج عليَّ بالجيوش الموجهة لإلقاء الحصار على آلموت وكهوستان. ابتسمت عندما قرأت الرسالة التي بعثها رجلي العظيم الأسدباذي متخوفاً. كتبت له:"لا تبتئس يا أبا إبراهيم...سأعدُ لهم جيشاً لا قبل لهم بمواجهته".

لقد كانت تلك الأيام، أيام تساقط الملوك فلكياً. كانت حركات النجوم تنبئ بخطر داهم على هؤلاء وعلى رجال دولهم. وقد أرسل عمر الخيام إلى نظام الملك سراً يحذره. ولعل الإيمان الذي يكنه نظام بنبوءات عمر كان وراء كآبته وحزنه، ثم نشاطه المحموم لاتقاء المقدور... دون جدوى بالطبع. فحيث يتقرر في السماء حادث، يصبح أي شيء تافه وصغير ذريعة كافية لحدوثه... وهكذا بدأت بإعداد رأس الإبرة الذي سأغرزه في قلب تلك الدولة الكبرى مانحاً النجوم الذريعة لتعمل عملها بطريقة تبدو معها جد منطقية... وبدأت بإعداد أبو طالب آراني، الجيش الفرد، الذي يمشي على قدمين.

بعد أن أخذ القويني الدفعة الأولى من الفدائيين والدعاة إلى كهوستان وابلوا هناك بلاء حسناً، خاصة ولدي محمد الذي برز بشجاعته واعتداده الكبير بنفسه وقرابته مني، طلبت من نوابي دفعة أخرى من الفداوية والدعاة، والتحق ست وثلاثون بمدرسة الدعاة، وثلاثة وعشرون فداوياً كان بينهم أبو طالب آراني.

من الغريب حقاً أن معظم من كانوا يلتحقون بمدرسة الفدائيين كانوا من الأيتام فاقدي الأب، وكنت بدوري أميل إليهم، ولا أدري إن كان ذلك بسبب

فقدي المبكر لأبي أم لسبب آخر. كان آراني يتيماً يعيش لدى زوج أمه، تتقل مطرودا بسبب فظاظته بين عدة مهن. ولعل أحد أسباب راحة نفسه في مدرسة الفداوية أنه يأمن فيها من قسوة الآخرين، رغم قسوة التدريب، وأنه لن يطرد منها بسبب غلاظة طبعه وجمود أحاسيسه. لفت نظري أولاً كونه بلا منامات، فالقصراني الذي يسجل أحلامهم كل صباح، لم يسجل أي منام باسم آراني، وبدأت بمراقبته من كوة المرصد في أعلى السور.

كان في العشرين وأكبر الفداوية سناً، وكان جسده طويلاً وضامراً ومقوساً مثل عصب العرقوب الأصفر المقطوع. وجهه المتطاول ضيق عند الهامة متسع عند الفكين الهائلي الحجم، مفصلي كوعيه متثبتين، وذراعيه يتأرجحان كأنهما مخلوعتين عند كتفيه، وقدميه الكبيرتين المتشققتين، تلتفان إلى الداخل عندما يمشي. لم يكن يشارك زملائه مرحهم أو أحاديثهم، يستمع باستخفاف وازدراء إليهم وهم يلاطفونه شابكاً أصابع يديه أمامهم محتقرا ظرافتهم. وفي فترات الراحة بين التمارين يلجأ إلى مكان منزو ويجلس ضاماً فخذيه الضامرين إلى صدره مراقباً زملاءه من خلال ثقبين ضيقين في رأسه الصلب، لا يستطيع أن يرى العالم إلا من خلالهما. وقد كرهته منذ أن وقع بصري عليه.

زف لهم بوزرك بنفسه البشرى، قال لهم أن من سيحرز أفضل النتائج في التدريبات سيحظى بمقابلة "سيدنا". ومُنحوا أربعين يوماً للاستعداد للاختبارات وتحديد ذلك الطالب الذي سيفوز بتلك الميزة العظيمة، على أن يقضوا تلك الأيام في الصوم والصلاة أيضاً، وتلا عليهم الآية: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾. ثم روى لهم الحديث المذكور عن النبي العربي القائل: "من أخلص العبادة لله أربعين يوماً، فتح الله قلبه وشرح صدره، وأطلق لسانه بالحكمة".

في هذه الأثناء تحرك جيش أرسلان طاش شمالاً يجر عتاده الثقيل من منجنيقات وواقيات حجارة وسلالم طويلة. وتحرك جيش آخر يقوده قزل

سريق، شرقاً نحو كهوستان. وبدأت الاستعدادات في أصفهان للسفر إلى بغداد بصحبة الأمير جعفر ابن الخليفة، حفيد ملكشاه لفرضه ولياً للعهد. أما في بغداد فقد بدأت الاستعدادات للغلاء الذي يرافق وفود الملوك والسلاطين إليها عادةً.

ومن الغرب، من القاهرة، وصل فجأة إلى آلموت رجل مصري بزي تاجر، يحمل رسالة تهنئة ملغزة من الأمير نزار، الذي حمله كماً كبيراً من الهدايا لم يترك منها قطاع الطرق سوى بردة أضطر الرسول إلى ارتدائها وتمزيق بعض أطرافها ليعف اللصوص عنها. لم أكلف نفسي عناء الرد على نزار، كانت علاقتي به وبالقاهرة والفاطميين قد أضحت ورائي، ولكنني قدمت الرسول لأتباعي في الطابق السفلي من القلعة، والدعوة، الذين مازالوا يعتقدون أننا نتبع الفاطميين كدليل على صلتنا بهم. وأسكنته الجزء السفلي الذي بهره بأسواقه وصناعاته وحرفه المتكاملة الممتازة، فقد استجلبت إلى القلعة الصناع المهرة من أتباعنا في كل مكان، وأنتجوا في مدّة وجيزة مصنوعات ومشغولات لا نظير لها في فارس، من الأدوات المصنوعة من النحاس الطاليقوني إلى صناعة السجاد الشهيرة إلى صناعة الفخار والزجاج الأزرق الذي كانت تشتهر به منذ القدم بلدة كاساغار في سهل انداج، إلى الصناعات الخشبية إلى الأجبان والسمون الممتازة التي تنتجها مواشي وماعز جبال منطقة الديلم، حتى صارت القلعة تغذي منطقة رودبار وطاليقان وقزوين بهذه المنتجات وتكفيها، بل أن بعض التجار أخذوها أبعد من ذلك، وباعوها بأسعار عالية بسبب دقتها وجودتها وخلوها من الغش، وفرضت نفسها في الأسواق وإن على نحو ضيق باسم منتجات آلموتية. وبعد أن قضى المصري نحو شهر في القلعة السفلى أعلن الرغبة في الرحيل والاستعداد لحمل الرسائل إلى الأمير نزار فأخبرت الدهدار بأن يدعه ينصرف..هكذا بلا أي تفاصيل أخرى.

في الثامن والعشرين من آب سنة ١٠٩٢م صار بالإمكان رؤية الغبار الذي

يثيره جيش أرسلان طاش وهو يقترب من القلعة. وانتشر الذعر وا لخوف بين قاطنيها.

كان عددنا أربعمائة وثلاثون شخصاً بين رجل وامرأة وطفل بمن فيهم الفداوية. ورغم كل ذلك لم آمر باتخاذ أي إجراء استعدادي أو احترازي من أي نوع. فقط أرسلت إلى الصناع خنجري الذي لم يفارق عبي منذ أن علقه والدي هناك قبل أربعين سنة، وطلبت أن يصنعوا لي واحداً يماثله. وقد شاع خبر ذاك الخنجر في كل مكان في القلعة كحدث جليل، وعندما سئل الدهدار عن سره أجاب كما أوصيته: "سيردُ به سيدنا جيش السلاجقة...فهو لا يريد أن يلوث خنجره الطاهر بدم الشياطين!".

كان كل شيء قد اكتمل على أحسن وجه ذاك المساء، يمشي التوفيق والدقة مع مخططاتي خطوة بخطوة. لم يحرز أبو طالب آراني أفضل النتائج، مع ذلك استدعيته لمقابلتي. جهز مثل عريس بعيد صلاة المغرب. وبعد أن تناول إفطارا دسماً في نهاية صومه الطويل، وألبس ثوباً رقيقاً من الحرير الأبيض، استقبله عند بوابة السور الخارجية كل من الموبذ موبذان والقصراني والدهدار وأبا الفتوح وشرف، وكلهم يرتدون ثياب بيضاء معطرة وعليهم إمارات الخشوع والرهبة، وساروا جميعاً إلى الداخل منكسي الرؤوس.

في الغرفة الداخلية من مسكني التي كانت تعبق بالبخور العطرة، وتتلاعب بين جدرانها النظيفة نسمة عليلة تهب من أسفل الوادي، ودعه الرجال متمنين له التوفيق، وآملين منه أن يكون متجلداً ورجلاً كما عهدوه!.

كانت النسمة تلامس الستارة البيضاء وتتهادى عليها وتموجها، فتتكسر صورة أراني وتتثنى في ركوعه الخاشع الذي رغبت أن يطول كثيراً، منتظراً مراقباً كل نأمة تصدر عنه.

أكثر من ساعتين ظل الشاب راكعاً على البساط بلا أي حركة ودون أن يصدر عنه أدنى صوت. استفزني مرة أخرى. كرهته مجدداً. واظبت على الصمت والسكون خلف الستارة. أخيراً جاءت تلك اللحظة التي فقد فيها إيمانه

للحظة بأنني موجود ..فتململ، ثم رفع وجهه ببطء إلى الستارة. لم يستطع أن يتبن ما وراءها، نقل بصره ذات اليمين متفحصاً وعندما عاد بنظره الكليل والحذر إلى حيث الستارة أعطيت شرفاً الإشارة فسحب الحبل وارتفعت بسرعة.

خشيت أن يموت. بقي جامداً بلا رفّة عين حين رآني... ولو أني لم أكلمه لبقي على ذلك الحال دهراً. كنت أرتدي ثوباً أبيض، محزوم بالكوستي، وعلى وجهي دواء مما تستخدمه الجواري لجعل الوجه مشرقاً ابيض وضعته لي بروانة الخبيرة. وأمامي طاولة أرضية عليها كوب كبير من الزجاج الأزرق الآخاذ، وشمعة وحيدة تتراقص شعلتها برخاوة. قلت: "تقدم يا أبا طالب". عجز كما توقعت عن الوقوف على قدميه. قلت مرة أخرى:" تقدم يا أبا طالب". ناشدتني عيناه بتوسل كأنهما تقولان: "لا استطيع!". أعطيت إشارة خفية فتقدم من خلفه الدهدار وأبا الفتوح ملثمين وحملاه من تحت أبطيه وأجلساه أمامي خاشعاً منكس الوجه. قلت بحزم: "انظر إلي". بصعوبة رفع وجهه. أضفت: "هل سمعت بشراب الجنان يا أبا طالب؟". قال من حلقه الجاف: "بلى يا سيدنا..". قلت: "هل تريد أن تتذوقه؟". قال: "كما تشاء يا سيدنا". قلت:"خذْ... هذا هو"، وأشرت إلى الكأس الكبير الذي حللت فيه كمية كبيرة من العسل والماء ومسحوق بذور الخشخاش. لكنه لم يحرك ساكناً فقلت آمراً: "خذه وأشربه". مد يده الراعشة وتناول الكأس. ارتشف رشفة وتوقف. سألته: "هل تعرف الهاوما يا آراني؟" قال "أجل يا سيدنا". سألته:"مالهاوما يا آراني؟". قال: "شراب الخلود". قلت: "انه بين يديك الآن فاشربه... كن خالداً يا آراني". نظر بوجل وشوق إلى الكأس الأزرق، ويبدو أنه لحظتها وحسب شعر بما فيه من حلاوة. قلت مشجعاً: "اشرب". عبَّ الكأس، شربه حتى آخر قطرة وأبقاه فارغاً بين كفيه وهو ينظر إلى الأسفل. رحت أراقبه بدقة وعندما تراخت أصابعه وقدرت أن النشوة قد راحت تسري في عروقه سألته مجدداً: "هل تريد أن تدخل الجنة يا أبا طالب". هزَّ رأسه بخجل. قلت: "فأني أدخلك إياها ... لليلة واحدة...". لم

يقل شيئاً، لكني رأيت ابتسامته ذات التكشيرة الجامدة تتسع لتملأ وجهه، وتقوس شاربه الرفيع نحو الأعلى. وضع الكأس من يده ثم رفع وجهه نحوي ونظر إلي بعينين محبتين مغرورقتين بالدمع. قال: "شكراً لك يا إلهي". بادلته نظرات المحبة، أحببته لبرهة قصيرة، كان وديعاً، مسكيناً، ضعيفاً. وبدأ الدواء يرفعه إلى أعالي النشوة، وأغمض عينيه حالماً. أعطيت الإشارة فتقدم الدهدار وألقى عليه ملاءة بيضاء وحمله مع أبا الفتوح إلى داخل الحديقة ، وتسلقت إلى الكوة الجانبية التي تطل عليها ورحت أراقب.

في الضوء الخافت للشموع المتوارية، وعلى أريكة تكللها شجرة كرمة وتحفُّ بها شجيرات ورد، وبالقرب من نافورة ماء صغيرة أجلسوه وغادروا. تقدمت بروانة الخبيرة التي أسقيتها مع رفيقتيها قدراً من محلول أوراق الخشخاش، ورفعت الملاءة عن وجهه بهدوء وتلذذ وهي تستطلع الجسد القوي الشاب، والوجه الملوح بالشموس، الحالم الباسم. ثم تقدمت رفيقتيها منتشيتين أيضاً متشوقتين لرائحة وملمس رجل حرمن منه منذ قدمن إلى هذا الصقع النائي قبل عامين.

دون كلمات تفاهم الجميع، كان يخمن بما بقي له من وعي، أنه في الجنة، بين الحوريات الموكلات بإدخال السرور إلى نفسه فاستسلم لهن، وكن يدركن مسبقاً أنه لهن بالإطلاق، فأقبلن عليه. كانت بروانة الأولى، تقدمت نحوه وداعبته بحركات بارعة متلمسة وجهه ورقبته وصدره لتتأكد من كونه رجلاً حقيقياً، وتبعتها جالا وزهرة التي كانت خجلة بعض الشيء. لكن الأمر لم يطل كثيراً فسرعان ما وصلت بروانة في تقصيها المحموم إلى عضوه الهائل الحجم، المنتبج بجنون، فامتصته بحركات سريعة متشنجة من فمها. بينما انكبت جالا على شفتيه. وقبضت زهرة على أصابعه، تلمستها بارتباك، لكنها أمام انفلات وتعهُّر رفيقتيها لم تجد غضاضة من أخذ كفه إلى صدرها محاولة أن تطبق بها على ثديها الصغير. وعندما رفعت بروانة ثوبها الحريري الأبيض الواسع لتكشف

عن فخذيها الأكثر بياضاً، وتركبه في وسطه وتلكز نفسها عليه وهي تصهل، أخرجت جالا ثديها الأيسر ووضعته في فمه، وأخذت زهرة كفه إلى ملتقى فخذيها وضغطته هناك، فوق الثوب بداية، ثم تحته، وراحت تتأوه بما يشبه الألم. وعندما بدا أن بروانة بلغت أول ذروة لها ، انتزعتها بشراسة وامتطت الشاب وراحت ترهز باضطراب وبلا خبرة.

في اللحظة التي بدأ فيها آراني يتحرك ويبادر نحو الفتيات الثلاث ويعريهن من ثيابهن بأصابعه الطويلة المقوسة، أمرت بإدخال الكأس الثاني من الهاوما إليه فشربه وهو منهمك بمعالجة فتحة جالا الصغيرة. ثم خارت قواه ووقع في الغيبوبة. انتزعوه عندئذٍ من أيدي الفتيات الدائخات وحملوه إلى الخارج، إلى غرفة في القلعة الوسطى، لينام بعمق حتى ضحى اليوم التالي.

حين أفاق رائقاً سعيداً وتوجه إلى رفاقه في مدرسة الفداوية، كان جيش أرسلان طاش يضرب خيامه وراء نهر آلموت استعدادا لإلقاء الحصار. ووصلت حمامة من أصفهان تحمل رسالة من الأسدباذي يقول فيها أن قافلة السلطان تحركت نحو بغداد وهو في عدادها، بعد أن أطمأن نظام لوصول الجيوش إلى مقاصدها.

مرت سحابة ذلك النهار مثيرة مدهشة في القلعة، ففي الأسفل جيش لم ير سكان القلعة مثله قط، ينصب عساكره المنجنيقات، ويمدون الجسور فوق النهر. وفي الأعلى وبدل أن تنهمك القلعة بالاستعدادات والتجهز للحرب الضروس، كانت منشغلة بشاب لا يظن أحداً أن لديه مخيلة كافية لانتحال الحكايات الكاذبة، وهو يقول أنني قد أرسلته إلى الجنة لليلة واحدة، وأنه رأى هناك ما لم تر عين مثله قط، وذاق من اللذات ما لا يمكن لبشري أن يتخيله أو يصفه.

في المساء استدعيت آراني مجدداً، سألته من وراء الستارة إن كان يؤمن بي وإن كان يؤمن بأني أرسلته إلى الجنة. فقال أنه يؤمن بي حقاً وصدقاً. سألته إن

كان يرغب حقاً في الذهاب إلى الجنة إلى الأبد فأكد لي ذلك. سألته إن كان يعرف الطريق فهزَّ كتفيه. مررت له الخنجر الطاليقوني من أسفل الستارة وقلت له: "هذا مفتاح جنتك... وصدر نظام الملك الطوسي بابها ... اقتله... واقتل نفسك تفز بجنتي". تناول الخنجر الصغير بقداسة، قبله وضمه إلى صدره. دخل في تلك اللحظة الدهدار وأنهضه. شرح له الموبذ موبذان ما يتوجب عليه فعله، وكيفية اصطياد نظام الملك، شدد على أن يكون القتل علنياً، وأن يقول قبل أن يطعنه: هذه من سيدنا حسن الصباح. ثم هنأه مجلس الحكماء بالفوز العظيم مسبقاً، وتمنوا أن يلتقوه في الجنان.

هبط أبو طالب الصخرة عبر المنحدرات الوعرة والطرق السرية ليلاً، ودار حول الجبال والهضاب متحاشياً الجيش السلجوقي ثم توجه جنوباً، حافياً، يتدلى تحت ثوب الكتان الرخيص الذي كان يلبسه حين وصل إلى القلعة، الخنجر الطاليقوني الصغير. وفي أحلام يقظته يتماوج الفردوس، الذي صار قاب قوسين أو أدنى.

٣٠

يكون المرء عبقرياً بمقدار ما يفتقد إلى العناد والعدوانية، وبما يمتلك من الإخلاص. لام الشيخ موفق نفسه لانسياقه لرغباتي والسماح لي بالذهاب إلى الري، وجاءني بطبيب زادني جنوحاً، وزادتني مراعاة الآخرين النابعة من الشفقة هياجاً. وحين كنت سأبلغ ضفة الأمان نفذ صبر الجميع وتخلوا عني، بما فيهم الشيخ ذاته، الذي كاد يطردني من مدرسته في لحظة من لحظات جنوني. وحده عمر الخيام ظل متفهماً ومخلصاً إلى النهاية.

عندما كنت أذرع الدروب حول نيسابور "متفكراً" في الوجهة التي ينبغي لي الذهاب إليها بعدما "أسفر" العالم هنا أيضاً، عن وجهه الحاقد. اعترضني عدة مرات كلب وضيع، كمنت له يوماً ومزقته بخنجر أبي فيما هو يربض مبترداً بالقرب من منزل صاحبه. نال ثيابي وكفي بأنيابه ومخالبه لكنني لم آبه لذلك وعدت كما أنا إلى غرفتي لأجد عمر بانتظاري. ألقيت خنجري المدمى على السرير وقلت له وأنا أغسل يدي من الدم دون أن أحييه: "عمر... غداً سآتي إلى بيتكم لأخطب زبيدة". للحظة خاطفة نظر إلي بخوف وشفقة، لو دامت نظرته وقتاً أطول، ربما أغمدت الخنجر في صدره. قال متصنعاً الاهتمام: "سنرى... سأكلمها في الأمر". وعندما تراخى ما كان مشدودا من عضلات وجهي وبدأت بمسح خنجري سأل: "لماذا لا تزورنا الليلة؟ الوالدة في غاية الشوق إليك... تقول

أنها ستأتي لزيارتك وتعزيتك بوالدك إن...". قاطعته آمراً بسبابتي: "لا.. لا تأتي... سأذهب أنا".

بعد أسبوعين من وصولي إلى نيسابور... وتعقد حالتي ما بين مرض قارض في الأحشاء لم ينفع معه دواء، وخوف متمادي من تلك الشياطين التي تبرز لي من كل بؤرة ظلام، ومناوشتي لها طوال الليل، وما بين إنكار الآخرين وسخريتهم وشفقتهم المميتة، بعد كل ذلك دخلت مجدداً إلى منزل آل الخيام حيث واحد من الأدوية القليلة التي كنت أدرك بحسي وحدسي أن فيها شفائي، رغم إنكاري المرض أصلا.... إذ لم تفارقني صورة زبيدة للحظة... كلماتها ابتساماتها وضعيات جسدها... رغبتها الأخيرة بي...

بذلت جهداً مضنياً لترتيب ثيابي الممزقة، بحيث أبدو عريساً مناسباً، حين لم أستطع مواراة البؤس الذي كان عليه ثوبي الذي مزقه الكلب وعمامتي الوسخة، استعضت عن كل هذه "المظاهر" السخيفة باعتداد طاووسي، ودخلت بيتهم بعيد صلاة العشاء مثل فاتح، عَسكرَ شهوراً طويلة في العراء خارج القلعة دون أن يطال القتال والبلى شيئاً أبعد من ثيابه. كنت صلباً لا أنثني، بالمعنى الحرفي للكلمة، فحين أخذت والدة عمر وجهي لتقبله بأمومية، تشنجت عنقي، ليس تشنج الخجول الضعيف الذي كنته يوماً، بل تشنج من يأنف عبارات العزاء والمواساة التي ينتهزها الضعفاء لمساواة أنفسهم بالأقوياء والمتفوقين. والرسالة الضمنية التي بعثتها بنظرتي إليها كانت: "لو كنا وحدنا لنكحتك". لكن شعور الندية هذا لم يصمد، سرعان ما ذوبه حنانها القلبي حين ضمت كفها على صدرها بجزع وهي تنظر إلى جسدي الذي أهزله الإسهال المتواصل قائلة: "ياوليدي... ما فعل بك الحزن اللعين؟ ارحم نفسك يا حبيبي كلنا أموات".

في هذه الأثناء ذهب عمر وآب عدة مرات إلى الغرف الداخلية. بعد عودته آخر مرة تبعته زبيدة التي لم تكن في استقبالي. وقفت بالباب، خيبتني حين لم تتزين، قالت وهي تتظاهر بأنها تحاول أن تكتم سخريتها بكفها: "عفوك يا إلهي! صار مثل سنسك المجنون".

ابتسمت!. لم تنس تلك الإهانة، لكنها لا تعلم كم ندمت وأسفت منذ ذلك اليوم، وكم تمنيت لو تمنحني فرصة أخرى لأدوس على كل ذلك الأسى الممتد - عمري - وأمضي وراء رغباتها الموغلة في العهر والجنون.

كنت مقتنعاً بأنها حين تعرف سيتغير كل شيء وسأخلص، سأتجو... قلت لعمر أني أريد أن أراه كما في الأيام الخوالي يقفز الجدار إلى سارة. رجوته وقد فاجأته رقتي وإن لَم تفاجئه تقلباتي، أذعن وأرسل إليها إشارة، حين عادت قال لي كما في الماضي: "هات زورقك يا أبا علي".. وقفز فوق الجدار. ما أن تأكدت أن سارة تلقته حتى نفضت كفي من تراب سرموجته وتوجهت إلى الداخل. كانت زبيدة وشقيقها قد أويا إلى غرفتيهما منذ حوالي الساعة، وكنت أخشى أنها نامت. صعدت الدرج بتلك الجرأة التي تبعثها الشهوة. من خلل الباب رأيت ضوءاً شحيحاً، وضعت أذني على الباب، لا صوت. شققت الباب قليلاً وعبر الشق رأيت زبيدة تزيل شعر ساقها بالعقدة، مسترشدة بضوء شمعة مركوزة على الأرض بين ساقيها. دفعت الباب برفق، لم تنتبه إلا بعد أن أغلقت الباب ورائي، استفاقت من تلذذها بآلامها الصغيرة المخدرة، وانتصبت مذعورة. حين عَرفت أنه أنا، تحول ذعرها إلى غضب جارف، وصرخت باشمئزاز.

كان والد عمر وشقيقه يحيطان بي متوفزين حانقين، فيما والدته تحاول إخراس زبيدة وهي تجأر مطالبة تفسيراً لوجود "هذا المجنون" هنا؟ عندما وصل عمر سحبني بهدوء وبعث إلى زبيدة نظرة محملة بالتهديد، فخرستْ. حاول أن يستبقيني في البيت، لكنه لم يلح عندما أشرت بكفي رافضاً، وسار معي إلى المدرسة صامتاً. ولم يغادرني إلا عندما تظاهرت بالنوم. بعيد خروجه نهضت وتوجهت إلى السوق، بحثت في الزقاق الذي رأيته ينام فيه يوماً. ركلت كومة من الأسمال القديمة، فبرز وجه عجوز مرعب من طرف لم أتوقعه، وامتدت كفٌ كبيرة من مكانٍ آخر غير متوقع، ونطق الوجه المغضن بالعبارة الفارقة: "والله جوعان". سألته: "أأنت سنسك؟". "أجل.. سنسك المجنون أنا".

صدمتني "المجنون أنا" تلك. قلت: "خذ" قال:"آآه...!" ثم ذكرني كأن لذلك أي أهمية: "أنا سنسك... المجنون.. لماذا تطعنني؟!". وبعد طعنة نافذة في الصدر صمت سنسك إلى الأبد.

في صباح اليوم التالي ظهر عميرة؛ بطريقة ما كنت في ذلك الصباح سأقتل نفسي، لو لم يظهر هذا الرجل. كان قد وصل إلى نيسابور بعد يومين من سفري إلى الري قادماً من هناك. حيث أخبر أمي وشقيقتي بموت أبي وحمل إليهم بعض النقود من أصدقائه. أما في نيسابور فقد ادعى أنه أحد أقاربي من بيهق، حيث قضى والدي، وبأن هذا الأخير قد حمَّله وصيةً لي. وعندما أخبروه أني توجهت إلى الري بدوري قال أنه سيعود لرؤيتي بعد شهرين من تاريخه، وها قد فعل.

هل رأيتم يوماً حصاناً جانحاً في سوق، في زمننا- قبل ألف عام- كان المشهد مألوفاً. يعتري الحصان هوس وحشي مفاجئ، وينطلق معربداً في عرض السوق وطوله، يعتدي ويرفس ويعض. تتعالى الصرخات عندئذ: "هاتوا صاحبه!". ما أن يشاهد الحصان صاحبه حتى يهرول إليه ويطرخ رقبته مستكيناً، وفي عينيه نظرة عتبٍ تقول: "أين كنت؟ لقد تأخرت كثيراً؟!". مثل حصانٍ جانح همدت مستكيناً عندما عرفني بنفسه بصوت خفيض: "أخوك عميرة، مبعوث مجلس الحكماء". كان شاباً في مطلع الثلاثينيات هادئ بطريقة تلزم الآخرين اتخاذ أقصى حالات الاسترخاء والهدوء. سمَّع لي الرسائل فسردتها له من الذاكرة. ثم طالبني باستنتاج الرسالة الأخيرة، فذكرت له ما تجمع لدي من أفكارٍ حولها. فجأة أخذ جبيني بين يديه وقبله، وهمس وهو يتطلع في قعر عيني: "شكراً ليزدان الذي أكرمنا بك". ثم وهو يعتمد بكفيه على منكبي: "ستشهد دعوتنا عندما ستقودها يوماً واحدة، من أعلى ذراها". أنا سأقود الدعوة يوماً؟! يال هذه الصدمة! كنت قد حلمت بهذا فيما مضى، كنت قد عملت لأجله بدأب، لكنني فقدت كل ذاك الحلم... منذ متى؟ منذ أن وضعت نفسي تحت نير تلك النسوة!. أجل ما أن اشتهيت زبيدة واهتممت لأمي وفاطمة

حتى فقدت كل إحساس بالعظمة والسمو... جعلتني النسوة أبدو وضيعاً أمام نفسي وأمامهن، سحقنني، أردنني أن أكون لا شيء. أن أكون خنثى. لكن لمَ؟ ما يدفع أمّاً وأختاً وحبيبة إلى تدمير من يحبن؟. لم أردن أن يخصينني؟. وتساءلت كأنني أفقت من كابوس:"كيف كنت آبه لتلك الكائنات التي بلا ضمير؟ من هنَّ إزاء إنسان شبه كامل كعميرة؟ كيف انزلقت بهذه الطريقة المخزية لأسعى إلى إرضاؤهن ونيل إعجابهن وتجاهل إعجاب رجال كأبي وعميرة ومجلس الحكماء العظام؟".

في يوم واحد تخلصت كما ولو بحمام طويل دافئ، من كل ذلك الدرن النسائي الذي خنق روحي وآلمها وعذبها حتى الموت. وكما ينظر المستحم إلى الماء يأخذ كمخ جسده وعرق روحه وسواد قلبه إلى ثقب حفرة النسيان، كنت أنظر بتشفٍ إلى أمي وفاطمة وزبيدة والنساء أجمعين وهن يغادرنني إلى بالوعة الخراء، غير مأسوفٍ عليهن.

رغم حكمته وخبرته الواسعة كان الشيخ موفق أكثر المتفاجئين بمنظري حين جئت أقبل يده وأستأذنه بالرحيل بثوبي الجديد الجميل، متوازناً مرتاحاً. وكما لو أنه يتأكد أنني عوفيت سألني متلمساً خامة الثوب قرب عينيه: "جميل هذا اللون من أختاره لك؟" قلت بهدوء"أنا" لم يبتسم. بدا حائراً أكثر، فقد كان لون البيج أهدأ من أن يختاره لنفسه مراهق مجنون.

انطلقت مع عميرة بذريعة أن لأبي تجارة لدى أقاربه في بيهق، أوصى أن اباشرها بنفسي. توجهنا إلى مجلس الحكماء الذي سيحلني فوراً وباستثناء غير مسبوق لشرط السن، محل أبي كعضو في مرتبة الأربعمائة.

٣١

تشاغلت عن تصعيد السلجوقي لنشاطه أسفل القلعة، بمراقبة الفتيات من الكوة السريَّة، وترقب الحمامات الزاجلات التي ازداد معدل وصولهن، يحملن الأنباء عن تطور الحصار في كهوستان، والسلطان الذي يقصد بغداد، وآراني الذي يغذ الخطى للحاق بموكبه.

كان احتمال صمود الكهوستانيين داخل قلاعهم الحصينة لمدة طويلة، غير أكيد. وأمرت القويني بالتزام الهدوء ومناوشة المحاصرين بأقل قدر ممكن من الاحتكاك، وانتظار بشارتي.

أما السلطان فقد وصل إلى بغداد في موكب عظيم ونثر تجارها الدنانير بين يديه، وتوجه إلى الخليفة وتملقه بأن طلب تقبيل يده، فرفض المقتدي، فتوسل ملكشاه تقبيل خاتم النبوة، وحين أعطاه إياه، قبله ووضعه على عينه.

لكن مساومته لاستخلاف حفيده جعفر فشلت، خاصة في المفاوضات الشاقة بين توركان ووالدة الخليفة، التي شهدت تهديداً ووعيداً متبادلان، لم يخرج إلى العلن بعد. ولم يتح بعد للأسدباذي الالتقاء بفيروزه للوقوف على تفاصيله.

وكإشارة إلى رسوخ إرادته، أمر ملكشاه ببناء قصر عظيم له وسط بغداد، وفعل مثله نظام الملك وكبار قادة الدولة. وكتأكيد على صلابة موقفه أيضاً دعا

الخليفة السلطان وحاشيته لحضور الخطبة في مسجد العباسيين لولده المستظهر وأخذ البيعة له. لكن السلطان ضبط نفسه، بضغط من أتابكه الذي نصحه بتوخي السبل الهادئة والسلمية وتأجيل المواجهة.

أما في أعلى قلعتي، فقد خلفت ليلة "الرجل" كما أطلقن عليها، حالة اكتئاب فاتر لدى الفتيات. وعندما تحدثت الفراشة "بروانة" أخيراً، اعترفت لزميلتيها بأنها عاشرت عشرات الفحول والأمراء، لكنها لم تشعر بجزء يسير من اللذة التي شعرت بها وهي تنكح هذا الفتى الذي - يقيناً- لم يقرب امرأة قبلها. الأمر الذي فسرته قطرة الندى بالحرمان. زهرة وحدها التقطت طرفاً من الحقيقة وقالت أنها شعرت بشيء... بلذة.. قبل أن ترى الفتى وتلمسه... ولعله كان الدواء... عند ذلك رفعت بروانة نظرها نحو الأعلى وتوامضت نظراتها القوية، حتى أني خشيت أن تخترق الستارة، فتراجعت عن الكوة.

في عصر اليوم السابع أو الثامن لمغادرة آراني، رأيتهن يتهامسن تحت شجرة الكرمة، وعجزت عن سماع صوتهن. كانت بروانة تجلس على الأريكة حيث جلس آراني وتتحدث ملوحة بذراعيها، وجالا تهز رأسها مقتنعة، فيما زهرة تقبض على شفتها السفلى بإبهامها وسبابتها. بعد قليل توجهن إلى غرفتهن وأغلقت الفراشة الباب بعد أن تلفتت في كل الاتجاهات، مع أن لا أحد يدخل إليهن في هذا الوقت. ولم يخرجن حتى هبط المساء. كن سعيدات ولا يتوقفن عن التودد لبعضهن البعض بالتلامس.

مساءاً، أعددن العشاء وهن يغنين. كانت بروانة وجالا تطعمان زهرة كأنها طفلتهما. وعندما توارى القمر أخرجن الحشيات إلى الفسحة المهواة، ومددنها لصق بعضها البعض، ثم أطفأن الشمعتين الذابلتين، وتغطين باللحف الصوفية، ونمن.

بعد شهر من انطلاقه، وصل آراني إلى همذان، متقمصاً أهاب صوفي، ذاهل وكثير الصمت، ويزخر بتصميم صلب على فعل شيء ما، كما كتب نائبي

هناك. أما في بغداد فقد خرج الخلاف أخيراً إلى العلن، وسدَّ حراس السلطان الطريق إلى المسجد الجامع، ومنعوا العامة من الوصول إلى حيث يفترض أن تؤخذ البيعة للمستظهر، فتأجل أخذ البيعة وأغلق الخليفة أبوابه محتجاً ورافضاً الخضوع لضغوط السلطان.

ليلة اكتمال القمر في منتصف شهر شعبان، شاهدت تحت ضوء البدر لأول مرة ما كان يحدث تحت أغطية نوم الفتيات، ويجعلهن سعيدات في الليل والنهار. كانت زهرة النحيلة السمراء تتمدد أولاً فتكشف القائدة بروانة ثوبها بنعومة، وتتلمس جلدها الرقيق المشدود إلى لحمها الصلب، ثم تتسلقها رويداً رويداً حتى تلتقي ركبتها بتلّة الزُهرة فتهرش نفسها هناك وتتمعج متشبثة على صدر شريكتها وأضلعها حتى تبلغ نشوتها. تتلوها جالا، ثم تتمدد إحداهما، بروانة غالباً، لتتيح لزهرة أن تحصل على السعادة أيضاً. ويستمر تبادل الأدوار ذاك حتى يهدهن التعب فيستحممن، ويغططن في نوم عميق.

في تلك الليلة لم أجد حيلة أهرب بها من رغبتي الشديدة بالهبوط إليهن واختراقهن واحدة بعد الأخرى، إلا باستطلاع أحوال الجيش السلجوقي، فأطللت عليه من مرصدي الفريد في أعلى نقطة من القلعة.

كان رجالي يخبرونني كل يوم بهجوم وهمي يشنه أرسلان طاش من هذه الناحية أو تلك من القلعة، محاولاً استكشاف قوتنا ورد فعلنا، ذلك الذي لم نقم به قط، فيعود للانسحاب خائباً غير مطمئن. ولم يبلغوني أبداً أنه حاول تسلق الصخرة من الجهة الغربية التي تكاد تكون انحداراتها شاقولية، ولا يمكن التفكير بعمل شيء من ناحيتها. لكنني في تلك الليلة اكتشفت أن عشرات الجنود، كانوا يزحفون على ذلك السفح نحو الأعلى مستفيدين من وقوعهم في الظل طوال النصف الأول من الليل، وعندما دار القمر دورته ووقعوا في نوره، كانوا قد وصلوا إلى كهف صخري، وبالتأكيد كان هناك أيضاً من سبقهم إلى ذلك التجويف، ربما منذ أيام، فقد كانت الصاعدون يحملون أكياس المؤونة،

وتدلت من الكهف الحبال.

طلبت القادة على الفور. كان رأي القصراني أن هؤلاء المتسلقون يعملون في الليل وينامون في النهار، وأن مهمتهم استطلاع القلعة من الأعلى أو القفز داخلها ومحاولة احتلالها بالمباغتة إن أمكن، أما الجيش الرئيسي فمهمته المشاغلة ليس إلا، وتوقع أن يقوم بمناورات كبيرة في الجهة الشرقية لجذب الأنظار بعيداً عن رجاله الزاحفين كالنمال من الغرب. قرَّ الرأي على أن نرصدهم من إحدى القمم المواجهة لمعرفة عددهم ثم نهاجمهم برجالنا الديلمين، ذوي الخبرة الطبيعية بتسلق الجبال والعمل على المنحدرات.

لم يستغرق الأمر الكثير من الوقت، انفجر الموقف في بغداد، وأمر السلطان الخليفة بمغادرتها حالاً، مع وولي عهده المستظهر في حال أصر على قراره!. وطلب الخليفة مهلة من عشرة أيام ليراجع حساباته، فعدَّ السلطان ذلك استمهالاً ليتمكن الخليفة من جمع أمواله وبيع أملاكه في بغداد فلم يمهله. ولجأ الخليفة إلى نظام الملك يتوسل مساعدته فوعده خيراً، وأقنع السلطان بإمهاله عسى أن يغير رأيه. والحقيقة التي لم يعرفها أحد أن الخليفة رأى في المنام تلك الليلة إنه يقف راعشاً، وهو في ضيق من أمره، تنحطُ إليه السيول الطامية من كل حدب وصوب، فاستغاث بجده العباس، الذي ظهر له على رأس جبلٍ مبتسماً، وأشار له بأصابعه العشرة، ثم اختفى. وأوَّل المقتدي ذلك بأن الفرج سيأتي بعد أيام عشرة، أو أسابيع عشرة أو أشهر عشرة. ومع أن الظروف ما كانت تنبئ بفرج محتمل قبل سنوات، لا أن ثقة المقتدي بابتسامة جده الذي لم يخذله قط، دفعته إلى طلب مهلة من عشرة أيام، هي أقصى ما يمكن أن يحلم بالحصول عليه من السلطان الهائج. الذي غادر بغداد مهدداً بالعودة إليها مع جيش كبير لتسلمها من الخليفة إن لم يغير موقفه.

في هذه الأثناء كان رجالنا الديالمة وفرقة الفداوية يهبطون بالحبال ظهراً إلى مكمن السلاجقة على الجانب الغربي من صخرة آلموت، وذبحوهم وهم

نيام. وأرسلوا ما يقارب الثلاثمائة جثة من التجويف الشاهق إلى أسفل الوادي. وترددت أصداء هذه العملية الذكية الجريئة من قزوين إلى كهوستان، باثة في رجالنا العزيمة والثقة بالنفس، وبي.

وفي سهل ساهنا، بالقرب من همذان، ليلة الجمعة السادس عشر من تشرين الثاني سنة ١٠٩٢م الموافق للعاشر من رمضان، التقى مبعوثي آراني، جيشي الفرد الذي يمشي على قدمين، بالرجل الذي صنع تاريخ المنطقة في الخمسين سنة المنصرمة.

كان ذاك هو اليوم العاشر من المهلة التي منحت للخليفة. كان يذرع مخدعه تحت أنظار قهرمانته المفضلة شمس النهار، الكائن الوحيد الذي أخبرها برؤياه. وبينما هو على تلك الحال والغانية تقول له مشجعة: "لا يمكن أن يكون ما رأيته أضغاث أحلام... يا مولاي". في تلك اللحظة بالذات كان نظام الملك يتوجه إلى خيمة حريمه على محفَّة يحملها غلمانه بعد أن تناول طعام الإفطار مع السلطان، عندما عرض لهم آراني بشعره الأشعث، وثوبه المرقع وعصابة رأسه الخضراء، مستعطياً. كان نظام الملك في تلك الأيام بدافع الخوف من الموت، يكثر من العطاء والصدقات لصغار الصوفية والفقراء والضعفاء، متوسلاً بذلك الرحمة من كل سبيل. أمر فتيانه بالتوقف، وأخلى كتفيه من العباءة واستخرج كيس نقوده الصغير الذي يلازمه، والذي يقال أنه يحوي كل ماله الحلال، وراح يفك خيطه قائلاً لآراني: "اقترب يا بني". فتقدم منه آراني ووقف قبالته حتى إذا صار أقرب الأشخاص إليه قال له: "ما جئتك مستعطياً". ألقى نظام نظرته الضعيفة الخبيرة إلى عمق عيني آراني وكفه لا تزال مغموسة في كيس النقود. ثم قال: "نعم". قال آراني: "جئتك بهدية من حسن الصباح!". كان سيقول "نعم... لقد عرفت". لكن آراني عاجله ليفتح باب جنته الدامي. وعندما أطلق غلمان نظام صرخة هلع صاعقة، اهتزت لها خيمة السلطان الكبيرة، أفاق آراني من حلمه المسكر الذي كان يقوده حتى تلك اللحظة، ونسي أنه جاء أصلاً ليُقتل ويفوز بالجنة التي بشرته بها، لا ليَقتل فحسب. ركض فاراً إلى نقطة معتمة،

لكنه عثر بطنب خيمة، فلحقه تركي عظيم الجثة، وضربه بمرزبة على أم رأسه، فنكت مخّه.

حين تناهى إلى سمع السلطان اللغط والصراخ وكلمة "قتله"، تذكر تحذير منجميه من كون تلك الأيام أيام سقوط الملوك، فأسرع إلى خيمته واحتمى بحراسه. ولم يقرب جثة أتابكه أو يختلط بالحشود خشية أن يكون بينهم قاتل آخر يترصده. ولم يجد الأمان إلا بين ثديي توركان الذين دسّ وجهه بينهما، فعضّت أذنه، معزيةً!.

أرسلت إلى القويني ليلة القتل البشارة، فصعد إلى أعلى قلعة طبس وقال: "أيها الناس... من كان في شك من أمر سيدنا عليه ما يستحق، وما وعد، فليسمع هذا النبأ.. الآن يُقتل الشيطان الأكبر... نظام الملك الطوسي... وهذا أول البركة، فلن يمضي كثير وقت حتى يموت الشيطان الآخر، ملكشاه السلجوقي... أيها الناس... بعد أيام قلائل ستتوارى هذه الجيوش التي تحاصركم، بعزيمة سيدنا، صادق الوعد، وتأييده وحده.." . وفعل مثله بوزرك أوميد في آلموت، فعلى التهليل والتكبير... والتسبيح بحمد "صادق الوعد" .

في تلك الليلة التي تواصلت فيها الاحتفالات حتى الصباح لم تمارس الفتيات لعبتهن اليومية، وتوسلن شرف لكي يأخذهن إلى حيث يستطعن مشاهدة ما يحدث، وطلبن تفسيراً له. فسمحت له بأخذهن إلى السور الداخلي وأن يريهن الجيوش المرابطة أسفل القلعة، دون أن يخبرهن بشيء سوى أنني أنا، سيِّدهن، قد قتلت نظام الملك، وسأقتل السلطان، لأنهما تجرأ على محاصرتي.

ثم جاءت الأخبار من فيروزه، فقد سمعت ملكشاه يقول لتوركان وهي تبثه أمنيتها الأخيرة بأن تصبح جدة خليفة: "ما دام لديك كل هذا الولع بالخلافة.. لم لا تصيري زوجة الخليفة؟!" . فضربته بظاهر كفها الرقيق على ثغره، وقالت بغنج: "لا أستبدلك بخلفاء الدنيا كلهم" . لكن ملكشاه لم يفرح بهذا الإعزاز، وقال محبطاً: "لم أقصد!... قصدت أن أقول لم لا أصير أنا الخليفة" . ثم

سَمعتهما يخططان وقد تلقفت توركان الفكرة الذهبية لعزل الخليفة وسجنه إن اقتضى الأمر، وجعل جعفر يتنازل عن حقه في الخلافة لجده. الذي سيتوجه غرباً ليزيل دولة الفاطميين.. ثم ثم ثم... ولكنه قبل كل ذلك سوف يقتلع الدملة الخبيثة القاتلة المسماة حسن الصباح. وحدد ما بعد أيام عيد الفطر موعداً لانطلاق مشاريعه، وحتى ذلك الحين قرر أن يستمتع بوقته مع توركان، التي قد لا يفرغ لها لسنوات قادمة.

ولحسن حظه أنه فعل واستمتع، فقد أرسلت إلى الأسدباذي بجناح الطائر الجواب الأسود الصغير، لهذا التحدي الصغير من ذلك السلطان الغبي، ومنه لعناية فيروزه، ومنها إلى...

في أول أيام عيد الأضحى خرج السلطان في نزهة صيد أخيرة، منتشياً بحلم الخلافة الذي لم يساور رجلاً لا ينتمي إلى آل النبي العرب قبله، مُجدِّداً حياته ومتعافياً به من جرح المذلة الذي ما لبث نظام الملك ينكأه منذ طفولته. كان يتقافز أمام ناظري توركان كعريس شاب، هيئ له أخيراً أن ينفرد بمحبوبته في خلاء وأحراش نهاوند... لا يتوانى عن تقبيلها ولا تتورع عن تقبيله، كلما آب إليها على حصانه السريع وألقى إليها بطريدة: "هذا الفاطمي..." ويلقي أرنباً برياً أبيض. ينطلق ثم يعود: "هذا ملك الصقالبة.." ويلقي نسراً أشهباً. وينطلق ويؤوب: "هذا ملك الزنج...". ويلقي سنوراً أسوداً مدمى. "هذا ابن الصباح" ويلقي ضباً ضخماً اخترقه سهم. ومرَّ جدي غزال يختال بعينين كبيرتين، نظر إليهما بغرور ولا مبالاة وواصل طريقه داخل الأكمة، يقتفي أثر الأعشاب الرقيقة التي لا تنمو إلا في الظل. ضحك ملكشاه لتوركان التي همست في أذنه: "هذا!... إنه الخليفة... سأشوي كبده بنفسي". وطار وراءه... عثر حصانه أكثر من مرة وكاد يوقعه. لكنه قبض عليه في النهاية حياً. وأمام توركان بطن الضبي بسيفه واستخرج الكبد، وألقاه إليها.

تناولت فيروزه الكبد الساخن وتبلته بالبهارات الهندية الثمينة. ورشت عليه دواء الملوك الأسود. شوت توركان الكبد على دخان الصندل، ترافقها طقطقات

جمر الأبنوس والضحكات الملكية التي تتعالى دون أي تحفظات، منذرة بشرٍ يتخفى في غفلة الجميع ومرحهم. أصرت توركان على أن يأكل سبعها الكبد كاملاً. وفي الخيمة الصحراوية تحلى بألذ شفتين في الدنيا، ونام ليستفيق على حمى حارقة، تصاعدت يوماً بعد يوم، وفي اليوم الثالث وصل أمهر الأطباء من أصفهان وفصدوا عرقه. لكنه مات يوم الجمعة الثاني عشر من كانون الأول، بعد أقل من شهر من موت أتابكه.

ورفع الحصار عن شعبي في كل مكان، وراح غوغاءهم يتململون يريدون الاندفاع ورائي حتى النهاية، لكنني لجمتهم بالقسوة ذاتها التي كنت ألجم بها رغبتي الجامحة أيضاً بالانسياق وراء هذا الإغراء، وذكرت نفسي وذكرتهم بالقران الذي لم ينعقد بعد.

أما الخليفة العباسي المقتدي بالله فقد قتلته النجوم، كانت الكواكب كلها قد توضعت في برج عطارد وطلعت على منزل الملوك وانحطت فيه إلى الحضيض، حاصدة روحه أيضاً دون أي تدخل مني. كان قد فرغ لتوه من تناول غداءه مع قهرمانته شمس النهار، التي راحت تسكب ماء الورد على كفيه من إبريقٍ ذهبي في طشت من الفضة حين نظر إلى الباب وسألها: "من هؤلاء الذين دخلوا علينا بلا استئذان؟"، تطلعت الى الباب فلم تر أحداً، وحين التفتت إليه وجدته غارقاً في طشت الماء ورد، وقد فارق الحياة.

٣٢

بعد أن تعرفت إلى مجلس الحكماء ورسموني عضوا في الأربعمائة، دخلت مباشرة مرحلة التحضير لدخول مرتبة الأربعين التالية. وكان الحكماء يريدون شاباً فيها لتقدم جميع أعضاؤها في السن وانقطاعهم عن الحركة وضعف معرفتهم بأحوال الأجيال الجديدة من المنتسبين. وكان مجلس الحكماء حينها مؤلفاً من رئيس الجمعية هبة الله الشيرازي سليل سيدنا سلمان المشهور بالفارسي في منصب موبذ موبذان، الذي أرغمه العباسيون على الفرار إلى مصر منذ ثلاثين سنة، بعد انكشاف علاقته مع البويهيين عقب مناظرة شهيرة مع السلطان أبي كاليجار، وقد أناب عنه مؤقتا النقيب أبو الفضل. وفي منصب الاصبهد "الفهم" حلَّ الشاعر العظيم أبو النصر خسرو أول شاعر وفيلسوف فارسي يكتب مجمل أعماله بلغتنا منذ الغزو العربي، والذي جاء من مقره النائي في وادي يومغان في بدخشان وسط جبال البامير. والهربد الأكبر "التمييز" حلَّ فيه الطبيب والعالم عبد الملك بن عطاش المشهور بلقب شيخ الجبل. فيما حلَّ صهره أبو حسين النيسابوري في منصب الرامشكر"الحفظ".

يتألف منهاج الأربعين الذي تسلمته، من كتبنا الأكثر قداسة وسرية، والأدق تعبيراً عن عقيدتنا من رسائل أخوان الصفاء بما لا يقاس، إنه كتاب إفستا الذي وضعه عدد من حكمائنا على رأسهم زارادشت. وهو كتاب في الحكمة العالية

والنبوءات المستقاة من الروحانيين في الأفلاك العلوية، التي تبسط حوادث هذا العالم منذ مجيء زارادشت، حتى انسحاب الروح الكلية من العالم. ولا اعتقد إن أي من رجال الأربعمائة وما دون قد اطلع عليه، فأبي أسماه الزند أفستا و" زند" تعني بالإفستية -الفارسية القديمة-:"تأويل".

ضاع منه واحداً وعشرون جزءاً إبان الغزو المقدوني لبلادنا، عندما أمر اسكندرهم-احد أقذر المجرمين عبر كل العصور- بإتلاف كل ما تصل إليه أيدي أتباعه من نسخ الأفستا المكتوبة بماء الذهب على رقاع من جلود الأسود، وكانت الطامة الكبرى حين اهتدى بأعجوبة إلى الأرشيف الملكي السري المحفوظ في اسطخر واحرقه. جمعت بعد ذلك بضعة أجزاء في العهدين البارتي والساساني، لتفقد ثانية في القرن السابع الميلادي عند اجتياح العرب للهضبة الفارسية في عهد عمر بن الخطاب، وأمره الشهير لسعد بن أبي وقاص: "اطرحها في البحر"! ورأى ابن الخطاب حينها في منامه أن ديكا نقره، فأولها بأن رجلا فارسياً سيقتله، وكان أن فعلها حكيمنا أبي لؤلؤة فيروز بخنجره ذي النصلين، انتقاماً لكتبنا المقدسة.

الكتاب الذي بين أيدي حكماء الجمعية اليوم، لا يزيد عن أربعة أجزاء أخذت عنه بتبسيط الأجزاء الأربعة من رسائل أخوان الصفاء، وهي كافية عموماً بعدما أضيفت إليه بعض الشروحات والملاحق، مثل كتاب فيراز الصالح، لتكون هادياً لشعب يزدان الملتمس طريقه عبر مملكة السفلة في سواد العالم الأرضي الظلماني إلى مملكة الخلود العلوية النورانية.

"في الليل عندما يولد هذا الملك الصغير ستقع نجمة من السماء على موضع ولادته...عندما يبلغ هذا الملك الثلاثين من عمره، سيأتي بأعلام كثيرة وجيش جرار مسلح تسليحاً جيداً...وعندما يقترب كوكب اورمازد من مكانه بشوق، وتقترب اناهيدا من مكان سقوطه، سيتسلم السلطة". هذا هو المقطع من أفستا الذي يبشر بظهور المسيح قبل حصوله بمئات السنين، والسلاح

المشار إليه ليس سوى كلمة الرب.

"ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودوس الملك إذ مجوس من المشرق قد جاؤوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمهُ في المشرق واتينا لنسجد له" وردت هذه الشهادة في أنجيل متى ، لتشهد لنا بما أنكره علينا العرب من كون الشرائع تمر عبرنا إلى بقية البشر.

قال يزدان لزارادشت في الجزء المسمى فاهومان في الأفستا ينبئه: "ستقع السلطة بيد الروميين والعرب البلداء الذين يفهمون بصعوبة، وسيحكمون بشكل سيء، لدرجة أن قتل الإنسان الشريف الصادق العفيف، كقتل ذبابة، لن تعني عندهم شيئاً... قل لأتباعك عندئذ أن يطمئنوا، فهكذا روح الشر تغدو أكثر قسوة ومكرا عندما تقترب لحظة هلاكها". و"ستهب الريح بعنف، ويزداد الحرمان والبؤس في العالم، سينبئ كوكبي المشتري وعطارد عن قيام مملكة السفلة، ويظهر الأبالسة الشعث وليدي الأهوال بالمئات، بالآلاف... بأعداد لا متناهية، وينحدرون كالحديد المصهور... سيهاجمون البلاد الفارسية من جهة الشرق، وستقع السيادة في أيدي الطورانيين المتوحشين العاجزين عن الإدارة، ولن يستطيع الإنسان الشريف الذي يتمنطق بحزام الكوستي المقدس أن يقوم بطقوس الطهارة على الوجه الأكمل لأن العالم سيكون مليئاً بالجثث". أؤكد لكم بأني اطلعت على الرقعة التي كتب عليها هذا المقطع، وأن عمرها لا يقل بحال عن مئتي عام، فيما الغزو الطوراني المفاجئ لبلادنا لم يحدث قبل أكثر من ثلاثين سنة. والجزء من النبوءة الذي يخبر بكيفية انتهاء هذه الموجة الجديدة من الشر، محفوظ أيضاً، لكنه بحاجة إلى شيء من التأويل والاستعانة بالنجوم. وهذا هو الباب الواسع الذي سألج منه إلى كبرى مغامرات حياتي.

في الرابع من تشرين الأول سنة ١٠٥٥ ميلادية، تجاوزت الاختبار المفروض لرتبة الأربعين بسهولة، وتسلمت مهمتي كداعٍ طليق، وهذه تعني أن أتجول كيف أشاء بين مراكز وتجمعات الدعوة وأمارس العمل الدعوي بالطريقة التي أرتئيها

مناسبة، وأقدم تقاريري إلى مجلس الحكماء كل ستة أشهر.

امتدت هذه المرحلة ما يقرب من خمسة عشر سنة، انكببت خلالها على استمالة وتلقين أعداد كبيرة من المستجيبين في طول وعرض الهضبة الفارسية، ونظمتهم في خلايا مرتبطة بي وترتبط عبري بمجلس الحكماء الأربعة. في الوقت عينه كنت أعيد تفحص مراجعي وكتبي المقدسة التي وجدتها تعتمد بدرجة كبيرة على علمي الفلك والرياضيات فغصت أكثر في لجة هذين العلمين المعقدين.

لفت نظري في كتبنا أمران، اهتممت بهما على هامش دراستي ورافقاني طوال أوقات سواحي وتجوالي كداع، الأول هو هاجس البحث عن "الهاوما"، والآخر هو الكلب.

فانهماكي في العمل الدعوي السري الخطر، باعتبار الداعي حربة الجمعية وترسها، لم يخفف من هواجسي وخوفي من الموت الذي انطبع كالوسم في عقلي وروحي، منذ أن هاجمتني الشياطين في الصحراء بين الري ونيسابور. ولما كان واجب الدين الأول، حل لغز الموت، فقد اهتم به ديننا على نحو خاص، وقد أمد المعتنق بوصفات عقائدية ومادية لقهر خوفه من الفناء، ودعم نزعة الخلود لديه وتوكيدها، ووجدت نفسي كثير التركيز على الوسائل المادية لما ينطوي عليه عقلي في الأصل من ريبة وتشكك.

في رسائل أخوان الصفاء إشارة عابرة لكن عميقة إلى شراب الجنان الذي يعد أعظم مكافأة للمؤمنين وهو الموأ إليه في الآية القرآنية: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة، أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا قد حرمها الله على الكافرين﴾.

إنه الهاوما ... "الرائع"، "الساحر". الذي يقول عنه الأفستا "أفضل المخلوقات في العالم الأرضي"، كائن ثلاثي الهيئة: الإله الذي ظهر لزارادشت في الفجر عندما كان قائماً على ناره يشعلها منشداً بعض الأناشيد، فرفع إليه

رأسه مبهورا وسأله:"من أنت يا من لم أرَ مثل روعتك ونورك المجيد الخالد؟" فأجابه: "أنا هاوما...أنا من يذود الموت عن الحياة ويدفعه بعيدا". وهو شراب قرباني يتم تناوله في الطقوس، ويصلح دواء للبدن من كل الأمراض والأسقام، مسكر لكنه لا يذهب بالعقل شأن المسكرات التي ابتدعها اهرمن لتشيع الغرور والبغض والشهوة الدنيئة بين البشر. وهو أيضاً نبات "شجرة الخلود" يتمو وسط خليج الفرس، أو على ضفاف نهر العالم راه، تحميه السمكة المقدسة كار، من ضفادع وجراذين اهرمن. عرَّف به زارادشت الحكماء فقط، وبقي بينهم سرا مصوناً إلى أن ضاع السر فيما ضاع من حكمتنا في غمرة صراعاته مع الظلمانيين.

سألت عنه الحكماء؛ قال لي الاصبهد أنه لم يبلغ من الفهم ما يخوله تحديد هذا النبات، ونفحني بيت شعر في محبة يزدان قال ضاحكاً:" لا أعرف مسكرا سواه". أما الرامشكر فقال: "لا توجد بين محفوظاته وثيقة واحدة تحدد النبات الذي يستخلص منه ولا توجد سوى طريقة إعداده واستعماله في القرابين والعبادات.. ينقع في الماء أياماً ثم يهرس بالمدقة ويخلط بالحليب وبذور الشعير ويترك أياماً أخرى قبل تناوله". وعندما سألت الهربد الأكبر عبد الملك بن عطاش تراجع على وسادته ونظر إلي بتمعن وقد طافت بوجهه ابتسامة اليقين التي أعشقها، ابتسامة إله يراقب البشر من عل، ويسخر من تصرفاتهم ودوافعهم ومخاوفهم...طالت تأمله كأنه يقول: "والله توقعت...!" ثم سألني: "ما أخبروك عني؟!" ."عالم حكيم، وطبيب حاذق...". "فأعلم أنني أدين بالصفة الأخيرة للغز الهاوما الذي حاولت حله مجرباً آلاف النباتات على مئات المرضى، والنتيجة ما سمعت، طبيب ماهر ليس إلاَّ... هل لديك أنت فكرة جديدة؟ يخيل لي أنك ترغب في الخلود أيضاً!".

يومها قلقت كثيراً، وخشيت أن يواجهني بحقيقتي الغائرة. قلت: "إقامة شعائرنا على الوجه الأكمل تقتضي استخدامه...ونشاطنا الدعوي سيقفز قفزة عظمى إن نحن قدمنا الهاوما للمدعوين كدليل محسوس...". سمعني صامتا

مبتسما كأنه يقول: "اكذب... اكذب أيها المخلوق البائس الخائف..".

ولم أسأل موبذ موبذان طبعاً، فأبن عطاش كفاني عناء السؤال: "لا يعرف... إن كان الأمر يهمك، ابحث عنه بنفسك".

أستطيع أن أصف سواحي كداع لخمسة عشر عاما بأنه كان سيرا وئيداً على خطى النجوم التي تقود مصير عالم الكون والفساد، ورحلة بحث عن الهاوما الذي يقود الموت إلى مكان بعيد. فإضافة إلى دراسة علم النجوم ومراقبة حركاتها وسكناتها بدقة، كنت أتقصى أي أثر لهذا النبات في السهول والجبال وعلى ضفاف الأنهار وحول الينابيع. وأسأل عنه موارية العطارين والأطباء والمزارعين والرعاة. وحين أتوصل إلى أي معلومة أسجلها وأقارنها بمعلوماتي الأخرى ثم أجربها على أول مريض أصادفه. عملنا السري كدعاة يقتضي ألا تطول إقامتنا في بلد واحد، وأن نعرف أنفسنا بين كل قوم باسم، وأن نغير بشكل دائم هيئتنا ولبسنا ومهنتنا. كنت بين بلد وآخر أقدم نفسي كطبيب عطار يداوي بالأعشاب وينقب عن المفيد النادر منها. ارتكبت في البداية أخطاء مميتة في المداواة، ثم تحسن أدائي وأشفيت العديد من المرضى. لكني كنت أهرب تحت جنح الظلام من كل إقليم اختبرت فيه وصفة جديدة للهاوما، فما من مُختبر أشرقت عليه الشمس حياً. جربت الكثير من النباتات بدءاً من تلك التي لا تنمو إلا في بلاد فارس مثلا الـ"ساليفا"، مرورا بالنباتات التي اشتهرت بخصائص منعشة أو مسكرة كالخلنج والايفدرا واليتوع والراوند وتفاح الجن"اللفاح". وجربت مرة فطراً سمعت أنه يمتلك خصائص مهيجة، سقيت خلاصته لراع من كرمان، صادفته يسرح بأغنامه وحيدا في ظاهر البلدة، شكا لي حين أخبرته بأني طبيب زكاماً طال أمده، فطلبت طاساً من الحليب مقابل الدواء، اختلج الكهل بشدة، وقبل أن أنتهي من شرب الحليب الطازج، كان قد فارق الحياة.

حين بدأت السواح كان يرافقني ديك وكلب، لكنني بعد أشهر تخليت عن الديك، فأنا لم أكن بحاجة إلى طير شرواش، الذي يطرد شيطان الكسل "بوشياست" بصياحه. لقد غسل هذا الشيطان يديه مني بالأشنان حين وجدني

أقطع عدة فراسخ في كل نهار وأنام أقل من هزيعين في اليوم الواحد، وأستيقظ مهما كنت مرهقاً قبل طير شرواش ذاته، الذي يفترض أنه ينبهنا إلى قرب طلوع عين يزدان، وأوان صلاة الفجر.

أما الكلب الذي ربطت أمه في حفرة بعد أن تأكدت من أنها لم تكن هي أو أي من أسلافها، ثمرة جماع كلبة وذئب أو بالعكس، وأطعمتها جيداً حتى جاءت نزوتها، فأطلقت عليها ثلاثة كلاب تأكدت أيضا من نقاء دمهم، فلقحوها. الكلب ابن الثلاثة كلاب الطاهرة، ما زال يتبعني طوال السنوات الخمسة عشر سنة كفرقة من المخلوقات التي اشتهي رفقتها. فالكلب كما يصفه الأفستا: "له طباع ثمانية مخلوقات، كالكاهن قنوع وديع وراض بحصته؛ كالمحارب يسير في الأمام؛ كالمزارع يقظ وينام بحذر؛ كالعبد قنوع وماكر؛ كاللص ينتظر حلول الظلام ليسرق طعامه؛ ينتظر الظلام كالوحش ليخطف طعامه؛ قنوع كالعاهرة ، ماكر كالعاهرة... يذهب بعيدا في الطريق..كالعاهرة؛ ناعس يسيل لعابه، يخرج لسانه ويبدأ الركض إلى الأمام... كالطفل". وفي الليل يطرد شيطان الموت بنباحه ويرهب ذباب الجثث بنظراته، ويقتل من منتصف الليل حتى الصباح آلاف المخلوقات الشريرة. وعندما يموت الكلب تذهب روحه إلى ينابيع المياه لتتحول روح كل ألف كلب إلى كلب ماء. ومن يقتل الكلب تلعن روحه لعشرة أجيال، ولن يجتاز جسر جينيفات ما لم يكفر عن ذنبه بأن يحفر بكمال التقوى لأناس صالحين، جدول ماء جار.

وبينما كان كلبي يتبعني وحيدا عبر القفار والبراري، كنت أتبعه في السماء. فمجموعته "نجوم الكلب الأكبر" كانت نجوم سعدي، وألهمت تحتها كشفي الخارق، الذي سيغير مجرى حياتي ويجعله اشد صعوداً وخطورة.

❖❖❖

٣٣

وضعني غموض شخصيتي، والطريقة العنيفة التي قدمتها بها، لأولئك الناس الخائفين، في مكانة أعلى بكثير من كوني متمرداً أو مخلصاً. راح رجالي حتى أكثرهم تردداً يلقون بأنفسهم إلى الأهداف التي أحددها لهم بلا أي تردد. لم يعد ينظر الفارسي مهما كان ضعيفاً إلى التركي كرجل عريض المنكبين مفتول الساعدين، ولم يعد للعربي صورة القسوة المجسدة، والقدرة على الفتك. صارت عاصمة العالم بالنسبة لهم قلعة حصينة تغفو بين الغيوم، على صخرة جرداء حصينة.

كتمت تركان وفاة سلطانها وحبيبها، وحملته إلى أصفهان، ريثما يتسنى لها أن تستحلف قادة الجيش والأمراء لابنها محمود ذي السنوات الأربع. وحين فاحت رائحة الجثة دفنتها سراً إلى جانب الطريق. وراحت تراسل القادة والأمراء قائلة أنها امرأة وحيدة بلا زوج، تحيق بولدها الصغير الذئاب، مبدية استعدادها لبذل أي شيء لمن يصونه ويحفظ حقه في السلطنة. فأسال "أي شيء" لعاب أمراء الجيش، الذي تكالبوا على خدمتها والتزلف لها. وأرسلت إلى الخليفة تطلب الخطبة لولدها بالسلطنة... ومن عجب أن الغزالي الذي امتدحه نظام الملك قبل خمسة عشر عاماً، كان المفتى الذي لجأ إليه الخليفة المقتدي قبل وفاته، فأفتى هذا أن الشرع لا يجيز ولاية محمود لصغر سنه، فهو لم يبلغ

الخامسة بعد، فاشترط الخليفة أن يكون اسم السلطنة لولدها، على أن يدبر الجيوش ويرعى البلد الأمير أُنر. الذي آملاً بتوركان، ساعياً في كسب ودها، فقبلت الشرطين.

لكن عشاق توركان الآخرون، وما أكثرهم، لم ترضهم هذه القسمة، ووقفوا ينتظرون، وهم يتلمسون شواربهم.

قررت أن أوجه أحد أحجاري وجهةً تبعث الاضطراب في الساحة المضطربة أصلاً، ويتخبط فيها الجميع بلا هداية ولا دراية. جعلت الأسدباذي يميل إلى جانب ابن السلطان الأكبر بركيارق، الذي هُمِّش طويلاً، واستبعد ليكون جندياً بسيطاً في الجيش، فأحيا الآمال في أمه زبيدة، وضمن لها نجاح تلك المغامرة. وظهر للتو واللحظة حلف جديد تقوده السلجوقية، تحت راية ولدها بركيارق، بمقابل حلف توركان وولدها محمود وعشاقها ومريديها الذين لم يفقدوا كل آمالهم بوصالها. كانت خطتي أن أديم هذه الصراعات المتشعبة المتخالفة، التي تقودها النساء في سبيل أطفالهن، أطول وقت ممكن.

في تلك السنوات كنت قادراً بالفعل على القول للشيء في فارس "كن فيكون". كنت قادراً على بسط سيطرتي ونفوذي التامين على البلاد التي أريد، بضربة واحدة. لكنني كنت ممتلئاً يقيناً أيضاً، بما قالته لي النجوم، ولم أكن لأقبل تحت أي إغراء استباق أحكامها.

كنت سعيداً، وشرعت بتأليف الكتب لأتباعي، فلطالما آمنت أن لا دعوة ترسخ في الأرض بلا كتاب، ولا رجل يوليه الناس أمرهم كاملاً إن لم يبدع شيئاً. فصورة الإله تنبثق من هنا، ويدوم فعلها عبر الزمن بهذه الصورة. ألفت العديد من الكتب والرسائل ودفعتها إلى مكتبة القلعة لينسخها أتباعي ويتداولوها في القلاع، خاصة في آلموت، التي جعلت مكتبتها أعظم مكتبة في الشرق، نظمتها على هيئة مكتبة دار الحكمة، وأرسلت رجالي ينهبون المكتبات ويستنسخون الكتب من كل موضع ذكرت فيه. وقسمتها إلى عدة مستويات، لم أسمح للعامة

من أتباعي بالاطلاع على كتب دعوتنا وحكمائنا، ولم اسمح لجزء كبير من الطبقة العليا التي كشف لها السر، بالاطلاع على كتب الفلسفة والمنطق وسواها، وحصرت ذلك بخاصة الخاصة، لا يبلغونها إلا بعد مسار طويل من التحصيل والتعلم في مختلف الميادين.

بالتزامن مع هذه التطورات، التي وجدتها الأهم والأمضى أثراً، كانت تدور في بلادنا أحداث لم تعرف مثيلاً لها منذ قرون. فقد واليت استدعائي للمنتسبين الشبان إلى فرق الدعاة والفداوية، وتواتر إدخالي للمتميزين من الفرقة الثانية إلى الجنة الصغيرة. وتطورت زراعة وتصنيع الخشخاش لدي بسرية مطلقة، لا يعرف بأمرها سوى الدهدار وأبو الفتوح وبوزرك وشرف. وقتل بخناجري أكثر من خمسين شخصية كبيرة من رجالات البلاد، بطرق مبهرة في وإتقانها وجرأتها. كان الفداوية، لينالوا البركة المؤكدة، يهتفون باسمي معلنين أنهم ينفذون مشيئتي في كل عملية يقومون بها، والتي كنت أصر دائما أن تحدث في موقف مشهود. قتلنا من نهاية سنة ١٠٩٢ م حتى سنة ١٠٩٦م، إسماعيل بن ياقوتي ابن عم ملكشاه وأمير أذربيجان القوي، وأقوى المتنافسين من أجل توركان، الذي كاد يظفر بها وبالدولة، وكنا سنلاقي فيه خصماً قوياً، قد يعيد السلطنة السلجوقية إلى سالف عهدها من القوة ، وبعد أن خُطبت له توركان وضربت اسمه على الدينار بعد ابنها محمود وبدء الترتيبات للزواج رغم معارضة كبار المتنافسين الآخرين. قبل ذلك قتلنا تاج الملك وزير بركيارق، الذي أبدى كفاءة عظيمة في خدمة سيده الشاب، خشيت معها أيضاً أن تقوم قائمة الدولة على يديه. وقتلنا أرسلان أراغون بن ألب أرسلان ملك خراسان، وقتلنا عبد الرحمن السميري وزير زبيدة أم بركيارق، لأنه اقترب من كشف سر الأسدباذي، رجلنا في معسكر بركيارق. وقتلنا الأمير أرغش النظامي أحد مماليك نظام الملك والمطالبين الأقوياء بدمه. وكذلك فعلنا بالأمير برسق وهو قائد من أيام طغرلبك أفصح عن اقتناعه بأننا وراء الخراب الذي يجتاح فارس

بهذه الصورة المتسارعة. ثم قتلنا الأمير إنر قائد جيوش توركان، قتله ثلاثة فداوية ارتدوا ثياب عسكره، وانقضوا عليه في مجلسه بخيمته ليلاً، صدم أولهم المشعل فألقاه، وصدم الآخر الشمعة فأطفأها، وأغمد الثالث خنجري في ذراعه فمات بالسم. وقتلنا الأمير بلكا بك أكثر الأمراء احتياطاً منا، ولا يفارقه درعه وحراسه الأشداء، وكان من رجال السلطان محمد تابار المنافس الجديد لبركيارق، لكن فداويين قتلاه... وفي مجلس سلطانه ذاته. وقتلنا فقيهاً مسموع الكلمة، يناهضنا ويجاهر بعدائه لنا، هو الحنفي أحمد بن الحسين البلخي. وقتلنا من يدعى بإمام الحرمين، أبا المعالي الجويني لتحريضه العامة بنيسابور علينا، ووصفنا بالملاحدة الزنادقة. وجعلنا الأمر يبدو كما لو أن منافسه الذي لم نكن نحبه أيضاً، وهو عربي آخر يدعى أبا البركات الثعلبي، هو من حرضنا عليه، فوثب إليه العامة وقتلوه وأكلوا لحمه. وقتلنا بالري فقيهاً يدعى أبا المظفر الجخندي وهو من أعقاب المهلب بن أبي صفرة، أحد قادة العرب الذين أخذوا بلادنا وأذلوا شعبنا فيما مضى، كان من أصحاب نظام الملك، ومن أشد المحرضين ضدنا، قتله فداوي وهو يكرِّه الناس بنا، ويؤلبهم علينا فوق منبر جامع الري الكبير. وكذلك فعلنا بأبي جعفر بن المشاط وهو من رؤساء الشافعية، تلميذالجخندي الذي أراد أن يواصل دعوته، تلقاه حين كان يهبط عن المنبر فداوي وقتله. وللسبب ذاته قتل فداويٌ القاضي صاعد بن أبي محمد النيسابوري الحنفي بجامع أصفهان. وقتلنا فخر الملك بن نظام الملك الذي لم يتوقف عن المطالبة بدم أبيه. وغيرهم الكثير... وكان في وسط الساحة الرئيسية بالقلعة السفلى صخرة رخامية ضخمة أمرت أن تنقش عليها أسماء الفتية الذين نالوا البركة العاجلة السريعة، حين لاقوا حتفهم بتلك الشجاعة.

وبحلول عام ١٠٩٦م، كان هناك ما يزيد على الخمسين اسماً لفتية مغمورين لم يسمع بهم أحد، إلى جانب شخصيات كانت أخبارهم وحكاياتهم تسير مع القوافل في كل اتجاه، حتى وضع الفتية نهاياتها المثيرة، التي أسست

لأسطورة كبرى جديدة، تحمل اسمي.

أما على صعيد الدعاة فقد كانت لنا انجازات مبهرة أيضاً. فالفداوية حرثوا الطريق بخناجرهم ليقوم فوج من الدعاة المتحمسين بتمهيده وتسويته وجعله صالحاً لعبور الأحلام إلى مصاف الوقائع الراسخة. فبعد رفع الحصار عن آلموت وكهوستان واستيلاء رجالنا على معظم عتاد الجيشين الذين كانا يحاصراننا، واحتفاظهم بالقلاع التي استولينا عليها في كهوستان، بدأت الجهود حثيثة للاستيلاء على قلعة لاماسار الواقعة إلى الشرق من آلموت، على النقطة التي يتم من خلالها الولوج إلى وادي رودبار كله. وقد تمكن بوزرك أوميد من اجتراح تلك المعجزة، فاحتل القلعة بعد تحويل جنودها إلى دعوتنا. وبذلك باتت آلموت التي تحرسني حراسة مزدوجة في داخلها، محروسة هي بدورها بقلعة حصينة عند فم الوادي.

ثم أرسلت أبو حمزة العرجاني في ثلة من الدعاة إلى خوزستان حيث لي الكثير من الأتباع، فتمكنوا في مدة وجيزة من تحويل الناس هناك والاستيلاء على قلعتين بالقرب من عرجان. ثم قام داع قدير شاب بتحويل قائد كبير في الجيش السلجوقي من أصل فارسي هو مظفر، الذي أعلن انتماؤه لدعوتنا واستولى على قلعة كيردغوه جنوب دامغان، الهامة جداً بإطلالتها على طريق القوافل الرئيسي بين خراسان وغرب فارس. واستولينا على قلعة خالنكان، أخذها شاب تخرج من مدرسة الدعاة. ثم استولى أبا الفتوح مع فرقة من الدعاة على قلعة اردْهن الحصينة مستخدما الأسلوب ذاته الذي اعتمدناه لعمل ذلك دائماً: تتسلل مجموعة من الدعاة إلى داخل الحصن بهيئة معلمين أو حرفيين، يتغلغلون ببطء وسرية بين سكان الحصن حتى يحولوا معظمهم. ثم يسفروا عن أنفسهم ودعوتهم، ويستأثروا بالقلعة. وقد ثبتت نجاعة هذا المنهج بما لا يدع مجالاً للشك حين طبقه أحمد بن عبد الملك بن عطاش، الأحمق المأفون، ونجح بالاستيلاء على قلعة شاه ديز، التي تطل على أصفهان، عاصمة ملك السلاجقة، مهددة جيوشهم الكبيرة في الليل والنهار.

وقد لعب كلٌ من الأسدباذي، الذي لم ألتق به منذ سنوات طويلة رغم اشتياقي له، وعاشقتي فيروزه، التي لم تتوقف يوماً عن بث محبتها الصامتة لي، أعظم دور في تحقيق تلك الانجازات. ففيروزه عيني التي أطل من خلالها على مخدع توركان خاتون الذي تصدر منه كل القرارات الهامة في الشطر الخاتوني من الدولة السلجوقية، ويدي التي أتدخل من خلالها في تأكيد أو تغيير مجرى الأحداث كما أشاء. ويلعب الأسدباذي دوراً مماثلاً في الشطر الزبيدي من تلك الدولة، فهو رفيق بركيارق ومستشاره الذي لا يفارقه.

وفي خريف سنة ١٠٩٥م، كنت من موقعي أعلى قلعة آلموت أطل على فارس فأجدها ملك يدي، تغطيها مشيئتي وسلطتي على شكل غلالة غير مرئية من الحمام الزاجل، الذي يطير في كل الاتجاهات حاملاً أوامري وتعليماتي إلى نوابي ودعاتي في القلاع والحصون المنتشرة كبثور المرض القاتل على وجه السلطنة السلجوقية، التي بات أمر سقوطها في يدي رهنٌ بالقران الفلكي الذي لم يعد يفصلنا عنه سوى شهور معدودة.

أعددت خطة العملية الكبرى ، ووزعتها على من يهمهم الأمر، قام البعض بتنفيذ الجزء التمهيدي منها بنجاح تام، وينتظر الآخرون إشارتي، وهم على أهبة الاستعداد .

وقد تخلصت فيروزه من آخر وارث لأحلام توركان، التي توقفت عند كونها زوجة سلطان، ومات ولدها محمد عن ثماني سنوات وماتت ابنتها زوجة المقتدي بعد موت ولده جعفر ابن المقتدي، الذي وقفت أعظم دولة في الشرق وراء حلم جعله خليفة فلم تفلح. وآل الجناح التوركاني إلى لا شيء بموت زعيمته المفاجيء.

أما الأسدباذي فقد دفع آلافاً من رجالنا سراً داخل جيش بركيارق، وصار لهم قادة وأمراء مستقلون يرتبطون بهم سراً، ويأتمرون بأمرهم داخل جسد الجيش السلجوقي. وهم يتسلحون ويتدربون بحماس كبير ليكونوا نواة جيشنا

الذي سأقوده في يوم القران العظيم، وأدخل أصفهان محرراً ومخلصاً ومفتتحاً دوراً جديداً من أدوار التاريخ، تستعيد فيه أمتنا مكانتها ومجدها وأرضها التي تمتد حتى بلاد الأغريق في الغرب.

وعندما وصلتني أخبار مصر، لم أحزن ولم أشفق على حليفي السابق نزار بن المستنصر، بل وعدت نفسي بجعل احتلال مصر وإسقاط الخلافة فيها الهدف التالي لاحتلال بغداد وإسقاط الخلافة العباسية.

وكان المستنصر قد مات في تلك السنوات التي نزلت فيها الكواكب إلى حضيض منازل الملوك، فقام الأفضل الجمالي الذي خلف أبيه بعد موته مؤخراً أيضاً، بتعيين ابن أخته المستعلي إماماً. وادعى أن المستنصر قد غير وصيته في أيامه الأخيرة لأنه اكتشف أن نزاراً يتعاطى الخمر!. فأعلن نزار الثورة من الإسكندرية حيث حلفاؤه القدامى، وأحرز بعض الانتصارات على جيوش الأفضل وضرب النقد باسمه. لكن دولته لم تعمر طويلاً، إذ قام إليه الأفضل بنفسه، على رأس جيش كبير وأسقطها. ثم جمعه مع كل أبنائه ونسائه ونساء أولاده وجواريهم التي يحتمل أن تكون أي منهن حاملاً، وبنى عليهم بيتاً بلا نوافذ أو أبواب، حتى هلكوا جميعاً.

٣٤

عندما تسلمت مهمتي كداع طليق، كان طغرلبك قد دخل بغداد مسقطاً عرش البويهيين، حماة جمعيتنا ورعاتها على مدى قرن من الزمان. وفيما كان آخر ملوك هذه الأسرة، السلطان الشاب أبو النصر خسرو، يذوي في سجنه بقلعة السيروان، كان المنتصران العجوزان يتبادلان الأميرات الصغيرات، وينزحان بقايا نطاف ظهريهما الجافين، إلى بطونهن الفتية، في محاولات يائسة لإنجاب ورثة العروش.

توفي في ذلك العام ذخيرة الدين أبو العباس، وحيد الخليفة وولي عهده الشاب، وخشي على الخلافة العباسية الخالية مضموناً من الخلو شكلا. وسارع وزيره ابن المسلمة إلى طلب يد أرسلان خاتون، ابنة جغرلبك للخليفة.

تم الزواج بسرعة، وحبس العالم الإسلامي أنفاسه بانتظار أخبار المواقعة الحاسمة بين الخليفة والأميرة الشابة، التي يتوقف عليها مصير تلك الحقبة من التاريخ، وتلك البقعة من العالم.

أنبأ اعتكاف الخليفة مكتئباً في قصره بهزيمته، وبدا له عرش أجداده متأرجحاً في سقف بلاطه العالي، بخيط عنكبوت. وفيما هو يفكر على هذا النحو ، تسللت إلى بلاطه جارية أرمنية حميراء، ذات عينين عسليتين، واسعتين وذكيتين، لتقيل الإمبراطورية العريقة من عثرتها ... قالت له أرجوان أن "المرحوم"

كان "يلمّ بها" وأنها حملت منه قبيل وفاته مباشرة، وأن جنينها بلغ شهره الثالث.

بعد ستة أشهر من موت سيدها وضعت أرجوان مولودها المنقذ: عبد الله بن محمد بن القائم الملقب بالمقتدي.

أما طغرلبك فقد بقي في بغداد ثلاثة عشر شهرا وأيام، دون أن يأذن له الخليفة بمقابلته، وكلما جدد طلبه نهى الوزير بن المسلمة الخليفة قائلاً: "دعه ينضج!".

يروي طغرلبك أنه رأى في شبابه، كأنَّه في خراسان، ثم صُعد به إلى السماء على سحابة تحف به العطور، ثم سمع صوتاً يخبره بأنه في هذه اللحظة قريب من ربه، فليدعه إن كانت لديه مسألة، فطلب لنفسه طول الأجل، واستجيب طلبه، وعلم أنه سيعيش سبعين سنة؛ فجعل طغرلبك يلحُّ ويدعو أن يزيده الله عليها فلم يُجب. وعندما هم بتكرار طلبه مرة رابعة، نصح بزجر أن يرضى بما قسم الله له! وهبط غير راض تماماً، لكن يقينه كان مطلقاً بأن لا قوة فوق الأرض قادرة على انتزاع روحه قبل بلوغه السبعين...

حين "نضج" واستدعاه الخليفة، جاء في دجلة على سميريَّة، وبالقرب من القصر نزل عن الماء وامتطى فرساً من مراكب الخليفة، وتوجه إلى البلاط وسط قادته ورجال دولته.

حين دخل على الخليفة الذي كان يجلس فوق سرير يرتفع سبعة أذرع عن الأرض، على كتفيه البردة العتيقة، وفوق وجهه البرقع، وبيده قضيب الخيزران... ارتعد لمرأى هذه الأشياء البسيطة، وتزلزت قدماه تحت جسده الجبار، ارتجف قلبه الذي لم يعرف الخوف قط، وتعرقت كفاه الذباحتان... تمنى لحظتها لو تنشق الأرض وتبتلعه، أو يرفعه طائر الموت من ذلك الموضع المهيب.

خرَّ "الذباح" بين يدي الخليفة وقبل الأرض ومرغ وجهه عليها، تضرع وشكر حين خاطبه الخليفة كما جرى الاتفاق مع ابن المسلمة بملك المشرق

والمغرب، شاكرا سعيه، حاقاً لفعله، ملقياً إليه الأمانة العظمى: "وليتك ما ولاني الله...".

منذ تلك اللحظة لم ينقطع طغرلبك عن التفكير بابنة الخليفة. فإن كان الله عاقبه لطمعه وقلة حيائه بأن حجب الذرية عنه، فليس سوى شفاعة واحدة من هذا النسل المبارك تصل ما قطعه الله.

تم للرجل الملحاح الصلب ما أراد وهو في الثامنة والستين، وبعد أخذ ورد، ورفض وتهديد، عقد له على "السيدة"، ابنة القائم بأمر الله.

أحبُك يا طغرلبك! أحب الطفل البدوي الأرعن الذي لا يكف عن تمسيد بطنه، والذي كتب معاتباً الخليفة عندما رفض مصاهرته: "أهذا جزائي من الخليفة الذي أنفقت أموالي في نصرته..؟!" ثم يعدد أعمالاً أقل أهمية: "..وقتلت أخي في خدمته، وأهلكت خواصي في محبته؟"... سأذهب من توي لأرى حاله في أيامه الأخيرة.

ها أنا في مدينة بعقوبا غرب العراق سنة ١٠٦٢م. طغرلبك خارج قصر السيدة ابنة الخليفة في صباح شتائي مشرق، عليه بردة الخز البختكي، ترشح أنفه فيمسحها بكمه، يراقب سرباً من النمل يخرج من نقب في الجدار، حاملاً حبيبات بيضاء صغيرة: "ماهذه الحبيبات؟". يتساءل طغرلبك..." أهي طعام؟!". العجوز المريض يتقدم خطوتين، يدوس بإصبع قدمه الحافية أبداً، نملة تنوء بحملها... يهش بقدمه الكبيرة الخشنة دافعاً بقية السرب إلى الداخل، يخاف النمل ويتقاطر عائداً. يطرق طغرلبك في ذلك الصباح المشرق يسائل نفسه: "أتراه حرمني من النسل لوقاحتي؟!". تخرج نملة بحمل أبيض كبير فيتوقف عن التفكير... التفكير ينتظر وهذه النملة مسرعة، يدنو منها ويفعسها... "وهذه السيدة لماذا لم تحبل؟!"... "وكيف ستحبل وأنت لم تستطع أن تجعل من نفسك أكثر من خادم لها... لم تجرؤ... لم تساورك نفسك... كيف؟!".

يطرق مرة أخرى مفكراً في ملكه الذي أحرزه"من سيرثه؟ أم أنه سيضيع؟"

بالطبع لن يضيع شيء، ففي بلخ الشرقية كان جغرلبك قد هيأ

للإمبراطورية قائدها الحقيقي الأول، ابنه ألب أرسلان... أمير صديقي نظام الملك الذي تألق نجمه أيضا وبرز كواحد من أعظم الوزراء في التاريخ كله... هكذا بدا الأمر لكنه لم يكن كذلك... لقد كان كل شيء، كما سيكون دائما من تدبير عالم خبير، معرفته إرادة، وإرادته فعل نافذ ... كن... فيكون.. وكل ذلك مدون في الأفستا، التي جاء فيها منذ آلاف السنين قول الرب يزدان لنجيه الحكيم: "اعرفْ كل الحقيقة يا زرادشت، واسعْ إليها بكل قلبك، عندما سيجتمع التركي والرومي والعربي في بلادي، سيبتعد شعبي من مكانه، بسبب ضربات أنسال الغضب، وستصح الكهوف والجبال منازل لهم، ولكن مع مرور الزمن ستضيء النار من جديد في البلدان الفارسية.. وفي ليلة مولد المخلص ستقع نجمة من السماء على مكان ولادته، وعندما يبلغ الثلاثين سينبعث الشعب الذي خلقته أنا يزدان، وسيكون له جيوش كثيرة ويسانده قادة عظام، وعندئذ تحل فيه روح الحي الناطق، ويعطي التأويل الحقيقي للدين، ويطهر العالم من الخبل والشهوة والغضب والحرص والحسد والشر... سينتهي زمن النهب ويحل زمن الهناء".

لم أشك للحظة واحدة فيما أنا أسوح في بلادنا لخمسة عشر عاماً، داعياً إلى هذا المعتقد أنني أنا: الحسن بن علي الصباح، ذلك المنقذ الذي خصه الرب يزدان بهذه النبوءة. كنت أرى استتباب الأمر للسلاجقة فأطمئن إلى الطريق، وأمضي فيه بثبات، يحالفني التوفيق في كل خطوة فاستبشر. كنت مؤثرا بسنوات عمري القليلة، ومقنعاً بجديتي، مذهلا بمعاريفي الغزيرة، مبهراً بثقتي بنفسي. استميل المستجيبين الجدد وأخذ العهد منهم في ليلة واحدة، أتمتع بإعجاب القدامى، وتنتشي روحي بعبارات الثناء والتبجيل التي يمتحوني إياها، وقبيل دخولي إلى أيما بلدة، كنت أراني في المنام أجوز أسواقها ودروبها عارياً، غير آبه بالأصابع تشير بغبطة خجولة إلى عضوي المتدلي من عانتي المرسلة.

وفي واحدة من تلك الليالي السعيدة زارتني "زوروش" ربة الرؤى: "من

إيران...أقبلت على غيمة نديَّة" كما يقول الفردوسي... لاطفتها حتى أحبتني، وعقدت قرانها عليَّ، ألقت إليَّ بخفها الحريري المزين بالخرز الملون، وألهمتني أسرار تأويل الرؤى.

ليس العرب المسلمون وحدهم من يعدون الرؤيا الصادقة جزءاً من أجزاء النبوة، عقيدتنا تقول إن الفرق بين نبي وصاحب رؤيا هو فرق بكم المنامات الصادقة ليس إلا. وإن الرؤيا هي وسيلة الاتصال الثانية بالروحانيين، بعد معرفة أحكام النجوم ومعاني حركات الكواكب.

يعتقد من يجهل أسرار المنامات وتأويلاتها بأنها لا شيء، وقد يهزُّ كتفيه قائلا: "وما فائدة معرفتنا بما سيحصل ما دام سيقع في جميع الأحوال؟"... هو يجهل مثلاً أن المنام الذي ينذر بحدث سيء يقع سريعاً، وفائدته تكمن في تهيئة نفس وبدن الإنسان لتلقي الخبر السيئ، أما المنام الذي يبشر بخبر سار فهو يأتي قبل وقوعه بزمن طويل فيشيع في النفس حالة من التفاؤل والترقب اللذيذ.

طبعا ليس هذا وحسب ما يعنيني من أمر المنامات، فشأني معها على صلة بعقيدتي وحلمي ومصير أبناء جنسي، لذا سعيت إلى تعميق موهبتي في استجلاب الرؤى وتأويلها، وقرأت كتب أسلافي بخصوصها، وزرت أشهر معبري الأحلام الفرس في زمني، وعلى رأسهم القشيري الذي تداولت معه على مدى شهر كامل، أصول هذا العلم وفروعه والتي ردها جميعاً إلى القلب. وسمح لي بالاطلاع على كتابه الذي كان يعكف على تأليفه بهذا الخصوص "الرسالة". كما أذن لي باستنساخ عدد من المؤلفات التي بحوزته: القادري للدينوري، والمنامات لابن أبي الدنيا، وسواهم...

لكني أدين بصقل معارفي وموهبتي الرؤيوية إلى مناماتي ذاتها، التي أتاحت لي مادة ممتازة للتدريب، وفك ألغاز ذلك العلم وولوج أسراره. كنت أسجلها ثم أسجل تأويلي لها ثم أقارنها بما يحدث في الواقع بعد ذلك. وأفادتني أيضا منامات الآخرين التي دأبت على سؤالهم عنها وتفسيرها لهم. وفوق ذلك أتقنت

وسائل استجلاب الرؤى وتهيئة انسب الظروف لاصطياد السارة منها . اكتشفت أن للأطعمة دور أول: "قل لي ماذا تأكل أقول لك ماذا ترى" . يلي ذلك الروائح، أبأس الرؤى تحصل لمن ينام وجوربه أو سرواله الداخلي قريب من أنفه.

اكتشفت شيئاً فشيئاً أن لغة المنامات، تلك القوارب المصنوعة من رموز ومعميات يعبر بها الرائي من العالم المادي إلى عالم الروح، هي مثل اللغة المنطوقة، تتفلت وتضيع إن انقطعت عنها طويلاً، فعمدت إلى تدوين المفردات ومعانيها حتى تكون منها لدي ما يشبه القاموس.

والآن إليكم خلاصة كل هذا الكفاح والسواح وراء فكرتي في ليال لا يعكر صفاءها ضجيج ولا همٌ، وحيداً في الفيافي والبلدات، بعيدا عن المدن والحواضر، خلف النجوم والرؤى والكلمات المقدسة، لا أحمل ولا أفكر ولا أعيش سوى عقيدتنا، داعيا إليها، دارسا لها، مترقياً في معراجها... بعد خمسة عشر عاماً تحولتُ إلى فكرة، صرت فكرتي... صارت نفسي رؤيا يضمها جلدي، وتوحد عقلي بالفكرة وتحرر بها، وشفَّ إحساسي، وثقب حدسي حتى صرت أطالع الغد وبعده وبعده كما أطالع كتاباً...

في ليلة السادس من نيسان سنة ١٠٧٠م، وكنت حينها عائداً من تبريز إلى زنجان، لذت بسور كرم لوز تتلامع في الظلمة أوراقه التي تفتحت للتو. بعد أن أنجزت صلاة الليل وانطفأت النار التي عطرتها بشذى وريقات نبات عطري يابسة أهداني إياها مستجيب من كرمنشاه، لم يبق لي ما أفعله سوى التدثر بمتاعي واحتضان كلبي والنوم، آملا أن أوهب مناما ساراً كما يحدث عادة في أوائل الليالي المظلمة وخاصة، في أوان تورق الشجر.

لم تخيب زوروش ظني، سرعان ما حطت بغيمتها المتلألئة، لم تنزل عن مركوبها وأمرتني: "اصعد بسرعة!" . حاول كلبي أن يصعد ورائي فاعتذرت منه قائلة "لن نتأخر" . وصعدنا يرافقنا صوت عواءه حتى اخترقنا فلك الهواء ونفذنا منه إلى فلك القمر، وشغلت عنه بالعالم الساحر الذي رأيته فيما يلي النهر

الأسود الفاصل بين حياة الكون والفساد، وحياة الروح الخالدة. حلقنا فوق جسر جينيفات الذي لا يستطيع سوى الصالحون اجتيازه، وعند طرف الجسر لوحت لنا فتاة فانخفضنا إليها، قالت الفتاة ذات الستة عشر ربيعاً التي لم أر من تضاهيها جمالاً: "أهلا بك يا حسن بن الصباح... لطالما حلمت برؤيتك؟" قلت متفاجئاً: "أنا؟ ومن أين لك بمعرفتي؟!" قالت: "أنا ديانا... أنا أعمالك الصالحة... أما عرفتني؟!"... وفيما زوروش تحلق من جديد متضاحكة، كانت ديانا التي صارت مثل نقطة في الأسفل تلوح لي قائلة: "أنتظرك!".

نفذت بنا الغيمة من فلك الهواء إلى عالم الأفلاك. حيث استقبلني "الفرافاشيون" الذي يسكنون فلك القمر، أرواح أجدادنا الشجعان الأتقياء الذين خدموا عقيدة يزدان وساعدوا ذريته أكثر من سواهم. والفرفاشي يبقى هاهنا ما يقارب الألف سنة ثم يصعد إلى المنزلة التالية، فلك عطارد، وهناك يبقون ألفا أخرى... ثم يصعدون إلى فلك الزهرة... وهكذا، حتى يبلغوا ـ بعد تسعة آلاف عام ـ الفلك المحيط، حيث تعود أرواحهم الجزئية إلى الاتحاد بالروح الكلية التي فاضوا عنها كما فاضت الأعداد من الواحد.

رفعتني الغيمة حتى حدود الفلك المحيط، كان مرورنا بالأفلاك سريعاً للأسف، لم يتح لي الوقت الكافي للتعرف إلى كل أجدادي والتشرف بمصافحتهم. كنت أتلقى رسالة تتضمن الكثير من المعلومات والأفكار التي تقتضي تركيزاً شديداً مع الفرفاشيين الذين يلقنوني إياها. وما أن اكتملت الرسالة، واعدتها للمرة الأخيرة على الفرفاشي الأكبر في فلك الكواكب الثابتة، ما أن وصلت إلى الكلمة الأخيرة فيها وقبل أن افتح فمي لأسأل عن أبي، حتى أخذت الغيمة بالانحدار سريعاً، حتى كاد قلبي يتوقف، وشعرت بانسحاب داخلي، وغامت المرئيات كأني أغوص إلى عمق جب مظلم، ثم بدأت سرعة نزول الغيمة تتباطأ، وبدأت اسمع كالنائم نباح كلبي يصبح أقرب فأقرب. ثم مالت الغيمة فسقطت من ارتفاع ذراع وتلقتني الأرض الترابية الهشة. استيقظت

مضطرباً ومتعرقاً ومنهكاً، وكان كلبي منتصب على أربع قوائمه المتباعدة، ينبح بعنف الخائف وذعره.... عندما فتحت عيني وابتسمت له، تحول نباحه إلى أنين مطمئن، وطفرت الدموع من عينيه.

❖❖❖

٣٥

عندما تداعى نوابي من سائر الأقاليم لحضور الاجتماع الأكبر الذي سأعطيهم خلاله التعليمات النهائية لخطة الاستيلاء على البلاد قبل القران الفلكي الكبير بأربعة أشهر. أحضر حسين القويني معه ولدي حسين ومحمد بعد أربع سنوات أمضياها في العمل تحت قيادته في كهوستان. قال لي مبرراً: "أنه أحب أن يفاجئني فأنا بالتأكيد اشتقت لهما!".

لم أسأل القويني عنهما طوال سنوات وجودهما معه، إلا كما أسأل عن بقية الشبان. وقد اتخذت منذ زمن بعيد مسافة عاطفية من الآخرين تحررني من تأثيرهم على قراراتي. فالمحبة مثل الصداقة، تقف في طريق أحلامنا وطموحاتنا، وتجعلنا قابلين للخداع. أنا لم أنخدع يوماً، وبما يتمتع ولداي حتى يكون لهما مكانة أعلى في مشاريعي، ماذا يستطيعان أن يقدما لي؟... خاصة وأني عزمت منذ حداثة سنواتي على أن أكون تجسيداً لأحلام والدي، وألا أفكر مطلقاً في نقل أحلامه أو أحلامي إلى أولادي. هذه الاستقلالية انسحبت بالتأكيد على كل المحيطين بي، وليس بين أتباعي اليوم، من أتورع عن إصدار أي أمر له، شأنه شأن الآخرين، باستثناء حسن ابن فاطمة. ولم أكن أشعر بأي عوز أو نقص من هذه الناحية، لقد عشت أيامي بلا قريب أو حبيب أو صديق.

على مدى ثلاثة أيام كنت اجتمع بالرجال صباح مساء، أحدد لكل واحد

دوره في الخطة النهائية، التي كان للأسدباذي نصيب الأسد فيها. فحين تقترن الكواكب في برج الحوت سأرسل له بجناح الطائر، ليعطي الإشارة لقادة جندنا في جيش بركيارق فيتسللون إلى قصره أو معسكره ليذبحونه مع حاشيته، ويتولون قيادة جيشه. ثم يعلن على مآذن أصفهان أن "سيدنا..." قد صار سيد البلاد. وبوصول الأخبار إلى الأقاليم الأخرى، ينتفض أتباعنا في تلك الأماكن وينزلون من قلاعهم ويتولون السلطة كاملة، في عرجان وخوزستان وأردهن وما حول كيردغوه، ثم يحشدون الجيوش من المتطوعين من أبناء شعبنا ويزحف الجميع نحو أصفهان حيث مقر قيادتنا في قلعة شاه ديز، التي سأرسل إليها مسبقاً كميات كبيرة من الأسلحة والعتاد. وهناك سألاقيهم لأدخل عاصمتنا. ثم ننتقل إلى الخطوة التالية وهي التوجه شمالاً إلى بغداد لنعيد العالم السفلي إلى وضعه الطبيعي فنزيل ملك العرب ونتربع على عرش الرقعة البيضاء الشرقية ونظهر ديننا.

قبيل مغادرتهم وصلتني توسلات زوجتي من طريق أبا الفتوح، بإبقاء حسين ومحمد في آلموت. وافقت على مضض، وعينتهما مدرسين في مدرسة الدعاة والفداوية. كانا قد أضحيا رجلين ناضجين. لحسين جسد نحيل، ووجه حالم، وعينان محبتان. يعانق زملاءه القدامى في مدرسة الدعاة بلهفة ومحبة قلبية صادقة، ولا يكفُّ عن التمسك بهم ولمسهم أثناء حديثه كأنه يريد الاحتفاظ بهم. أما محمد فقد تجلت رجولته بساعدين مفتولين وبنية باذخة، خفيفة بالقوة التي تكتنفها. كيتصرف باعتزاز وكبرياء. يصافح زملاءه القدامى من الفداوية الذين لم توكل إليهم مهام بعد، مصافحة قوية ليس فيها رخاوة المخاتلة، ولا شدة المغرورين. ولم يبد الحميمية نحو أحد، ولم يرفع الحواجز بينه وبين من يدربهم. كان متشدداً، أو هكذا شعرت، فيما يخص تبجيلي وهيبتي بين الفداوية الجدد.

ولعلي في تلك الأيام فكرت للحظة فيمن سيخلفني من ولدي. رأيتني

مؤسس الأسرة الصباحية التي ستواصل سلسلة الأسر الفارسية العريقة، وتخيلت فردوسي آخر يكتب سفر ملوكها، وحاولت أن أتوقع ما سيقوله عني وعن أول خلفائي، لكنني ما لبثت أن نحيت هذا السؤال الذي يكتنفه غرور أنا أحوج ما أكون للابتعاد عنه، فأنا يجب أن أفكر بواقعية بما بين يدي الآن.

مع تصاعد التحضيرات النهائية لعمليتنا الكبرى، راح توتري يتصاعد. ومع الازدياد الكبير في كم الأعمال والأشياء التي يجب أن أعطي قراري الدقيق بشأنها، ازدادت حساسيتي لأي منبه مزعج، وتضخمت ردود أفعالي على نحو لم أعرفه منذ استوليت على آلموت.

كان خبر اكتشاف القران الفلكي وحده كافياً لأبقى مشدود الأعصاب طوال شهر. فقد اكتشف منجمو الخليفة العباسي المستظهر بالله أن قراناً عظيماً سيحدث في برج الحوت، وأوّلوه بأن طوفاناً يقارب طوفان نوح سيصيب العالم. وقد جدَّ المستظهر في معرفة كنه هذا القران وتأويله، وأرسل يستشير عمر الخيام وابن عيسون، فأعتذر عمر بعدم المعرفة، وأجابه ابن عيسون بالقول إن طوفان نوح قد اجتمعت فيه الكواكب السبعة في برج الحوت، أما في هذا القران فسوف تجتمع ستة منها، ليس بينها زحل، فلو كان معها لكان مثل طوفان نوح. ووجد أن مدينة أو بقعة من الأرض يجتمع فيها الكثير من الناس من بلاد متعددة، يأتيهم طوفان فيغرقون. وخشي أن تكون بغداد. فأحكم الخليفة السدات حول دجلة، والمسنيات حول المدينة تحوطاً.

في تلك الأيام راح صوت مزمار يأتي من طرف القلعة السفلى، يستفزني ويخرجني عن طوري. أولا لأنني حرمت الغناء والعزف تحريماً مطلقاً كجزء من القوانين الصارمة التي فرضتها على سكان القلعة، التي لم أفسح فيها مكاناً مهما كان صغيراً للهو والمتع. وثانياً لأن شكوكاً تساورني حول كون من يعزف، ليس سوى ولدي حسين.

أصدرت أمراً جديداً بتحريم العزف، وأشرت إلى المزمار تحديداً، وتوعدت

من يعزف بمائة جلدة. كتبت رسالة في الموسيقى لمدرسة الدعاة أمرت أن يقوم بتدريسها حسين ذكرت فيها مقطعاً من رسائل إخوان الصفا يقول: "وعلّة تحرم الموسيقى في الشرائع والأديان استعمال الناس لها على سبيل اللهو واللعب والترغيب في شهوات الدنيا، والغرور بأمانيها". وذكرت أن أصل صناعة الموسيقى للحكماء، ولا يجوز للعامة والسوقة امتهانها. وأن إبليس أول من غنى من مخلوقات الرب. لكن ذلك لم ينفع، ولم يمنع العازف من بث أنغامه كل ليلة بعيد صلاة الغروب فيما أنا أراقب النجوم أو أنتظر حمامة من نائب بعيد، أو أفكر في حل لمعضلة طارئة، فيغلي دمي وتتوتر أعصابي إلى درجة أعجز معها عن التفكير في شيء. أخيراً أمرت بالتفتيش عن ذلك العازف، الذي زعمت أني أعرفه، وإعلام القصراني، صاحب القانون، الذي ينفذ بقسوة وحزم، القوانين المتشددة التي فرضتها على سكان القلعة.

مضت عدة أيام ولم يتقدم أحد من السكان ليخبر عن العازف المجهول، فتيقنت أنه حسين. سألت عميرة عن طريقة عيش حسين، فأخبرني بأنه ومحمد يغادران القلعة الوسطى مساء كل يوم إلى منزل والدتهما، ثم يعودان في الصباح. أردت أن أخبر صديقي القديم هذا بضيقي من ولديّ، وأن أطلب منه أن ينقل إليهما رجائي بألا يحرجاني، لكن الأيام والأحداث التي توالت والمسافات التي أوجدتها بيني وبينه كتابع صغير، منعتني من مفاتحته في هذا الأمر المخجل، فأمسكت.

كان كل شيء يمضي إلى الأمام على أحسن وجه، لكنني لم أكن مطمئناً، وتشاؤمي ليس بلا سبب، حتى وإن عجزت عن تحديد ذلك السبب، فصحة البدن إذا كانت في الغاية كانت أشد خطراً كما يقول أبقراط. والأفستا تقول إن الخير في هذه الدنيا مثل الغيمة الربيعية... يحجزها أي جبل.

وكان حدسي مصيباً هذه المرة أيضاً. جاءتني أول النذر في رسالة مضطربة ومربكة من الأسدباذي قبل موعد القران بشهر واحد، يقول فيها إن قادة

بركيارق فاتحوه بما يتهمه به الناس من الميل إليَّ، وحجتهم أنه لم يحاربني قط، وأن معظم ضحاياي من خصومه ومنافسيه. حتى أن عسكر خصمه محمد تابار، يكبرون في اللقاء عليهم قائلين "يا زنادقة..يا ملاحدة". وإن السلطان قد أذن لهم بمحاربتنا. لكن هذا ليس كل شيء، فالأهم والأخطر هو أن بركيارق راح يباعد بينه وبين الأسدباذي، ويمسك الأسرار عنه.

قضيت تلك الليلة مؤرقاً أتقلب على الظنون والشكوك، وأنتظر رسالة من الأسدباذي الذي أرسلت له بجناح الطائر أريد توضيحاً دقيقاً، وآخر الأخبار. وعندما طلع الصباح كنت في البرج الذي يطل على المدرستين أتابع بقلق الطلاب وهم يؤدون الصلاة الجماعية ليزدان، باحثاً عن حل سريع، بعدما اتخذت قراراً حازماً بمتابعة عمليتي الكبرى مهما حدث. وقد استقرَّ رأيي تقريباً على إرسال جميع الفداوية الذين بين يدي إلى داخل أصفهان، التي يتبعني ستة أحياء من أحيائها الثلاثة والعشرون، وأن يكمنوا هناك بين السكان الموالين لنا، لينتهزوا أول فرصة لقتل بركيارق، أو أيٍّ من قادته الكبار، خاصة وزيره الأعز أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني، زعيم العصبة التي تطالب باستئصالنا. لكن تصرف ولدي محمد في ذلك الصباح أطار صوابي، وأنساني قلقي، فما أن فرغ من الصلاة حتى توجه إلى مقربة من بيت حفظ النار، عند طرف السور الشمالي، وتبول واقفاً. إذ ناهيك عن تحريم الأفستا لذلك، لأن من يبول واقفاً يصبح خاضعاً لسلطة الشياطين ويقع على روحه إثم كبير شأنه شأن من يمشي منتعلاً الحذاء في قدم واحدة، فإن تصرفه ينم عن الهمجية والافتقار للأدب واحترام الآخرين. وأمرت القصراني بحبسه شهراً بعد أن يوضح له ذنبه. ولم يهدأ خاطري إلا حين أخبرني الدهدار أن محمد ابتسم حين عرف أنني من شاهده، ومن فرض العقوبة بحقه وقال: "إن لسيدنا الولاية على أرواحنا قبل أجسادنا".

في مساء ذلك النهار أدخلت خمسة من الفداوية الثلاثة والثلاثين إلى

الفتيات دفعة واحدة، ودفعتهم قبل شروق الشمس نحو أصفهان، تتأرجح تحت ثيابهم، خناجري الطاليقونية الصغيرة.

وفي آخر النهار جاءني الخبر المحبط الآخر من الأسدباذي: لقد أمره السلطان بركيارق بالتوجه إلى بغداد فوراً بذريعة أخذ أموال مؤيد الملك بن نظام الملك، وزير خصمه محمد تابار. أمرته بتسليم قيادة الدعوة في داخل المدينة لرجل يدعى منقذ بن حاكم، وتسليم قيادة الجنود في جيش بركيارق إلى مقدمهم محمد بن دشمنزيار بن كاكويه، والتوجه إلى بغداد كما أمر السلطان دون تلكؤٍ أو مراوغة.

ثم توالت دفعات الفدائيين المتدفقين بحماس منقطع النظير إلى أصفهان، وتسلم منقذ الدفعة الأولى ووزعهم على الأماكن التي يحتمل مرور السلطان أو رجاله فيها. اندس واحدٌ منهم تحت جناح ابن كاكويه ليترصد السلطان وأعوانه في معسكر الجيش، ثم رفد كل فداوي بآخر ثم بثالث.

لكنهم جميعاً عجزوا عن الظفر بأهدافهم، والأكثر خطورة أنني فقدت بغياب الأسدباذي، الرؤية داخل معسكر السلطان، الذي ند عنه صدى تحركات متواصلة سرية ومريبة.

كما أن منقذ الذي لم ألتقي به قط، تكشف عن مغامر ارعن وغبي، إذ أوَّل أمري باغتيال أعدائنا وإرهابهم إلى أمر باغتيال جميع من كانوا يخالفوننا المعتقد. وراح مع رجالي في أصفهان يختطفون الرجال من مختلف الأحياء ويقودونهم إلى أحيائنا ويجهزون عليهم. فعم الخوف والهلع بين العامة، ولجأوا إلى قاضي أصفهان أبو القاسم مسعود بن محمد الجخندي، وشكوا له، وهذا ذهبت شكوكه إلينا، وراح يتقصى حقيقتنا في المدينة، من طريق رجاله ومخبريه.

حين لم يبق على حدوث القران سوى أسبوع واحد، دارت الدوائر حولنا، وراحت تضيق. كنت أنظر إلى السماء كل ليلة وأرصد النجوم والكواكب فأتأكد أنها تسير نحو القران العتيد بنقلات واضحة لا لبس فيها. وأرجع إلى التطورات

الأخيرة أتفحصها ..فأجدها لا تسير باتجاه الهدف النهائي الذي ينبغي أن تلتقي فيه في اللحظة المناسبة مع ما قررته السماء.

صباح اليوم، الخامس من نيسان سنة ١٠٩٦م، قبل القران بخمسة أيام، كتبت إلى منقذ وابن كاكويه الأمر النهائي ببدء العمليات داخل أصفهان وجيشها بعد خمسة أيام، حتى في حال عجز الفداوية عن تنفيذ أهدافهم، على أن يكون هؤلاء في المقدمة لبث العزيمة في رجالنا والرعب في الأعداء، معلناً أن الرسائل بيننا ستتوقف من باب الحيطة في هذه الظروف الحساسة. وأرسلت إلى القلاع لكي تتهيأ للنزول إلى المدن والبلدات وجمع جيوش المتطوعين والزحف إلى أصفهان بمجرد قتلنا لبركيارق وقادة جيشه.

وفي مساء هذا اليوم أيضاً جاءني خبر يقصم الظهر من نائبي في بغداد، لقد قبض هناك على الأسدباذي بأمر من بركيارق، وقتل، وألقيت جثته خارج السور دون دفن أو صلاة. وأنه قال عندما لقي جلاديه: "هبوا أنكم قتلتموني، أتقدرون على قتل من بالقلاع والمدن؟".

أدركت أن رجالنا في أصفهان وفي كل مكان خارج القلاع في خطر شديد، وأن عليَّ أن أنقذهم فوراً. كتبت لاحمد بن عطاش في قلعة شاه ديز المطلة على أصفهان ليأمرهم باللجوء إلى القلعة، فرد في الحال بأنهم سخروا من طلبه وقالوا لا نفعل سوى ما أمرنا به سيدنا. وتجاهلوا نداءه، فابن كاكويه ومنقذ كلاهما يحتقر ابن عطاش ويستخف به. عندما كتب لي يخبرني بذلك استدعيت سحبان، آخر فداوي في القلعة، وكان فتىً نحيلاً أحمر البشرة، متردداً ومضطرباً على الدوام، ولا أظنه قادر على قتل أحد، ناهيك عن قتل نفسه. دون أن أدخله الجنة حملته رسالة ممهورة بخاتمي إلى منقذ ليلجأ مع أتباعنا وجنودنا إلى قلعة شاه ديز، وسلمه الدهدار حصاناً سريعاً. ومضى عند العشاء، لكنه عاد بعد انتصاف الليل طالباً مقابلتي لأمر هام جداً، رفض أن يفوه بي إلا أمامي. واستيقظ كل قادتي الذين كانوا هناك ليلتها، بوزرك

والدهدار والقصراني وعميرة، وحضروا معه.

جلسوا في الفناء يتهامسون بقلق فيما الولد يلف ويدور في الغرفة الصغيرة وراء الحجاب، متحدثاً عن إخلاصه لي، وعن معرفته بأني أعرف، وعن عذابه الشديد ... وشعوره بالذنب الذي لم يسمح له بالمغادرة والتقاء الموت وهو كاذب... صبرت عليه طويلاً حتى أفصح عما يريد قوله... إنه يعرف صاحب المزمار! ويعرف أصحابه! إنه ابني حسين، وثلاثة شبان من سكان القلعة السفلى، أقاموا وكراً لهم أسفل السور من جهة الجنوب التي لا سكان فيها. وأقسم أنه لا يفتري ولا يكذب، فهم الآن هناك وهو مستعد لقيادة من أريد إليهم.

لم أشأ أن أجعل القصراني يحطم رأسه بالمرزبة، وفضلت أن يحدث له ذلك في أصفهان. شكرته وقلت له أن هذا ما منعني في الحقيقة من إدخاله الجنة قبل تكليفه بالمهمة كما حدث لبقية زملائه. ثم ناديت قادتي الذين في الخارج وأمرتهم بلهجة حازمة بالذهاب جميعاً معه، وجلب العصاة.

جلبة الجنود الذين اعتقلوهم كانت مسموعة في الليل، طوال المسافة من السور الداخلي إلى آخر السور الشرقي في القلعة السفلى من جهة الشمال، حيث سمعت هناك أصوات اعتراض ومشاكسة وشخص ما يضرب آخر، وصراخاً وصيحات نسائية لأكثر من امرأة. في النهاية صعدت كتلة سوداء من البشر نحو الغرب، وسمعت القصراني ينهرهم عند بوابة السور الداخلي طالباً منهم العودة إلى بيوتهم، لكن بعضهم لم يبارح مكانه عند البوابة. وسمعت زوجتي تتوسل إلى بوزرك، وسمعت صوت فاطمة الصغيرة وهي تصرخ "أقبل أقدامكم اتركوه".

حين وصلوا إلى الأعلى توقفوا، دخل القادة فقط غرفة المقابلة الصغيرة مطأطأي الرؤوس وقد ألقوا بين يدي ثلاثة شبان في غاية السكر، عليهم آثار ضرب واضح، أحدهم ولدي حسين.

صمتُ طويلاً، تذكرت ذلك المنام الذي رأيته منذ أسبوع، كنت في سوق أصفهان عندما اعترضني ملاك طويل القامة، قدميه في الأرض وعينيه في السموات، وقف في طريقي متجهماً، ولم يخل طريقي إلا بعد أن أعطيته حصانين كنت أقودهما. "أهي رسالة كتلك التي رآها جدي إبراهيم حين أمر بذبح إسماعيل؟"، قلت في نفسي. تفكرت قليلاً فيما صمت قادتي وانتظارهم يثقل على كاهلي، ويطغى على شخير السكارى الثلاثة. "ماذا تنتظرون أن أقول أيها الأوباش؟!". كنت ادري جيداً أنهم يتنافسون سراً وبصمت للفوز بالمناصب في الدولة التي سأنشئ، كنت أدري جيداً أنهم ذاقوا طعم السلطة هنا واستعذبوه، وهم يحلمون بالسلطان الأكبر...سلطان الدولة الذي سيحصلون عليه إن هم أثبتوا عليَّ جمائلهم وأفضالهم من جهة، وإن قبضوا على ما يدينني من جهة أخرى بعدم النزاهة أو الانحياز... قال الدهدار متصنعاً الحزن: "لقد وجدناهم يعاقرون الخمر يا سيدنا..عليك ما تستحق". وتابع ملجلجاً: "لقد لفتت الضجة انتباه السكان ولم نستطع إخفاء شيء...". ثم تابع بخبث عظيم:"لكننا نستطيع أن نقول أي شيء...ليس لأحد سلطة فوق سلطتك". وقبل أن يكمل حديثه قلت بنبرة واثقة حاسمة وقعت كحد السيف على ألسنتهم: "عاقبوهم وفق القانون". وكان القانون الذي سننته، ونفذ لمرة واحدة، يقضي بقطع رأس شارب الخمر. تلجلج بوزرك قليلاً وهو يقول: "ولكنه... ولدك يا سيدنا". قلت مشيراً بظاهر كفي وأنا أصرفهم: "إنه عملٌ غير صالح".

٣٦

ذلك النهار الطويل، ذلك الكابوس الثقيل، الذي كادت صخرة آلموت تتفتت تحت وطأته... هل تغيب الشمس على نهارٍ أسوأ منه؟.

إنه المساء، يزدان يقترب من حافة السور الغربي. آخر الحمامات هبطت منذ قليل، تحمل أخبار أصفهان المرعبة. ومحمد يقاد مثل ثورٍ شرس هائج مزبد الفم دامي العينين إلى جذع الشجرة التي سيقطع رأسه عليها ...الجذع الذي حاولوا مسح الدم الحار عنه، لكنه تشربه إلى الأبد. لماذا يعلق الدم على الأشياء، ولا يزيله الماء ولا التراب ولا الزمن؟!.

أفاقت أصفهان اليوم على نذير الانتقام، رفع المؤذنون بدل تكبيرات صلاة الفجر عبارة "حيَّ على الجهاد". فهرع إليهم الرجال بسيوفهم ورماحهم ومرازبهم ودبابيسهم. التفوا حول القاضي أبي القاسم الجخندي، في جامع أصفهان الكبير، حدد لهم الأحياء التي يجب أن يباد أهلها الملاحدة الزنادیق...أرسلهم إلى أحيائنا الغارقة في النوم، وداهموهما من كل جانب، قتل من قاوم أو مانع، أخذ من استسلم وأذعن.. لكن لا ليسجن أو يطلق سراحه.

كان الجخندي الذي ينتقم لطائفة كبيرة من أبناء جلدته ودينه العرب، قد حلم طويلاً، وفكر وخطط لتلك الجريمة الوحشية. وقف كشيطان الموت، مشمراً عن ساعديه، فوق أخدود عظيم حفر بسرعة، ثم أمر بالحطب والزيت،

ثم أمر بالنار فأوقدت، وراح يلقي بأبنائنا رجالاً ونساءاً وشيوخاً وصغاراً أحياءاً إليها وهو يقول: "تلك هي النار التي تعبدون.. هي لكم، وأنتم لها".

وفي معسكر الجيش، نهض بركيارق قبل صلاة الفجر، وداهم جنوده خيام رجالنا، وضع السيف في رقابهم. واستطاع ابن كاكويه أن يهرب. قبضوا على إبراهيم بن الأسدباذي وكان جندياً فجدعوا أنفه وأذنيه، وآلموه حتى أعترف على جميع قادتنا ورجالنا في جيش بركيارق فقتلوا جميعاً. ثم ضلَّ ابن كاكويه الطريق، ووقع في معسكر بركيارق مجدداً فقتلوه. وضرب الحصار على أبن عطاش في شاه ديز، التي غادرها الرجال والتحقوا بمنقذ وابن كاكويه منذ أيام.

حين أدنو عنقه من الجذع الذي سيقطع عليه رأسه، قرب الصخرة المقدسة التي تحمل أسماء فدائيينا الشهداء، وفيما الدهدار يتلو جريمته وسبب العقوبة، راح محمد يصيح وهو ينظر إلى الجزء العلوي واصفاً إياي بالدجال... وبصوته القوي الذي طغى على زعيق والدته وشقيقتيه المفجوعتين، وعلى صوت الدهدار، شرح بكلمات مقتضبة الحيلة التي خدعتهم بها ... لا أدري كيف عرف بأمر جنتي الخادعة، ولا بأمر الخشخاش الذي أزرعه في أنداج، ولكنه أكد للناس ذلك، وتحداني... تحداني إن كنت صادقاً فيما أدعيه من الربوبية، أن أعيد حسين إلى الحياة!. قال ذلك فيما الجنود يحنون رأسه إلى الجذع الرطب ويقيدونه هناك.

كان حسين وزميليه، قد أعدموا في الصباح. وعندما ميز محمد من سجنه في القلعة الوسطى عويل أمه واستغاثة فاطمة التي كانت تناديه باسمه لينقذ شقيقه، حطم باب زنزانته وخرج إلى الساحة، وعند وصوله إلى جذع القصاص كان رأس حسين قد تدحرج، فأنقض على الشاهد الأخرق الذي أصريت على بقائه، وقتله، ثم قتل الجندي الذي قطع رأس شقيقه بالقدوم الكبير.

ولأنني رأيت رأس حسين وهو يقطع، ولأني أحسست برأسي لحظتها يتدحرج على الأرض، فقد هبطت الدرج الحجري سريعاً. لكن صورة الجلاد

الملثم وهو يرفع القدوم الثقيل عالياً ويهوي به على الرقبة الفتية، برزت من داخل رأسي، من خيالي، وراحت تناور لتمثل أمام عيني في كل وجهة اتجهت إليها.

وتواصل هبوط الحمامات بلا توقف: برغش السلجوقي يجمع آلاف العساكر ويتوجه نحو كهوستان لاستئصال شأفتنا هناك، وقد أفتى له الفقهاء بجواز قتل كل من كان على ديننا حتى لو أظهر التوبة والرجوع إلى الإسلام. جيوش السلطان في الولايات والمدن تحاصر أتباعي في قلعة خالنجان وأردهن والناظر وعرجان.

ثم أخيراً سقط أحد سكان قلعة شاه ديز في يد عساكر السلاجقة، وتوسل النجاة من الخيانة. أخبرهم أن لا رجال في القلعة، وأن ما يُرى على أسوارها أسلحة ودروع فارغة. ودلهم على أضعف نقطة في السور فتسلق منها العساكر وقبضوا على ابن عطاش، فصلب وسلخ جلده وحشي بالتبن، وأخذ رأسه ورأس ولده إلى السلطان. أما امرأته فقد ألقت نفسها من أعلى البرج وهي على إيمان مطلق بأنها في سبيلها إلى الجنة، لذلك وضعت عليها كل حليها التي تعشقها، وتريد لو تتزين بها هناك أيضاً.

بكيت تحت برج الحوت والكواكب الستة المقترنة، التي لم يخلف اجتماعها سوى حادثة مثل التي تنبأ بها ابن عيسون، فقد نزل الحجيج من كل مكان بوادي المناقت قرب بلدة نخلة، فأتاهم سيل عظيم فغرق أكثرهم. وأما سقوط الممالك، وأما قيام دولتنا، فقد كانت أمانٍ وأحلامٍ، دُفع ثمنها غالياً...

طوال أسبوع كامل لم أخرج من غرفتي، جاءني قادتي معزين في الليل والنهار، لكني لم أتلفظ بكلمة واحدة. استقبل بوزرك والدهدار والقصراني الرسائل من القلاع والمدن البعيدة وأجابوا عليها. بدوا متماسكين وهم يديرون الأمور ببراعة غير متأثرين بالنكسة التي وقعت، وظهر أنهم لا يريدون إثارة شيء حولها حتى تشفى جراحاتي.

عندما تكلمت لأول مرة قلت للدهدار: "ادع الناس... سأحدثهم". سألني

بوقاحة: "بِمَ؟!". كنت في تلك الأيام قد تخليت عن العادة السخيفة بالحديث إليهم من وراء الستارة. وكانوا ثلاثتهم: بوزرك والقصراني والدهدار، يجلسون على البسط في غرفتي الداخلية. رأيت أن لا ضير من إجابته، قلت: "سأعتذر لهم، وأتحلل مما وعدتهم به... لقد أخطأت". مسح شاربيه صعوداً ونزولاً ببطء ونظر إلى بوزرك بلا مبالاة. نظر نحوي الأخير كأن الدهدار قد أعطاه الإشارة ليتكلم قال: "إننا نعذرك يا سيدنا.. نحن نقدر ما تقاسيه من الألم... لكنها أيام عابرة ولا شك...". قلت محاولاً قدر الإمكان أن أظهر التجلد: "ليس عابراً يا بوزرك، القران مضى ولم يتحقق شيء. كان تأويلي خاطئاً". "كنا نعلم ذلك منذ البداية.. وكنتَ تعلم أنت أيضاً ذلك". قال الدهدار وهو يحدجني بنظرة ضارية. ابتلعت ريقي، قلت في نفسي أن كل شيء قد انهار ولا شك... شعرت أني مقبل على الموت قتلاً، فأحسست بالراحة أولاً، ثم استبد بي الخوف. قلت للدهدار: "لا يا أبا علي... لم أكن أعرف...". فتبسم بمكر. عدد بهزءٍ ألاعيبي وحيلي التي ملكت بها الناس، من جبل الثعابين إلى قمة آلموت.. قلت: "كنت بحاجة لحشد الرجال لليوم الموعود... ولم يكن من سبيل لجمعهم سوى بهذه الطريقة". فردَّ بقوله أني لو كنت مقتنعاً بالقران لآمنت بأن كل شيء سيحدث من تلقاء نفسه. صمت وأنا أنظر إلى وجهه الصارم وعينيه الساخرتين الحادتين، وكفه الموضوعة على مقبض السيف. ثم قلت: "لو لم أكن مؤمناً به لما قتلت ولدي... ". تكلم القصراني حينئذٍ. قال بنبرة مؤنبة: "أردت أن تعزز حظوظك بدمائهما... نصحناك بالتريث ووعدناك بإيجاد مخرج، لكنك تصرفت بصلف وغرور...". نظرت إليه غير مصدق. أهذا من كان يقنع الفداوية بإلوهيتي. أهو من كان يهتف بربوبيتي وصدق وعدي. كان بوزرك أكثرهم رحمة، قال لي كأنه يجيرني من ذينك الوحشين القاسيين: "أرى أن تمنح نفسك بعض الوقت لترتاح، ثم تفكر ونفكر جميعاً في مخرج لهذا المأزق..". قلت متوسلاً: "أي مخرج يا بوزرك.. لقد وعدتهم ولم يحدث شيء.. لقد حدث العكس تماماً". "نحن سنرتب هذا الأمر...". نبر الدهدار وهو يرمقني بقسوة. وتدخل بوزرك بهدوء قائلاً: "أنت

الآن في نظرهم الحي الناطق... لقد ساوينا بينك وبين الإله... والإله غير مطالب بتبرير أفعاله... مع ذلك سنقول أنه ربما بدا لك شيءٌ آخر، فبدلت مشيئتك..". لم أقل شيئاً. نطق القصراني مقرراً: "يخرج إليهم ويعدهم بالانتصار في آتي الأيام وكفى... فمن اقتنع اقتنع، ومن كفر عالجناه بالسيف". ارتعدت أوصالي، صارت فكرة معالجة أحد بالسيف ترعبني. نهضوا فجأة. قال بوزرك عند الباب: "لقد أهلكنا من أجل هذه الدولة المئات من أبنائنا يا حسن... ليس ولديك فقط من قتل في هذا السبيل... لا تنس أننا قدمنا عشرات الفداوية إلى القتل.. ما نقول لأهاليهم الآن، وما أقول للديالمة الذين يرون الخديعة أسوأ إهانة توجه إليهم؟!".

تركوني أفكر. لم أكن قادراً سوى على التألم. ولم أستطع أن أفكر في شي لا يريحني من العذاب، ولم يكن يريحني سوى التنكر لنفسي، ووضعها تحت مهرسة الاعتراف القاسي بجريمتي. بدا لي الموت لحظتها، سواء أجاء من أتباعي الغاضبين، أو من قادتي معقولاً ومقبولاً. كان اختراق رمح غاضب لصدري، أو غرز سيف غادر في ظهري، فكرة تبعث على الراحة والسكينة. قررت أن أظهر للناس، أن أعترف بكل شيء، أن أنهي عذاباً قد يطول لسنوات، في لحظة سريعة عابرة. ولكي يسمح لي رجالي المقربون بذلك، قررت أن أخدعهم.

طلبتهم للمرة الأخيرة، عندما حاولوا معرفة أي شيء عما سأقول قمعتهم بقوة وأنا أخاطبهم من وراء الحجاب، قلت: "سيعود كل شيء كما كان، لقد مرَّت الريح الشريرة!". وعندما حاول الدهدار أن يتأكد قائلاً: "أأنت متأكد؟" نهرته: "تأدب ياوقح...عندما سيستتب الأمر سأنظر في أمرك..". صمتوا. قلت: "فلتنشر الستارة فوق السور، وليدع شعبي.. سأظهر لهم اليوم".

عند العصر، عندما كانت الشمس تلقي أشعتها من الغرب في عيونهم فتبهرها مع بريق الستارة الحريرية المتموجة، صعدت الدرج بخطى وئيدة.

نظرت إلى صورتهم في الستارة، كانوا جمعاً متراصاً خائفاً، يطأطؤون رؤوسهم إلى الأسفل، ولا يجرؤن على النظر نحوي. كانوا أضعاف العدد المعتاد في القلعة، التي فروا إليها من كل مكان طُلبوا فيه. تنحنحت أجلو حلقي الذي كان يغص بالدموع، حين نطقت العبارة الأولى: "أيها الناس..إني ملقٍ إليكم قولاً ثقيلاً..." تهاوى عدد منه. تضايقت وملت برأسي ناحية اليسار غاضباً فإذا الدهدار يقف إلى جانبي وكفه على مقبض سيفه. تمنيت لو أني استطيع أن أدعو الحشد قبل أن ألقي إليه اعترافاتي لقتل هذا الخنزير النذل... لكنني كنت أدري أنني لا استطيع الذهاب سوى باتجاه واحد ... لا رجوع عنه.

تشوشت أفكاري... صاح شرف من الأسفل: "قل يا صادق الوعد ... قل يا سيدنا ... قل يا حيُّ... يا ناطق". لعنته في سري. صار له كرش كبير مذ تزوج. ويقوم ببعض المهمات الصغيرة بعد أن أوكل الى زوجته أمور خدمة غرفتي وغسيل ملابسي. ولعله بفضل خدمته لي يوماً، صار مخدوماً أكثر مني. نظرت إلى الدهدار بغضب، كان يرفع ذقنه إلى الأعلى ويحدق إلى الأمام متأهباً ومتيقظاً. شعرت بحركة إلى يميني، التفت فإذا القصراني أيضاً قد صعد الدرج ووقف هناك وراء الستارة. فجأة سمعت شرف يصرخ: "انظروا.. إنه سيدنا.. إنه سيدنا من يحلق بين السماء والأرض.. أنظروا..". سمعت تآوهاً جماعياً وسجد الكل. نظرت إلى السماء فلم أرى شيئاً، تلفت إلى حارسي المتربصين فلم أرى على وجهيهما سوى تعبير التهديد والقسوة. ثم صرخ شرف من جديد بالآية القرآنية: "قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين". ثم هتف: "فتمنوا الموت إن كنتم صادقين". لم أكن أفهم شيئاً مما يحدث، كأنه يحدث بلغة أخرى، أو تحت غلالة من السحر لم أكن أراها. لا أعتقد أن كل ردود الأفعال تلك قد أمر بها أحدهم أو على الأقل أوحى بها. صرخ شابٌ لا أعرفه قائلاً: "أقتلني يا سيدنا ... خذني يا سيدنا.. أتوسل إليك أعطني خنجرك.." وتردد صراخه بمئات الأفواه، يردحون كما في حلقات المجاذيب: "اقتلنا ... أعطنا خنجرك.. أقتلنا يا سيدنا". وصاح شاب آخر جارح الصوت: "هذه حباً بك ياسيدنا ...". وتشلبط السور

بخفة قط، وألقى نفسه إلى عمق الوادي السحيق. نظرت كالمشدوه من موقعي على السور إلى جسده يتمزق على الصخور المسننة وهو يسقط من ذلك الارتفاع الشاهق بسرعة هائلة، ثم وهو يتدحرج إلى القاع كتل لحم وردي، سرعان ما انحط إليها نسرٌ رمادي، كان يطوف في الوادي..

فجأة سمعت بين الجمع من يناديني باسمي، كانت زوجتي، تجأر بألم، وتتوسلني أن أعيد ولديها إلى الحياة!. تلفت حولي، صُدمت بعيني الدهدار اليقينيتين الصارمتين، وبنظرة القصراني البليغة في تعبيرها عن وحشية هذا الكائن الموغل في الحيوانية. عندما نظرت مرة أخرى إلى الستارة الحريرية البراقة لم أر من خلالها شيئاً، رأيت فحسب راية ترفرف في الأعلى، وتقود الناس إلى المهلكة، بقلوب راضية... هل أصابني الجنون أنا أيضا؟!.. هبطت الدرج مذعوراً، وأسرعت نحو غرفتي متعثراً. وأعتقد أني لمحت بثينة، تبكي بلا دموع، وتودُ لو تحتضنني...

لبدت في أقصى زاوية من الغرفة المظلمة، مرتعشاً خائفاً من ذلك السيل الذي يهمدر في الأسفل دون أن يتمكن من جرفي معه، فمن ذا سيقنعني بأنني إله؟!. كنت وحيدا وخائفاً، لا أدري ما يجب أن أفعل، ولا بما يجب أن أفكر، أبذلك الجنون الذي يضرب المئات ويجعلهم أكثر إيماناً بفكرتي التي لم أعد أنا نفسي مؤمناً بها؟!. أهو قدرتي على القتل ما جعلهم أكثر تعلقاً وتأثراً بي؟!. أم هو غريزة الشر والخنوع المركوزة في جبلتهم الأولى؟. وزوجتي التي تطالبني ببعث ولدي أحياءً، ألم أنم إلى جانبها، ألم أضاجعها وأشخر وأتغوط وأتبول تحت نظرها... ما الذي يحدث؟! هل أصبتُ بالجنون... هل حقاً لم أعد قادراً على فعل شيء... وترى لو أنني أخبرتهم أنني كذبت عليهم، وأن كل ما لقنتهم إياه خداع في خداع، هل كانت قلوبهم سترق؟ هل كانوا سيبكون تسامحاً؟ بالتأكيد لا؛ سيقتلونني، ثم يأتي من يقنعهم بأنهم قتلوا الشيطان الذي تلبس صورتي، وقد يكون الدهدار، ويقول أيضاً أنه يتصل بي، وأني حيٌ لا أموت، ولا أُرى. ثم

يواصل دعوتي، ويحمل رايتي، وقد ينجح في عمله، فيرفعني إلى مصاف الأرباب، وهو الذي دفع الناس لقتلي، وربما فعل ذلك بنفسه، وبدم بارد.

❖❖❖

٣٧

متكوماً على ذاتي في زاوية غرفتي، مثل جثة، لا أتحدث مع أحد، ولا أتصل بأحد، تمرُ فوقي الأيام السوداء، التي أعقبت تلك الحوادث. وكل الذين كانوا سيواسونني، يقبعون الآن خلف المسافات البعيدة التي أقصيتهم وراءها. زوجتي لم تسع للقائي. ابنتاي لا ترغبان برؤيتي بكل تأكيد. أبا الفتوح عالق في فخ السلطة في أردّهن... أراقب بعينين تصيران أضيق فأضيق، حركة الدهدار والقصراني وهما يتنقلان بين أعمدة العالم الذي أوجدته. ويديران الدولة الفريدة التي أنشأتها لمصلحتهم، هم حفنة الانتهازيين الذين صنعتهم من لا شيء، وجعلتهم نوابي وقادتي.

لست غاضباً ولا حاقداً، كنت مدمراً حتى النخاع. لا أشعر بتأثير شيء سوى تلك الصور المؤلمة، والأفكار والمشاعر السوداء التي أنكأ بها جراحات روحي كلما هجعت لأتأكد من وجودي: صورة حسين يتطلع باستغراب وعدم تصديق نحو الجزء الغربي من القلعة، حين وضعوا رأسه على الجذع ليُقطع، آملاً أن أهب إلى نجدته، لإنقاذه من الموت بكل قواي، شأن كل أب يُقتل ولده أمام عينيه. صورة محمد الشجاع، الذي لم يأبه للمجد والسلطان المنتظر، ولا يرهبه الموت، كأنه ليس من صلبي، أنا الذي لم أستطع أن آتي بدليل على قوتي، سوى بالسماح للآخرين بقتل ولديَّ... وشعور الراحة الذي خالجني لحظة قطعوا رأس محمد،

حين زال خوفي من انتقامه. صور الشبان الفدائيين الذين قذفت بهم إلى خصومي مثل حجر لا آبه إن أصاب هدفه أم أخطأه، أو إذا ما كان الجرح الذي يحدثه واحدهم عميقاً أم سطحياً؛ يهمني أن يُقتلوا ويَقتلوا بعيدا بما يكفي كي لا أرى الموت في أعين الفدائيين والضحايا الذين تلقوه بشجاعة لا أملكها. عواطفي ومحبتي اللذان قمعتهما وقبضتهما ومنعتهما عن الآخرين كي لا يعيقان مشاريعي. صورتي وأنا ألوذ بأطرافي وأضم ركبتي إلى صدري في زاوية غرفتي المظلمة، مرتعداً كلما عوى واحد من تلك الذئاب الفتية المتعطشة للموت والقتل قائلاً: "أعطني خنجرك يا سيدنا ... سأقتل نفسي" ... لا شيء سوى هذه يثير شيئاً داخلي، شيء أسود مقيء. أعض على شفتي السفلى وأبكي. وأتحدث إلى الأموات، ضحاياي، بعبارات تقطر ندماً وأسفاً واستغفاراً.

ثم عاودتني الكوابيس بهيئة سيل من الدم الأسود، يتنزل من تخت سليمان السابح بين غيوم حمراء. ثم جاء المغص بنصله المدبب، وفتح أحشائي على الهواء. رحت أرخي مصرَّتي بلا مبالاة في أول مكان يسترني، دون أن اكترث إذا ما كان الذي سال منها ذي لون أسود أم احمر دام. دون أن اغتسل. أعود إلى عزلتي، التي لا أجد شيئاً صلباً وثابتاً أتكيء عليه، سواها.

صار الدهدار المنفوش بدرعه وسيفه يدخل إلى غرفتي ويخرج منها على هواه، يذهب إلى برج الحمام عدة مرات في اليوم، يكتب الرسائل باسمي إلى النواب في الأقاليم، يتفقد الفتيات، يكلف شرف بمهمات من كل نوع، أخيرا يوصي زوجة شرف بالاهتمام بي، بما يبقيني حياً.

أحياناً تراودني الرغبة في القفز من أعلى السور إلى العامة. لأقتل نفسي بينهم فأحرجه. أخرج فعلاً إلى السور، أنظر إلى القلعة السفلى، أرض العامة، حيث البيوت والأكواخ التي ترزح تحت أكوام القش، إلى أسواق الحرفيين التي تعمل بلا انقطاع، إلى البيوت والمهاجع التي تؤوي وتبعث الأمان في بشر لم يعد لهم ملاذ آمن في أي مكان من العالم سوى هذا المكان... أتوقف طويلاً عند القلعة

الوسطى، حيث منازل القادة، ومهاجع الفداوية الذين عبروا النقطة الفاصلة بين البشرية والوحشية باتجاه الأخيرة، ليتخذوا الموت هدفاً، بعد أن قبلوا الفكرة المحكمة التي قدمتها لهم عن موتهم الجميل، وموت الآخرين الذي لابد منه. وزملائهم في مدرسة الدعاة، الشبان الأذكياء الذين تذوي عيونهم وهم يدرسون على ضوء الشموع ليلاً ليتقنوا فن الخداع، وجعل الديانة السرية جذابة، لا نظير لسحرها. أمدُّ بصري إلى البعيد، إلى ألبورز، ودامغان وخراسان وعرجان وكهوستان... إلى العالم البعيد الذي يظلله أفق مغبر، تغيب فيه حماماتي وتنبثق منه، حاملة أخبار القلاع والمدن، وأوامر القتل ورغبات الموت والحياة. أتخيل ما يمكن أن يجره انهيار هذا العالم على ساكنيه بانقلابي عليه، وما سيحدث لما بقي من حسين ومحمد، طفلتي فاطمة التي تقول أمها أنها تعشق حسين، وشاهة المولعة بمحمد.

أقصيت رغماً عني فكرة إحراج الدهدار. هو بدوره، بذكائه الفطري، وفهمه الغريزي للسلطة، عرف أنني تخليت له ولرفاقه عن كل شيء، وأنه الآن أثناء غياب بوزرك في لاماسار، إزاء مهمة إدارة الدولة التي لا تحتاج في الحقيقة لا إلى العبقرية ولا إلى الجلد ولا إلى التضحيات التي بذلت عند تأسيسها. لقد أضحى من الماضي الزمن الذي كنت أدرس فيه أحلام أصغر أتباعي لأخرج بقرار قد لا يتعدى الأمر بتحسين طعامه... بإمكان الذين آلت إليهم الآلة الكبرى التي أبدعتها، أن يجعلوها تعمل بكلمات بسيطة تحث على القتل، قتل النفس وقتل الآخرين، والقيام بعملية مثيرة هنا أو هناك، لإدامة الإحساس بالذات، وخوف الآخرين منا.

أما بثينة، الفتاة الطويلة الممتلئة التي لم ترزق بذرية بعد، فقد كانت الكائن الوحيد الذي تواصل معي بصمت، بعمق وإحساس مرهفين. مذ قابلتني عندما هبطت السور هارباً من طغيان الجنون الذي انفلت من كل عقال، بل مذ رأيتها أول مرة حين كنت أنصب أشراكي الصغيرة للريفيين خارج يزد، شعرت أنها من نوع الكائنات الذي يمكنني التواصل معه، بعفوية الكائنات المتشابهة.

كانت تقدم لي ثلاث وجبات دسمة في اليوم، وتنظف غرفتي وتهويها، وتغسل ثيابي وتسوي وضع فراشي والبسط والسجاجيد، بل أنها تصلح وضع الستارة الحريرية التي كانت تفصلني عمن أقابلهم، والتي يسحبها معه الدهدار بسيفه أو درعه، كلما دخل وخرج دون أن يأبه لإعادتها إلى مكانها.

لم أفاجأ كثيراً حين طلبت مني ذات صباح، بحذر شديد لا خجل فيه، أن تجلس لتحادثني، فقد كنت كائناً يستحق المواساة على كل حال. لكنها لم تكن تجيد ذلك النوع من النفاق، أجادت التعبير عن معرفتها الحدسية الأنثوية لحقيقتي، لمن أكون ككائن، كشخص ملأ الدنيا وشغل الناس مؤخراً. قالت إنها أدركت منذ أول لقاء لنا أنني رغم كل مواهبي، كائنٌ حزين معذب. وعندما شاهدت الترتيبات السرية في القلعة العليا، أدركت أنني أتوسل النجاة على حبل قصير وضعيف، سرعان ما سيودي بي إلى هوة أعمق من وادي آلموت. تبسمت بلا فرح، ممتناً لاهتمامها غير المتوقع، كانت الابتسامة الأولى، وكنت أشفق على نفسي حينها واسخر منها مُعذباً "ياللبؤس..هذه المرأة الصغيرة تدرك كل شيء، وأنت كنت تكابر...". ومن باب ردِّ الجميل سألتها عن حياتها، وعن علاقتها بشرف. تبسمت من قلبها هذه المرة، بدت، وهذا أسعدني، أنها نسيت مأساتي، وانتقلت إلى أشياء أخرى، قالت: "حالي حال السيدة التي صارت زوج خادمها ...". قلت وأنا أهزُّ رأسي متفهماً من حيث المبدأ: "لكنك وافقت بملء إرادتك؟". برطمت بحزن، وزفرت بأسف حتى ظننت حقاً أن معاناتها تفوق مأساتي وهي تقول: "ظننت أن مرافقته إياك جعلته شخصاً أفضل..". ولا أدري كيف استرقت مني بعد ذلك ساعة أو أكثر، خارج نفسي وأنا أحاول مواساتها.

عند الظهيرة تقريباً سمعنا قرقعة الباب الخارجي فتلملمت بسرعة وحملت طعام الإفطار الذي لم أمسه، وخفَّت إلى غرفتها التي تواجه مسكني في الجهة المقابلة من السور على بعد حوالي خمسة عشر خطوة لا أكثر بعد أن همست: "نتم حديثنا فيما بعد.. زوجي والرجال لا يريدونني أن أتحدث إليك". ومن نافذة

غرفتها سألتْ بخفر مصطنع "من؟". "أنا أبو علي.. افتحي". كان باب القلعة العليا كما صممته لا يفتح إلا من الداخل، وفي الداخل ليس إلا أنا وشرف وزوجته، وفي الأعلى الفتيات الثلاث، الممنوع عليهن الخروج أو الظهور من مسكنهن، الذي يفتح بابه من الخارج فقط.

دخل الدهدار غرفتي ولم يحيني، توجه مباشرة إلى الصندوق الكبير الذي أخفي فيه مواد وأجهزة تصنيع الخشخاش، الذي يسميه ورفاقه "الهاوما"، ضاربين صفحاً عن الفروق "الطفيفة" بين الشيئين. وهم وإن كانوا لم يتعاطوا هذه المادة أبداً لخشيتهم من تأثيرها الغامض، والخبل الذي تؤدي إليه، إلا أنهم يعرفون الكثير عنها، من خلال تعاونهم معي أثناء "مناولة" الفداوية لما كنت أسميه "شراب الخلود أو الجنان" في السنوات السابقة.

فتش الصندوق وأخرج كمية صغيرة من كل مادة وتوجه إلى "الجنَّة" حيث الفتيات اللواتي اكتسبن معرفة وخبرة أوسع بإعداد وتعاطي هذه المادة، بعد تخصيصي لكمية صغيرة لهن بسبب الأعراض واللوثات التي أصابتهن بعد تناوله عدة مرات.

وفي ليل ذلك اليوم، جاء الدهدار مع القصراني وجلس وراء الستارة، ثم خرج القصراني وجاء مع شرف بفداوي لا تقوى قدماه على حمله، كلمه الدهدار منتحلاً صفتي، بصوت يشبه صوتي، وبالعبارات ذاتها التي كنت أتحدث بها، عن الموت والفداء وخلود الروح وفناء الجسد، ثم ناوله بجلال الخنجر الطالبقوني من تحت الستارة، وكلفه بعملية في مسجد الري، ثم أسقاه "الهاوما" وحملوه إلى الجنة. حدث كل ذلك وأنا متكوم في الزاوية، أرى وأسمع بصمت.

في الصباح التالي خرج شرف باكراً ليتابع مع "الرجال" أمر أول فداوي يطلقونه بمعزل عني، وجاءت بثينة باسمة، وصفت لي كيف انهار الفتى، بسبب الجرعة التي كانت أكبر من طاقته كما رجحت، وكيف حسبوا أنه مات، وقرروا إلقاءه من على السور إلى الوادي، ولكنها لاحظت في آخر لحظة تنفس الفتى

فنبهتهم و"أنقذت حياته". ضحكت هذه المرة، قلت لها: "لم تنقذيه... بل قتلتي فقيهاً في الري أيضاً". لطمت وجهها بلطف نادمة فتضرج خدها الأيمن بحمرة تشبه حمرة تفاح رأيته في فلسطين يدعى أبا خدٍ وخد. أخبرتها بذلك فأحمر خديها كلاهما، وانسحبت خجلة كأنها تسمع هذا الغزل الرقيق لأول مرة، وقررت في تلك اللحظات أن أراقب علاقتها بشرف... أحقاً هي بائسة إلى تلك الدرجة؟ أيمكن لشخص مثل شرف، ألا يفكر ليل نهار في طريقة لإسعاد امرأةٍ لديها كل هذه الأنوثة.

كانت قدرتي على الملاحظة، التي كنت أقرن انعدامها عند المرضى بدنو الأجل، قد تناقصت كثيراً في الآونة الأخيرة، لم أعد ألحظ حتى أشياء في غاية القذارة وعفونة الرائحة، أحدثها أو أجلبها معي إلى غرفتي فتبقى فيها حتى تأتي بثينة وتزيلها. ولكنني استعدت تلك الملكة الكبرى في بحر أيام قليلة. وانسحبت الأفكار السوداء كما يسحب السيف الذي غرز من البدن، أثره المؤلم القاتل لم يزل، لكنني صرت أفضل حالاً مع جراحاتي وحدها.

لاحظت مثلاً، وعلى مدى أيام أن شرف لا يقيم علاقة جنسية مع بثينة، وأن علاقته بها طعامية تقريباً، فهو يستمتع استمتاعاً يكاد يداني النشوة، بالوجبات الدسمة التي تعدها وتقدمها له ليأكلها وحده... ووحده فقط وبناء على رغبته. كان ينقض على جفنة اللحم والأرز الكبيرة بعد أن يخلع عنه عمامته فينز العرق الغزير من هامته الغريبة التي لم يعد يغطيها سوى بضع شعيرات يتوزعن فوقها بلا انتظام. لم يكن هناك مشكلة في كمية الطعام... كانت المشكلة على ما أظن في الكيفية التي نشأت بها حاسة ذوقه، وممن وكيف. يؤكد ذلك أن شرف لم يكن "وحدانياً"، حين تولم الولائم في الجنة الصغيرة في الأعلى، كان يأكل مع الجميع بشراهته ونهمه المعتادين. ولم تكن متعته الطعام فحسب، كان يضاجع زهرة، وكانت تستمتع باختراقاته الحيوانية الهائلة. فقد اقتسموا الفتيات الثلاث، الدهدار أختص ببروانة، الفراشة التي تحلق بالهاوما وتتفنن في العهر، والقصراني

اختص بجالا، قطرة الندى التي ترطب نفسه الحربية الجافة، عندما يلعقها طوال الليل.

وحين جاؤوا بفتىً فداوي آخر ليرسلوه في مهمة لم أعرف إلى أين، لأني غادرت غرفة التلقين يومها وصعدت إلى كوة المراقبة، منع الدهدار والقصراني عشيقتيهما من مضاجعة الفتى، واكتفيا بمداعبته، كانا يغاران عليهما!. ولم تضاجعه سوى زهرة، لأن شرف لم يكن كذلك، أو لأن أحد لم يكن يكترث لمشاعره. وحين أخذوا الفتى إلى الخارج، وعاد الرجال المستثارين ليحتفلوا بانجازهم، كان شرف أكثرهم استثارة وشغفاً بعشيقته، مع أنها الوحيدة التي نُكحت.

وذات يومٍ، ربما بعد ثلاثة أشهر من تلك الحادثة، بحت لبثينة بجملة تصوراتي عن علاقتها بشرف، أدهشتها استنتاجاتي، لكنها لامتني على إفراطي في تأمل شيء لا يفيد. قالت: "لماذا لا تهتم بنفسك؟". ضحكتُ. قالت: "لا... أنا لا أمزح.. لماذا لا تستمتع أنت؟!". قلت: "وأنا لا أمزح أيضاً... ولكن بم استمتع". حتى تلك اللحظة لم يكن قد خطر لي شيء من هذا، لم أفكر فيه مطلقاً. شردت عيناها قليلاً نحو اليسار، وابتسمت لتظهر غمازتيها في صحن وجهها الذي يفيض صحة ونظارة. قالت: "لم لا تجرب الهاوما... لقد صاروا يشربونها جميعاً... لماذا تحرم نفسك منها وأنت مكتشفها؟". وباعدت بين شفتيها قليلاً معلنة عن تواطؤها المسبق معي. ثم ذهبت أبعد، قالت: "أنا أيضاً أرغب بتجربتها..".

لم أفعل شيئاً، هي حددت الموعد، اختارت اليوم الذي ذهب فيه شرف ليجلب غلاماً يخدم الفتيات اللواتي لم يعدن يقوين بسبب الهاوما على فعل شيء سوى قضاء الحاجات الضرورية وفتح سيقانهن. هيأت المكان، أغلقت البابين بإحكام، جاءت بالماء البارد والعسل الخفيف. عجنت بأصابعها العاجية المواد كما أرشدتها. مددت العجينة بالماء بالمقدار الذي أشرت إليه، ثم مزجته بالعسل

وسكبته في كوبين متساويين... وتذوقنا.

لا أستطيع أن أقول أن طعمها لذيذ، رغم العسل لم استسغها، لكن الإحساس الذي خلفته، بعد برهة من الوقت، وهو شيء يصعب وصفه بدقة، كان بالتأكيد أروع إحساس قد يعاينه المرء في حياته، الإحساس الخالص بالسعادة اللا متناهية، بلا جهدٍ ولا تبعات. وفاق إحساس بثينة إحساسي هذا، ودنت مني زاحفة على بطنها تريد تقبيل يدي امتناناً، وعيناها تغرورقان بدموع لا تعرف سببها، حتى أنها كانت تضحك ساخرة من نفسها ومن تلك الدموع. وحين تركت كفي المتراخية بين كفيها اللدنتين، وحين راحت تداعب شعيرات أصابعي بشفتيها الرقيقتين، أدركت أنني وجدت درباً آخر للخلاص، درباً لا يصعد إلى النجوم، ولا يدل عليه الفرفاشيين "العظام"، ولا يحتاج إلى تعاليم الرسائل ولا إلى وصايا الأفستا المعقدة المرهقة حول تبجيل مولانا الكلب، وتعظيم قداسة سيدنا الديك... درب ضيق قصير، لدن ودافئ، مانح وآخذ، ودود ولطيف، شغوف وآسر... طري وحي... نُبعث منه أحياء، وفيه نموت... مثل حياتنا... ويكلفنا حياتنا، أو يهددها... يقتضي منا وحسب كوبين صغيرين من الهاوما، واضطجاعها على ظهرها، ورفعها ساقيها بانحناء خفيف عند الركبتين... وهمسها المترف الواهن: "تعال".. تعال إلى الفخ.. فخ الحياة الجميل... الذي أماتني... ثم بعثني حياً..ثم أماتني... ثم أحياني..... أماتني ثم أحياني.. وأماتني ثم أحياني.. وأماتني ثم أحياني... هو هو هو هكذا هكذا هكذا... هكذا هو الأمر، هذا هو الدرب... ببساطة... كما صنعته وشرحته ونفذته بثينة... التي لم تقرأ كتاباً قط، ولم تؤمن بإلهٍ قط.

حين أفقت من ذلك النوم الذي أمتدَّ من العصر حتى صباح اليوم التالي، لأول مرة دون كوابيس، دون مخاوف، دون ذلك الإحساس المريع بضرورة التسابق مع الزمن، زمننا المسمى عمرنا، عمرنا الشقي الذي نهدره في اتقاء خطر غامض مجهول، والتحايل عليه وعلى أنفسنا بأكاذيب ساذجة، فنضحي بالشيء الوحيد

الملموس الذي نملك، جسدنا وما يكتنف من متع، نهدرها ونهدره، نستبدلها ونقايضه بلذة زائفة وخلود مستحيل... في ذلك الصباح فقط وعيت فضائل الاسترخاء والهدوء، وعدت إلى النوم الجميل من جديد بجرعة هاوما .

اقتنصنا لحظات سعادتنا يومياً تقريباً: عندما تحضر طعامي ثلاث مرات في اليوم، عندما يلتئم شمل "رجال" دولتي في جنة عشيقاتهم، عندما يغادر زوجها شرف القلعة العليا ... نستمتع حتى في السويعات التي يؤوي فيها إلى غرفته، ويكشف عن صلعته ويحشو كرشه المستجد، ويتجشأ برضا . فحضوره يجعلني مثل وتر القوس المشدود، ويجعلها مثل دريئة تتوقع نبلاً في كل لحظة . تهرع ما أن يغادر، قاطعة مسافة الخطوات الخمسة عشر، بخمس خطوات متلهفة، نرفع ثوبينا في لحظة واحدة، ونتصل.

بدأت الهاوما تنفذ، كان الاستهلاك كبيراً، وفجأة جاء الدهدار وحمل كل المخزون إلى غرفة الفتيات. الحرمان أيضاً لذيذ أحياناً . شعرت بشيء ما في جسدي يعوى مثل الذئب، شعرت بكل ذئابي تستيقظ وتعوي منذرة، ثم تبدأ بالنهش. جسدنا موضع سعادتنا الذي يكافئنا حين نرعاه، يعاقبنا بقسوة أيضاً حين نهمله. مع الحرمان أيضاً ومع تسلل بثينة لسرقة بعض الهاوما من غرفة الفتيات، وتجرعنا له على مهل، استطعت أن استنتج بما لا يقبل الشك، أن كل شيء ينبع من ذلك الجسد، عاينت بوضوح شديد كيف بدأت عدوانيتي تتراجع ، وكيف اختفت مشاعر النقمة، وكيف توارت مخاوفي، وكيف تحاقرت أوهام المجد التي كانت تفتنني لتغدو شيئاً لا يأبه له... الهاوما ذهبت إلى قلب شقائي وفتكت به فتكاً . جعلت جسدي غير قابل إلا للسعادة والسرور والبهجة . لا سرور ولا سعادة ولا فرح خارج هذا الجسد . وأما الفناء، وأما الخلود، والنفس، والروح، وما يريده يزدان وما ينشده أهرمن، فأشياء لا تعني سوى الحمقى. ومن كان جسده ذكياً فصيحاً، عاش الحقيقة كما يدركها، الآن، هنا، بلا ماض، ولا مستقبل، مثل عالم ينشأ في الحلم.

أخيراً جاء أبا الفتوح من أردهن. رغم أنني جعلته يصبح قائد قلعة، وهو الذي كان لاشيء، إلا إنني لمحت في عينيه نظرة معاتبة تقول: "لقد ورطتني يا خال".

شكوت له تعسف الدهدار والقصراني، فتوعدهما. وحين وصل بوزرك من لاماسار واجتمع الأربعة في جناح الفتيات استطعت أن ألاحظ من كوتي أنهم متفقون تقريباً على كوني أصبت بلوثة بسبب مقتل ولدي. خططوا مطولاً وبدقة لمستقبل دولتهم، وقبل أن يتفرقوا طلب أبا الفتوح من الدهدار أن يلبي كل طلباتي.

طلبت أن يخصص لي صندوقين من الهاوما الجيدة، من محصول إنداج حصراً، وأن تحفظ في غرفتي، وأن أزود بكمية كبيرة من العسل الجيد ... وفقط.

بعد أيام من تلبية كل طلباتي وسفر الرجال الآخرين، مرَّ الدهدار أمامي مهموماً يحمل رسالة إلى برج الحمام. كنت في أعلى مصافات السرور، رددت العبارة الأفستية الشهيرة وأنا أغمزه: "لا تسعى لتنظيم الحياة الأرضية واستقرارها، فروح من يسعى إلى ذلك تشقى". نظر إليَّ بدهشة لا تخلو من فرح. قال سعيداً بهيئتي التي تحسنت تحسناً لا يصدق: "صباح الخير!..". تأملني قليلاً ثم قال: "تبدو شاباً يا سيدنا الرائع... أنا أنهكتني الهاوما .. هل تستخدم دواء؟!". قلت هازئاً مردداً حكمة أفستية أخرى: "عندما تصبح مثل الأبقار والأغنام والسمك والطير والثعلب والحمامة، عارفاً ما تريد، فإنك تصبح ناضجاً، ولست بحاجة إلى شيء". تأمل بشرتي المتوردة مطولاً ثم ردَّد من الأفستا وهو يلوح بالرسالة الصغيرة بين أصابعه ويضحك: "قول الحقيقة حسن، لكن يحدث أن يكون ذلك إثماً..". وضحك، ثم أكمل الحكمة فأكملتها معه ورددنا بصوت واحد: ".. قول الكذب سيء، لكن يحدث أن يكون إتيانه من التقى..". ضحك بصوت عال ومضى. وما لبثت أن دخلت بثينة التي كانت تنتظر في الخارج. إنها تعالجني هذه الأيام بأطعمتها اللذيذة، تأتيني كل صباح بمعقود الكرز أو الورد الأحمر، مع كمية كبيرة من جبن الماعز المالح الشهي، آكل بضراوة، فأضطر لتناول كميات كبيرة من الماء. بثينة تقول أن الماء هو الحياة، وبقدر ما نأخذ منه، نضمن

الصحة وطول العمر. "ثم أنه.." ودنت مني تهمس بشيء، فالتقطت طُعم مصيدتها . في تلك اللحظة آب الدهدار فجأةً فانفصلت عني. سألها عن زوجها، قالت أنها لا تعرف. قال سيرسله في مهمة عاجلة إلى أردهن، وغمز... أعتقد أننا سنعود أصدقاء أنا وهذا الدهدار الذي جعلته الهاوما أزكى نفساً وأطيب روحاً.... وشرف سيغيب لأيام، وسيتحقق لنا أنا وبثينة ما كنا حلمنا به طويلاً ... ما يحلم به كل عاشقين يفصلهما تحريم صارم.. أن نبيت ليلة أو أكثر في فراش واحد ...

في تلك اللحظات التي كنت فيها عجوزاً فاسقاً متقد الشهوات، كنت أتذكر حسين ومحمد، آراني ورفاقه الذين أرسلتهم إلى حتوفهم باكراً... ليتهم كانوا هنا ... كانوا شباناً ويستطيعون أن يستمتعوا أكثر، قبل أن يذهبوا إلى العدم، الذي أعتقد أنه ليس بذلك الشيء السيء على كل حال، بل أظنُّ أنه شيء جميل... ولسوف أرحل بإيمان عظيم، ويقينٍ راسخ بأنني سأذهب إليه بلا رجعة إلى هذا "الوجود" اللعين... أجل سأذهب إلى العدم... العدم الخالد ... المطلق... أجلس على حافته إلى الأبد، مرتاحاً، مستقراً، غير محتاج لشيء، غير راغبٍ بشيء، لا أحزن لشيء، ولا أفرح لشيء، لا يمسني أو يزعجني أي شيء، ولا أفعل أي شيء... هكذا هكذا، ولا شيء أقلّ... ولا تسألوني ما العدم... أنه مثل النشوة، عصيٌ على الوصف.

٢٠٠٩/٦/٣٠

انتهت

سيِّد الهاوما

لا أعتقد أن كل ردود الأفعال تلك قد أمر بها أحدهم أو على الأقل أوحى بها. صرخ شابٌ لا أعرفه قائلاً: "أقتلني يا سيدنا... خذني يا سيدنا.. أتوسل إليك أعطني خنجرك.." وتردد صراخه بمئات الأفواه، يردحون كما في حلقات المجاذيب: "اقتلنا... أعطنا خنجرك.. أقتلنا يا سيدنا". وصاح شاب آخر جارح الصوت: "هذه حباً بك ياسيدنا...". وتشلبط السور بخفة قط، وألقى نفسه إلى عمق الوادي السحيق. نظرت كالمشدوه من موقعي على السور إلى جسده يتمزق على الصخور المسننة وهو يسقط من ذلك الارتفاع الشاهق بسرعة هائلة، ثم وهو يتدحرج إلى القاع كتل لحم وردي، سرعان ما انحط إليها نسرٌ رمادي، كان يطوف في الوادي..

فجأة سمعت بين الجمع من يناديني باسمي، كانت زوجتي، تجأر بألم، وتتوسلني أن أعيد ولديها إلى الحياة!. تلفت حولي، صُدمت بعيني الدهدار اليقينيتين الصارمتين، وبنظرة القصراني البليغة في تعبيرها عن وحشية هذا الكائن الموغل في الحيوانية. عندما نظرت مرة أخرى إلى الستارة الحريرية البراقة لم أر من خلالها شيئاً، رأيت فحسب راية ترفرف في الأعلى، وتقود الناس إلى المهلكة، بقلوب راضية... هل أصابني الجنون أنا أيضا؟!.. هبطت الدرج مذعوراً، وأسرعت نحو غرفتي متعثراً. وأعتقد أني لمحت بثينة، تبكي بلا دموع، وتودُّ لو تحتضنني...

ISBN 978-9933-407-92-6
9789933407926
نينوى للدراسات والنشر والتوزيع